الطبعة 11

أشرف العشماوي

بيت القبطية

رواية

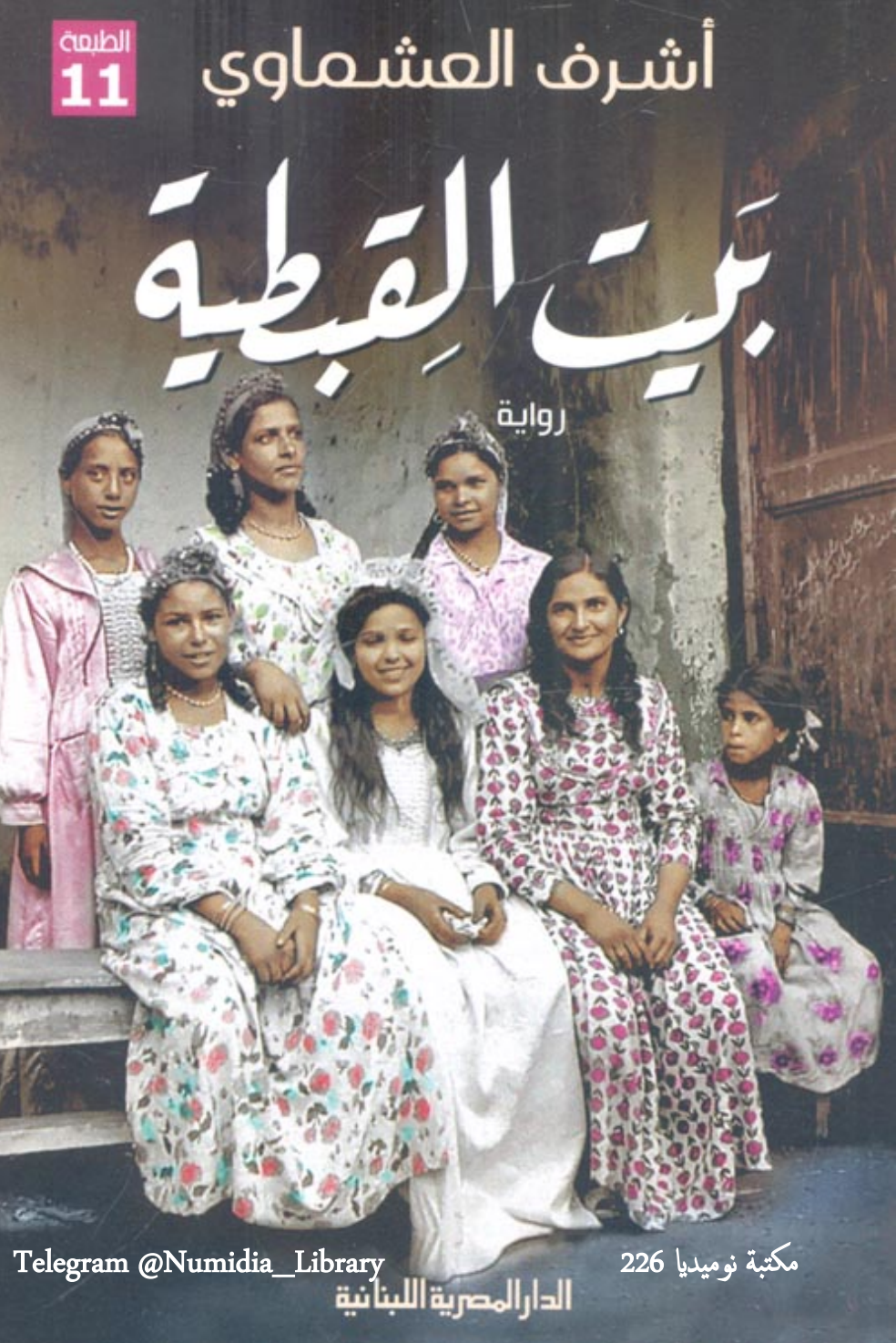

Telegram @Numidia_Library

مكتبة نوميديا 226

الدار المصرية اللبنانية

بَيت القِبطية

رواية

العشماوي، أشرف.
بيت القبطية: رواية / أشرف العشماوي .- ط7.-
القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، 2020.
240 ص؛ 20 سم.
تدمك: 0 - 246 - 795 - 977 - 978
1- القصص العربية.
ب- العنوان. 813
رقم الإيداع: 17418 /2019

©

الدار المصرية اللبنانية

16 عبد الخالق ثروت القاهرة.
تليفون: 23910250 202 +
فاكس: 23909618 202 + - ص. ب 2022
E-mail:info@almasriah.com
www. almasriah.com

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة

الطبعات: الأولى والثانية والثالثة والرابعة والخامسة: 2019م
الطبعة السادسة والسابعة : 2020م

تصميم الغلاف الفنان: عمرو الكفراوي.

صورة الغلاف لفتيات النسيج بمركز رمسيس ويصا واصف للفنون بقرية الحرانية.

جميع الحقوق محفوظة للدار المصرية اللبنانية، ولا يجوز،
بأي صورة من الصور، التوصيل، المباشر أو غير المباشر، الكلي أو الجزئي، لأي مما ورد في هذا المصنف، أو نسخه، أو تصويره، أو ترجمته أو تحويره أو الاقتباس منه، أو تحويله رقميًا أو تخزينه أو استرجاعه أو إتاحته عبر شبكة الإنترنت، إلا بإذن كتابي مسبق من الدار.

أشرف العشماوي

بيت القبطية

رواية

الدار المصرية اللبنانية

"لا يوجد مكان لحفظ السِّر

أفضل من رواية غير مكتملة"

Italo Calvino

روائي إيطالي

1

داعـب النُّعـاس جفونـي ببـطءٍ فقاومتـه بتكاسُـل، لا يتغلَّـب أحدنـا على الآخـر، حتى انحرفنـا فجأة إلى أقصـى اليميـن عـن الطريق السـريع فانتبهت، سُـحُب الخريـف الداكنة تمـلأ السـماء.. تتسـابق.. تتلاحم.. سرعان ما تتجمَّع متأهبة لإنزال المطر، تتراجع في آخر لحظة.. تنسـحب.. تتفرَّق من جديد، الظلام يطاردها ويحاصرها قبل أن يظفر بها ليبتلعها.

فتحـت نافـذة السـيارة، تدفَّقت نسـمة هواء باردة منعشـة، سَـرَت قشـعريرة بجسدي فأحكمت غلقها، أهتز ويرتجُّ جسمي كله من طُرُق غير ممهدة نسـلكها وسط الغيطان، ألمح لافتة يعلوها الصدأ، حروفها شـبه ممحاةُ، قـرأت ما عليهـا بصعوبة.. "قريـة الطايعـة".. مكتوبة أو ما تبقى منها بخط جميل كبير، رَبَّتُّ كتف السائق سائلًا:

- باقي كتير على ما نوصل؟

أشـار لمبنـى قديـم ثلثه متـوارٍ خلف أشـجار كافـور ضخمة وهو ينحرف ناحية اليسار قائلًا:

- وصلنا يا باشا.

أنزل السائق أمتعتي وسبقني بخطواتٍ واسعةٍ حتى اختفى وراء الأشجار التي تلف المكان بعشوائية، تحاول إخفاءه عن العيون فلم تفلح، فيعاونها الليل وهو يُنزل ستائره بهمَّةٍ لتتوارى مؤقتًا حتى الصباح. بدت لي الاستراحة أقرب لبيتٍ مهجورٍ فانقبضتُ، اقتربتُ لأرى مَحل إقامتي الجديد لسنةٍ قادمةٍ. على ضوء القمر الذي تخلَّى بالكاد عن خسوفه هذه الليلة، وجدتها فيلَّا صغيرة شُيِّدت على طراز إنجليزي متميز، وإن بَهت لون جدرانها، ترتفع لطابقين، مسقوفة بمظلات مُغطَّاة بالقرميد المائل، أمامها حديقة كبيرة، يحوطها سور خشبي قصير يمكنني القفز من فوقه بسهولة.. فقفزت.

شعرت بنشوة طفل شقي، رأيت على الأطراف في مرمى بصري مبنيين، خمَّنت من معمارهما وتماثلهما أنهما مخصصان لخدمة الاستراحة.. شقَّ السكون نُباح كلب يبدو مُقيدًا، أعقبه سِباب مُتقطِّع لرجل، مؤكد أنه ينهر الكلب أو يحاول قذفه بحَجرٍ كما هي العادة، تقطَّع النُّباح وخفُت، ثم سكت.

- حمد الله على السلامة يا باشا، نوَّرت "التايهة" كلها!

من وسط الأشجار الكثيفة ظهر رجل مبتسم ابتسامة محايدة، تقدَّم نحوي بخُطًى واسعة، تنفرج معها ابتسامته بالتوازي لتصير مُرحِّبة، تعجَّبت من نطقه لاسم القرية لكني تجاوزت دهشتي، لا بد وأنه يعرف حكايتها مثلي.

تفرَّست فيه جيدًا على ضوء مصباحه الذي يرفعه قرب وجهه، تخطَّى الكهولة بسنواتٍ كثيرة، شابَ شعره لكنه لم يسقط بعد، بنيانه يَشِي بصحةٍ متواضعةٍ تَفِي بأقل ضروريات الحياة، أنفه شبه معقوف طويل كقامته ورفيع كساقيه، على شفتيه بقايا ابتسامة مُربكة نوعًا ما، لا تخفت حتى وهو يتكلم، لا شك أنه رمسيس حاجب الاستراحة العجوز، حدَّثني زميلي وكيل النيابة عنه قبل أسبوعين، شارحًا ما سيكون عليه مسار حياتي هنا بقرية الطايعة على أطراف المدينة، الذي نُقلت إليه بدلًا منه دون سابق إنذار، مع أنه لم يمضِ على فترة عملي بالنيابة العامة أكثر من ثلاثة أعوام.

انصرف السائق مُخلِّفًا وراءه ضوضاء عالية من سيارته القديمة سرعان ما خفتت، حمل رمسيس الحقائب بسهولة رغم وهن جسده، مضى أمامي بخطواتٍ واثقةٍ كحرس شرف. شردت لوهلةٍ في حالي، انتابني هاجس غريب بوحشة المكان مرة ثانية، لكن ما إن أضاء رمسيس أنوار الاستراحة حتى شعرت بسكينة مؤقتة.

صافحت عيني مكتبة فخمة من خشب الأرو ترتفع للسقف، تُغطي جدارين من غرفة الصالة لكنها شبه خاوية، إلا من طبقات سميكة من الأتربة وبعض مراجع القانون الجنائي، مجلدات مبادئ محكمة النقض التي لا تخطئها عيني أبدًا من ضخامتها وتجليدها السيئ، وألوانها البُنِّية والخَضراء الداكنة. بالكاد لمحت كتابين مختلفين، محشورين وسط الكتب الضخمة، سُمكهما لا يشي بانتمائهما للقانون ولا حتى من بعيد.. فانجذبت.

جذبتهما برفقٍ من بين المجلدات التي تُطبق على دفتيهما، الكتابان لتوفيق الحكيم، روايته الشهيرة "يوميات نائب في الأرياف"، وثانيهما كتابه الذي لم يلتفت له كثيرون وقت صدوره.. "عدالة وفن". أهي مصادفة أن أجد هذين الكتابين تحديدًا الآن؟ كأنهما يُخبراني بما ينتظرني هنا!

أؤمن دائمًا بالإشارات والعلامات، فنحن في متاهةٍ، وطرق الخلاص تشابهت علينا، والعلامات منحة لا تُرد لنهتدي.

شقَّ شرودي وشرذم أفكاري صوت رمسيس هاتفًا:

- الكتب موجودة هنا من ييجي خمسين سنة وأكتر لكن ماحدش بيقراها.

خمسون عامًا؟! ابتسمت متخيلًا أن توفيق الحكيم نفسه خَدَم في ذات المكان وكَتَب أحدهما هنا، ثم ترك الاثنين بالمكتبة، لعلَّ أحدنا يقرأ فيتَّعظ.

عاينت بقية الاستراحة كمسرح لجريمة لا أعرف تفاصيلها، في ركنٍ قصيٍّ آخر وجدت منضدة طعام لتسعة أشخاص بعد لصق مقدمتها بالحائط، وإن كانت في حالٍ سيئةٍ لما رفعت مفرشها البلاستيكي الرديء، أعدته مكانه بلا مبالاة، ملتفتًا لرمسيس وقد أصابني سهم السأم في مقتل قائلًا:

- فين الأوضة المخصصة لي؟

- سعادتك تختار براحتك، عندنا أربع أوض نوم كبيرة، وكل

واحدة فيها فراندة شِرحة ترد الروح، ودورة مَية لا مؤاخذة ملوكي.

– أيـوة مفهوم.. مفهوم.. لكن مين من بهـوات المحكمة مُقيم هنا في الاستراحة يا رمسيس؟

– معاليك لوحدك يا باشـا، البهوات القضـاة بيحبوا البندر، بينزلوا في اسـتراحة المحكمة هناك وسـط الناس والمطاعم.. وَنَس وصُحبة يعني، مَاحدش نِزل في الاسـتراحة هنا ييجي من عشـرين سـنة وأكتر، كلهم بيمشوا بعد أسبوع، آخر واحد كمِّل المدة كلها هنا كان المستشار حنا بك فايز.. أكيد قريب سعادتك.. صح؟

– لأ موش قريبي وماعرفوش.

– عمومًـا محـدش بيقعد هنا أكتـر من جمعة، وبعدهـا يروح على استراحة البندر.

قالها رمسـيس مرة ثانية ثم ضحك بخُبثٍ يليق بسِحْنَته، استفسرت منه عن السبب فأجابني محاولًا تصنُّع الجدِّية:

– أصـل أهـل البلد من زمـان بيقولوا إن الاسـتراحة فيهـا عفريت وبيسمعوا أصوات بالليل، وكل ده بسبب الخواجة صاحبها اللي اتقتل فيهـا، والله لـو تعمل خير فـي وزارة العدل تقول لهم يبيعوها أحسـن والمشتري جاهز!

سكت رمسيس برهة ثم بَرطم بهمسٍ مسموع:

– وأهي كلها يومين وتحصَّلهم.

*****

2

غضبت أمي ولعنتني كعادتها.. نظرت إلى الحائط وشهقت مرة ثانية، حاولت فهم الخطوط التي نقشتها، مالت برقبتها، تعثَّرت في النطق، ضربت صدرها بيدها، مـرَّرَت كفهـا فوق الكلمـات في الفراغ ثم تحسسـتها، التفتـت نحوي وهمَّت بضربـي وهي تخلع مركوبهـا، لكنها تراجعت فـي آخـر لحظـة لمَّا ظهر أبـي قادمًـا نحونـا، احتواني برفـقٍ فلم يكن هناك خطر وشـيك من أمي في وجوده، غابت أنيابها وتبخَّرت عاصفة غضبها، فقط عادت تنظر للحائط مرددة بحسرة:

- حرام على دينِك ده احنا لسة مبيضين الحيطان يا بنت الكلب.

انبرى أبي مدافعًا كالعادة قبل أن أرد:

- ده كلام ربنا..

- طالما كلام ربنا يبقى خير.

ردَّدتها أمي على مَضضٍ بغير اقتناع وانصرفت وهي تلوي شفتيها، كيـف فات عليها أن أبي لا يُجيد القـراءة والكتابة مثلها، ربما تغاضت

عـن إحراجه أو خافت منه، فقد كان قاسـيًا معهـا وعلى النقيض معي، تبخَّر الأمر بسرعةٍ لكنه بقي بذاكرتي مع أشياء أخرى كثيرة بعدها.

راحت أمي تُعد طعام الغداء والعشـاء معًا في وجبةٍ يتيمة، يتناولها أبي معنا يوميًّا عندما يعود من الغيط مع زوال الشمس، عُدت لحجرتي والكلمات التي حفرتها بالمسمار ترن في أذني، تعلمتها في المدرسة ولا زالت عصيَّة على فهمي..

"الله لا يستجيب لكل طلباتنا.. لكنه ينفذ وعوده كلها".

طلبـت منه مرارًا وتكرارًا في صلاتي أن يُخلِّصني من شـرور أمي، لكن أبي هو الذي رحل مبكرًا.

*****

كلمـا أتيت إلى هنا تذكرت أمي، ما فعلته بي ومعي ينهش ذاكرتي، عشـر سـنوات مرَّت أمـام عيني كقطار سـريع، فلم أسـتطع تمييز عدد عرباتـه ولا ركابهـا، يُذكِّرنـي المكان بحزني، يُجسـده أمامـي كثعبانٍ يلدغنـي من ذات الجُحر مرَّات ومرَّات، لم يعُد هناك ما يربطني ببيتي، فقـدتُ بوصلتي لما صبرت حين كان يتحتم عليَّ البكاء، وبكيت حين كان يتعين عليَّ الصبر.

قبـل زواجي طارت آمالي في الحفـاظ على بكارتي من زوج أمي، افترسـني بغتة وأنا نائمة فـي البيت وحدي، نزع عنـي جلبابي وجذب سـروالي بقوة، كنت وقتها ضعيفة.. هشَّة.. مُستسلمة.. لم أجرؤ حتى

على المقاومة، مثلما تطير أوراق الشجر فزعًا من رياح خريفية هبَّت فجأة.

عرفت بعدها أنه وضع لي مخدرًا خفيفًا بطعامي، أبقى على وعيي لكنه سلب إرادتي، ماتت أنوثتي من يومها حتى دفنها زوجي خِضر من بعده. ربما لم أكن يومًا عذراء، فمنذ طفولتي وأنا حُبلى بوهم الحرية، أحلم بها وأتخيلها لكني لا أنام بعمق لأرى حلمي، مثلي مثل خِضر، كلانا ينتظر ما لم يحدث أبدًا، مع أننا من داخلنا نعلم علم اليقين أنه مستحيل الحدوث.

لا يتركني خضر بالبيت وحدي أبدًا بسبب غيرته، وكلما أتيت إلى هنا شعرت أنهم يعرضون قصة حياتي، يعيدون أهم مشاهدها وأكثرها قسوة، ليحفر الزمن كل مرة أخدودًا عميقًا من الجراح بقلبي.

- يا قوي يا رب..

يعلو صوت سائس الخيل بالعزبة للمرة الثالثة زاعقًا بينما قدماه غائصتان في روث الإسطبل، أسمعه وأراه بوضوح من مكمني، يدفع مؤخرة الحصان بقوة مع زوجي خِضر وقد وضع ذيل جلبابه بين فكَّيه، يُحفِّزان الحصان على التزاوج من مُهرة متوترة، واقفة في ركن شبه معتم، شامخة في كبرياء، تبدو مُتقبِّلة لنصيبها من حصان بائس بانتصابه الضعيف الذي لا يُغري بَغلة على التزاوج، تلك هي المرة الثالثة التي يفشل فيها هذا الحصان الهَرِم في اعتلاء أنثاه، يبدو عقيمًا، هكذا ظن السائس، لكن خِضر انبرى مدافعًا عنه وهو يَهم بلطمه،

وعبـارات السـباب تتطاير مـن بين شـفتيه كالرذاذ، مثلمـا يفعل عندما يكون منفعلًا.

- اركب يا بتاع الكلب.. اركب..

تندفـع الكلمات من فم خِضر بالتوازي مـع ضرباته، يُلهب مؤخرة الحصـان بالعصـا الرفيعة، يَفلح الحصـان بالكاد لثـوانٍ معدودات ثم يخـور فجأة، تبتعد المُهرة عنه بخطواتٍ مترددةٍ وعيون قلقة، تلتفت له نصف التفاتة، ربما تحثُّه على محاولة رابعة لما تأججت رغبتها بعدما تحركـت غريزتها، يُطرق الحصان بعيونٍ شـبه دامعـة، الزمن والهزال نالا منه، فترت الشهوة وصارت رفاهية فيما يبدو.

اقتـرب خِضـر من الحصان مناديًا على السـائس ليُسـاعده، تهاوى الأخير مُتعبًا، مُستندًا برأسه وظهره إلى جدار الزريبة بعدما نظَّف أسفله ليسـتريح، مال بجسـده لليمين قليلًا وأطلق ريحًا متدافعًا من مؤخرته كأنما يُعلن رفضه، ثم أشاح بيده لخِضر يائسًا من محاولة جديدة، راح بعدها في سُـباتٍ عميق، لكن خِضر عنيد لا ييأس، التفت ناحيتي وهو "يزغُر" لي بعينه كي أساعده، ارتعد جسمي كله من نظراته، فيما يبدو لمح لمعة في عيني بعدما تلصصت على المحاولة الفاشلة.

لا أعرف إن كنت أضحك أم أبكي.. في الحالتين ينفرج فمي وتضيق عيناي وقد يعلو صوتي أحيانًا، لكن حلقي دائمًا مملوء بالمرارة، تلك المرة تصعبت بشـفتي ثم ابتسمت، كتمت ضحكة بالكاد بين ضلوعي حتى أفلتت مني.

سبَّني خِضر كعادته وتلفَّت حوله باحثًا عن شيءٍ يقذفني به، سبقته ممسكة بحجر قريب، ألقيته بغيظٍ صوب الحصان العاجز فصهل وانتفض.

- بتعايريني يا فاجرة يا بنت الكلب!

بدا خِضر كمَن مسَّه الجنون فجأة، خلع مركوبه ليقذفني به وهو يهم بملاحقتي، فاحت رائحة الخوف مني، أدبرت مهرولة، بالكاد وصلت الدار قبله، لحقني قرب الفرن قبل أن أدور حوله، جذبني من طرحتي، طرحني بسهولة، تمكَّن منِّي مثل دُميةٍ صغيرة، انهال عليَّ صفعًا، أخفيت وجهي في حِجري من كفَّيه الكبيرتين، لم أعُد أسمع سوى سبابه المتلاحق، ركلني في بطني فتكوَّمت كالجنين، كتمت آهاتي، فكلما صرخت زادت شراسته معي.

شعرت بسكون للحظات.. طالت قليلًا ثم صارت مصحوبة بخرفشة وطقطقة، فتحت نصف عين مترقبة، رأيته يعبث بمقطف قريب، شهقت، فالمكواة الحديد ستكون بين يديه بعد بُرهة، يُحمِّيها ليكوي جسدي مثلما فعل العام الماضي والذي قبله لما تبين كذِب حملي لمرة ثالثة، لا يُصدق أبدًا أنه عقيم، مقتنع بأن العيب مني ويُعاقبني عليه كل مرة، بحثت عن طريق النجاة وسط كراكيب الدار، لكن جسد خِضر الأشبه بجدارٍ عالٍ من الطوب الأحمر صار يسد عليَّ سكك الهروب.

راح خِضر يُحمي المكواة وهو يُردد عبارات الوعيد، يبرطم بأنني سبب رفض المهرة للفرس، اعتدلت برقدتي، شددت أعصابي، انتفضت فجأة بعدما لمحت عصا الرحايا قريبة مني، أطبقت عليها بكفي، هويت بها فوق رأسه فهشمت نافوخه وظللت أتابع نوافير الدم المندفعة في ذهول.

خِضر لا يزال مُتسمِّرًا في مكانه، عيناه تميلان للجحوظ وترتفعان لأعلى، ندت منه آهة عالية وهوى بعدها، ليرتفع صراخه عندما لفحت المكواة بطنه وفخذيه، تلوَّى فجأة لثوانٍ ثم سكن بلا حراك. مات خِضر.

برقت عيناي وأنا أتأمله مرتجفة، سرى الخوف كجحافل نمل تحت جلدي، لا أُصدق أنني قتلته، نيَّتي كانت ضربه فقط، جريت حافية وسط الغيطان، بكيت بكاءً صامتًا حتى ابتلَّت مقدمة جلبابي، تشوَّش نظري فغشيت عيناي، فركتهما حتى كدت أقتلعهما من محجريهما، وقفت في مفترق طرق، أأذهب لمحطة القطار أم أستقل سيارة أجرة؟ وفي غمار انشغالي نسيت أن أطرح على نفسي السؤال الأهم: إلى أين أذهب؟

*****

3

تظاهـرت بأننـي لم أسـمع برطمة رمسـيس بتوقعه رحيلـي مبكرًا من هنـا، رحت أتفقد الاسـتراحة عاقدًا يـديَّ خلف ظهري، رأيت أن أسـتعرض لـه معلوماتي عنهـا بعدما لاحظت نظرة بعينيه تشـي بأنني لا أدرك ما ينتظرنـي هنـا ، أعرف أنها في الأصل شُـيدت لمهنـدس ري إنجليزي كان مسئولًا عن شمال الصعيد، عاش فيها سنوات طويلة حتى وجدوه مُلقًى في حديقتها مقتولًا بعيارٍ ناري، كان ذلك أوائل الأربعينيات بعد تولِّـي الملـك فاروق عـرش مصر بسـنواتٍ قليلة، قيل إنه قُتل بسـبب مشاجرة مع أحد فلاحي القرية واسمه عبد الله، لكن ثبت بعد التحقيق وقتها أن عبد الله هذا كان يجلس على مقهى بعيد طوال اليوم، وبالطبع شهد العشرات معه فحُفظت القضية ضد مجهول.

قاطعني رمسيس بحماس مَن يعرف بقية القصة:

– ما همَّا الإنجليز ماسكتوش و...

– أُصبر ما أنا جايلك في الكلام يا عم رمسيس..

استرسلت في القصة شارحًا كيف أن قرار حفظ التحقيقات ضايق الإنجليز فضيَّقوا على أهل القرية، انتقموا لمهندس الري الذي مات مغدورًا وتفرَّق دمه بين الأهالي، جفَّت أرضهم وماتت محاصيلهم، مع أن الحكايات تُروى عن عشق ابن الخواجة البريطاني لابنة الفلاح الجميلة "نور"، لكن المحبة ماتت أيضًا في قلب الابن ولم تشفع لهم. مع الوقت صار غالبية أهل القرية من الأقباط الذين وفدوا إليها من جنوب الصعيد، بعدما هجرها المسلمون للدلتا، فأسماها الناس قرية "أبو صليبة" وبعدها..

قاطعني رمسيس للمرة الثانية منفعلًا:

- صليب ده يبقى سِيدي ، جالهم من أسيوط وعلمهم شغل الكليم اليدوي لغاية ما بقوا أشهر قرية في بر مصر في عمايله.. بس تقول إيه على قِلِّة الأصل، بدل ما يشكروه راحوا يتمسخروا على اسمه..

تجاوزت غضب رمسيس وقصة جده لأمه وأكملت حكايتي ، قافزًا بالأحداث حتى قيام ثورة يوليو وكيف سُمِّيت القرية بالطايعة نسبة إلى محمد طايع عمدتها آنذاك، لكنهم من وقتها يُصرُّون على نُطقها "التايهة"، يبدو أنها نكاية في عائلة العمدة محمد طايع، الذي يُروى عنه تأييده للثورة منذ يومها الأول رغم أنها نكَّلت بالأهالي الأقباط من أصحاب الفدادين الكثيرة، لما قبضت على بعضهم وصادرت أرضهم وسجنتهم قبل مرور عامين على قيامها، ويُقال إن العمدة طايع ذبح عجلين كبيرين، سمَّى أحدهما فاروق والآخر فؤاد، فزارها جمال عبد

الناصر وبعض أعضاء مجلس قيادة الثورة وقتها، وأبقوه عمدة للقرية حتى مات، ومن بعده ورث أبناؤه العموديَّة حتى اليوم.

وضع رمسيس يدًا على خده وأخرى بين ساقيه تركها تتأرجح في الفراغ، ثم مطَّ شفتيه بامتعاضٍ قائلًا:

- وشربوا الشاي في بيته كمان يا نادر باشا، وباتوا ليلة لما حِلِف عليهم بالطلاق، وأخدوا معاهم زيارة مِشّ وفطير وهما مروَّحين!

التفتُّ إلى رمسيس المتهكم في ردِّه، غير المقتنع بما رويته له عن تاريخ الاستراحة، بعدما طلبت منه الجلوس معي ليحكي لي عن طبائع أهل القرية من باب قتل الوقت، فالليل هنا يشي بأنه موحش طويل والنهار عمره قصير، فوجدتني الذي يحكي ورمسيس مَن يتسلَّى.

ضحكت على تعليقه، ثم استرسلت سائلًا إيَّاه بجدِّية:

- قول لي صحيح يا عم رمسيس هو أنت مش مصدق الحكاية كلها والا زيارة عبد الناصر والعجول هي اللي مش داخلة نافوخك؟

- أهي كلها حكايات يا باشا طالعة من بيت طايع.. وفي غيرها حكايات ياما على كل لون، فات عليها سنين وماحدش عارف أصلها، أصل الناس في بلدنا بتكدب الكدبة وتصدقها.

سكتَ قليلًا كمَن يبتلع ريقه، ثم أردف بنبرةٍ غامضة:

- نور بنت العمدة هي سبب المصايب اللي حصلت هنا زمان لما طارت زي حمامة النار، وتاهت واختفت من بعدها، يمكن علشان

كـده بنقول عليها قرية التايهة مـن وقتها، وأهي كلها حواديت، وطايعة من تايهة مش فارقة، الاتنين ما يملكوش من أمرهم حاجة.

هرش رمسيس مؤخرة رأسه، ثم سألني على استحياء:

– هو اسـم الباشـا الكريم بالكامل إيه؟ أصل المحكمة بلَّغتني في الإشارة بالاسم ثنائي بس.

– وبتسأل ليه يا عم رمسيس؟!

بدا الارتباك على الرجل، لكنه استدرك بسرعةٍ فائقة، كأنما ارتباكه مجرد ومضةٍ عابرة، مُردفًا:

– علشان أصرف تموين الاستراحة على اسم سعادتك، يعني نبقى بتوع القانون ونخالفه ؟

– اسمي نادر فايز كمال والتموين كله على حسابي أنا.. من ماهيتي يا رمسيس، ده لو عاوز تمشي حسب القانون زي ما بتقول.

– سعادتك أكيد من أسيوط.. صح؟

اكتفيت بابتسـامة غامضة ألقمتها له بسـرعة، أنقدته مائة جنيه مؤقتًا لـزوم التموين الأسـبوعي، أخبرته بميعاد إفطاري فـي الثامنة صباحًا، ذكرت له صنوف الطعام التي أحبها، سـلَّمني مفتاحين للبابين الأمامي والخلفي، وغادر بعدها إلى أحد المبنيين القريبين من الاستراحة.

ظللـت أرقبه من بعيد وأسـمع صوته وهو يدندن بمـوَّالٍ غريبٍ لم أسمعه من قبل..

"شجرة محمد علي كِبرِت.. قطعها جمال

رقبتي كانت سِمسمة.. رفعها جمال

يا مِسا الجمال.. يا مِسا الدلال "

ثم سكت تمامًا لمَّا ابتلعه الظلام فجأة.

شـقَّ السـكونَ جرسُ هاتفي المحمـول، وجدت خطيبتـي تطمئنُّ على وصولي، عاتبتني بحِدَّةٍ كعادتها لإغلاق هاتفي، خرجت كلماتها مندفعـة متلاحقة كطلقـات فأصابتنـي بالصداع بسـرعة، عبثًا حاولت إفهامها أنني لم أُغلق الهاتف، وربما يكون الإرسـال هُنا ضعيفًا، لكنها لا تسـمعني جيدًا أبدًا،اضطررت لتكرار مـا قُلت عدة مرات، لترد هي في النهاية بعصبية:

- ما كنت تقول كده من الأول بدل ما تحرق دمي وتقلقني عليك!

تبدَّلت وصارت نبرتها ناعمة، ذكَّرتني بضرورة متابعة السـؤال عن قِطَـع الأراضي المخصصـة لوزارة العدل بالمـدن الجديدة كي نحجز فيها قطعة أو اثنتين لنبيعهما بعد ذلك لما يرتفع السعر، أو نبيع إحداها ونبنـي على الأخرى فيلَّا صغيرة، تمتمـت بكلمة "حاضر" عدة مرات متتابعـة لإنهـاء النقـاش. كنـت كمَن يسـكب المـاء بغزارة علـى النار لتخمد، لكنها لم تسكت.

رحـت أحكي لهـا عن روعة المكان هنا وهدوئه ولقائي برمسـيس فبـدأت تتثاءب، ثم تغير صـوت التثاؤب لما حلَّت سـيرة الأرض مرة

ثانية لتبتلع حكاياتي، ارتفع صوتها مُذكرًا بزوج شقيقتها الذي تخرَّج في كلية الشرطة، ثم التحق لفترة قصيرة بالنيابة العامة ولم يعجبه الحال بها ، فاستقال منها أيضًا، الآن صار مستشارًا بهيئة قضايا الدولة.

راحت تُعدِّد المزايا التي يحصل عليها من انتدابه بأربع وزارات في وقتٍ واحد، سيارتان كل واحدة بسائق من وزارتين وسيارة للبيت، وأربع بدلات للانتداب، كل منها يُضاهي مرتبه الأصلي تقريبًا، فضلًا عن علاقاته التي توطَّدت بكل وزير بهذه الوزارات، خاصة وزير الإسكان.

حاولت مقاطعتها فلم أفلح، جرَّبت إسكاتها برفع صوتي.. ففشلت، ضغطت زر إنهاء المكالمة فجأة، ثم رفعت إصبعي وعاودت الضغط مرة أخرى لفترةٍ حتى سكت الهاتف، لا توجد حلول ناجعة مع خطيبتي سوى هذا الحل الباتر، وفي الصباح كعادتي سأرسل لها نص الرسالة المخزنة على هاتفي قبل الاتصال بها، لأضمن أنها ستقرأ بلا مقاطعة..

"للأسف لقد فرغت بطارية هاتفي.. افتقدت حديثنا ليلة أمس بشدة"، ثم أعتذر لها ونتجاوز الأمر مثل كل مرة.

نفضت الموضوع برمَّته من رأسي، ألقيت نظرة خاطفة على معصمي، عقارب الساعة تقترب من المعانقة التامة احتفالًا بيوم جديد، تثاءبت وصعدت مُهيَّأً للنوم، اخترت إحدى غرف الاستراحة القِبليَّة. قبل أن أخلع رابطة عنقي، تناهى إلى سمعي طرقات متتالية

على باب الاستراحة بلا توقُّف، ترتفع مع كل دقة كأنها ستخلع ضلفتيه بعد قليل.

تذكرت كلمات زميلي السابق وهو يؤكد على ضرورة إحضار سلاحي الناري الشخصي معي، تحسَّست جانبي الأيسر، ارتبكت أكثر والطَّرقات تتعالى وتيرتها بعنف، بالفعل معي طبنجتي.. لكنها بدون رصاصات.

*****

4

هرولت في الغيطان حتى وصلت إلى محطة القطارات، وقفت ألتقط أنفاسي وضلوعي تكاد تُمزق صدري، دسست كفي بين ثديي، أخرجت نقودًا من كيسي الصغير، تقدَّمت بحذر نحو شباك التذاكر مرتبكة، أتلفت خلفي كل بُرهة.. التقط المُحصِّل الورقة المالية مني ودون أن يرفع رأسه نحوي سألني عن وجهتي، أصابع يديه تهتز بسرعة فوق الدفاتر قبل أن تستقر على إحداها، ترددت حتى التقطت جملة عابرة من بائع جرائد مر مصادفة بجواري، لم أُميز منها إلا ما يفك طلاسم حيرتي، فقلت بصوتٍ خفيضٍ متردد: "بني سويف".

على مقعد بالدرجة الثانية جلست قرب بابٍ مفتوح، تجمَّع حوله شباب ورجال يُدخنون، يتبادلون أحاديث عالية تغطي على ضوضاء أخرى آتية من احتكاك العجلات بالقضبان، مضى القطار ينهب الأرض من تحته بلا هوادة، أغمضت بقوة لأمنع دموعي، الصوت يعلو ويدق جنبات رأسي، القطار يُسرع ويدهس كل ما يعترض طريقه مثلما دهس خِضر بضع سنين من عمري، لويت شفتي وأنا أغمغم: "المرحوم خِضر".

رُحت أصلي وأدعو ألا ينكشف سري، بعد نصف الساعة شعرت برأسي يسقط على صدري، حاولت إيقاظ نفسي فأحكمت ربطة المنديل على جبهتي حتى ضايقني، فجأة علَت صافرة القطار ثم أبطأ من سيره وتوقف.

تململت في جلستي، شعرت بحاجتي إلى هواء نقي، تقدمت بهدوء ناحية الباب المفتوح، أفسح لي الواقفون مجالًا به خصوصية مقبولة، عبَّأت رئتَي من النسيم المنعش بنهم، ما زال جسدي ينتفض ويدي ترتعش، سمعت جلبة فتلفتُّ حولي، وقعت عيناي فجأة على ضابط شرطة بزيِّه الميري الكاكي، خلفه صول بكرش متهدلة وعسكري نحيل كما القلم الرصاص في ذيلهما، يسألون كل راكب عن بطاقته، حتى صار بينهم وبيني صفَّان من المقاعد، لمحت نظرة في عيني الضابط تشي بأنه اشتمَّ رائحة خوفي، فبدأ يتهيَّأ لتجاوز الصفَّين المتبقيين والانقضاض عليَّ.

لا أعرف ما الذي دار بعقلي، وهل صحيح أنني سمعت مَن يقول إنهم يبحثون عن قاتل خِضر أم أنها مجرد تهيؤات، كل ما أُدركه أنني هرولت نحو باب العربة، ثم قفزت من القطار وأطلقت لساقي العنان وسط ذهول مَن كانوا يُدخنون، لم ألتفت لهم ولم أهتم لصياح أحدهم من بعيد:

- ارجعي يا ست.. هنا فيه ديابة!

ظللت أجري حتى عبرت غيطانًا كثيرة، اجتزت قناية ضيقة وبِركة راكدة من بعدها لكنها أعرض قليلًا فتعثَّرت يُسراي، مِلْتُ للخلف

وفقـدت توازني ثم سـقطت، غاص نصف جسـدي بالوحل، حاولت تجفيـف جلبابـي دون جدوى، اسـودَّ لونه وشـعرت بثقلـه، بعد قليل اشتممت رائحة عطنة تفوح منه، أبت ألا تُفارق أنفي رغم أنني حككته بقوة.

واصلت السـير وقدمـاي الحافيتـان تؤلمانني حتى رأيت مسـجدًا صغيـرًا شـبه مظلـم، لكنـي لمحـت ضـوءًا خافتًـا ينبعث مـن المبنى المجاور له، تمتمت شفتاي لا إراديًّا باسم ستِّنا العدرا، استنجدتُ بها باكيـة، عـلا صوتي مرددة: "تدعـو فأنا أجيبك.. تدعـو فأنا أجيبك".. سـرت في طريقي نحـو النور حتى وجدت شـيخًا مُعمَّمًـا ظهر أمامي فجأة من وسط العتمة قائلًا:

- إنتي مين وعاوزة إيه الساعة دي؟!

ارتبكـت قليـلًا قبـل أن أُجيـب بعفويـة وأنـا أُصوِّب بصـري نحو النور:

- أنا نور.. اسمي نور.

- نـور؟! يـا خفـي الألطـاف نجِّنـا ممَّا نخـاف، اللهم اصـرف عنَّا غضبك ومقتك.. معاكي بطاقة؟

ازداد ارتباكي لاختياري اسـمًا تسـبب في انزعاج الشيخ، فتمتمت بتلعثم قائلة:

- بطاقتي اتسرقت من فترة وأنا غريبة مش من هنا و...

- إيييه.. كلنا غرباء في الدنيا.. اسم أبوكي إيه وبلدكم فين؟

- نور رِزق.. أنا من أسيوط وأبويا كان عمدة هناك ومات من زمان، كنت بازور جماعة قرايبي هنا والوقت اتأخر وفاتني القطر ومحتاجة أبات للصبح في الجامع، وبكره حاتصرف واسافر يا عمي الحاج.

- دي مَضيفة ودار مناسبات مش جامع، صلي على النبي الأول يا بنتي واهدي كده علشان نفهم حكايتك.

ارتعش جسدي كله، خفت من سهام نظراته التي تخترق صدري، تكشف حقيقتي عارية أمام عينيه الثاقبتين، منتظرًا بلهفة تأميني على كلماته، غمغمت مضطرة بالصلاة على الرسول محمد وسلَّمت، ثم أكملت سرًّا داعية العدرا لتُنجيني، رغم ذلك امتعض الشيخ وتقلَّبت سحنته وبدا غير مصدق لحكايتي وكوني تائهة، مع أنني كذلك بالفعل.

بالكاد سمح لي بالمبيت في المَضيفة ولم يسألني أسئلة أخرى، ربما لم يشأ دفعي لكذبة جديدة، وربما أزعجه نُواحي وبكائي فاشترى راحته حتى الصباح. التفتَ نحوي وهو يُسبِّح ويستغفر مقررًا بنبرةٍ غاضبةٍ حاسمةٍ أنني لا بد وأن أغادر مع أول خيط نور، أومأت بالإيجاب وأنا أقبض بأصابعي على طرف كُمِّي، خفت أن ينحسر فيظهر الصليب المدقوق برسغي، بعدما لاحظت أن الشيخ ينظر نحو كفِّي، ثم علا صوته مناديًا خادم المضيفة المقيم بحجرة مجاورة، لكنه همس له بما لم أسمعه.

مضى الشيخ رجب حسبما ناداه الخادم مُتلمِّسًا طريقه على ضوء هاتفه المحمول حتى طواه الظلام بعد قليل، ظللت أتابعه من وراء نافذتي، تنهدت ومسحت دموعي شاكرة العدرا على استجابتها ونصرتها، لأُفاجأ قبل أن ألتفت بيدٍ غليظةٍ تُربِّت كتفي، انتفضت، رأيت خلفي وجه الخادم ضاحكًا في بلاهة، كاشفًا عن صفَّي أسنان متعوِّجة يعلوها سواد طغى على صُفرتها البُنِّية، ارتعشت مبتعدة بخطوة، لتعلو ضحكة الخادم الذي لم يخفض بصره نهائيًّا عن نهدَي، وضع بطانية رقيقة من الصوف على السرير المعدني المرتفع قائلًا:

– والحلوة منين في أسيوط؟ أكيد من البداري.. طول عمرها بتولد حوريات.

لم أرد، لا أتذكر الآن اسم مركز من مراكز أسيوط، طارت من ذاكرتي فجأة، خفت أن أجاريه فأخطئ، هداني عقلي لكذبةٍ أخرى، قلت وأنا أنظر نحو النافذة وأعيد نظري إليه بسرعة:

– يكون في معلومك أمي من هنا.. أومال إيه.. بس أنا زعلت شوية مع جوز أمي، وراجعة أسيوط لجوزي وعيالي من بكرة الصبح.

جلس الخادم على حافة الفراش، عبث في جيب جلبابه باحثًا عن علبة ثقاب يشعل بها سيجارته، زفرت في ضيق، فجلسته ستطول وقد تمتد لأكثر من سيجارة، لم يخب ظني، فقد طالت فترة صمت تفرَّس فيَّ خلالها، حتى بادرني بالقول وهو يستعد لإشعال السيجارة الثانية:

– أعمل لك كوباية شاي معايا؟

- لأ شكرًا يا بن عمي.. أنا تعبانة وعاوزة أنام .

- هي أمك اسمها دُميانة ودارها غرب السوق كده؟

فاجأني سؤاله فأجبت بلا تفكير فاردة ذراعي عكس الاتجاه الذي أشار إليه:

- لأ.. اسمها هدى.. ودارها بحري كده جنب الترعة.

بدت الحيرة على وجه الخادم فارتبكت من نظراته، لوى شفتيه وهو يتفرَّس في جسدي مليًّا من أعلى لأسفل، ثم عبث بإصبعه في فمه لفترة حتى عثر على ما علق بين أسنانه، فركه وألقاه بعيدًا بالحجرة قائلًا:

- يبقى أكيد إنتي جارة أبونا صمويل؟

ترددت في الإجابة، لكن مع ملامح ابتسامة خفيفة على شفتي الخادم أومأت بالإيجاب، ابتسم لي نصف ابتسامة ثم "قطمها" فجأة وسلَّمني مفتاح الغرفة منصرفًا دون أن ينطق بكلمة. ما كدت أغفو حتى طرق الخادم بابي مرة أخرى فانتبهت، سألته مِن وراء الباب عمَّا يريد، أخبرني أن الشيخ رجب أوصاه بي، ثم أردف:

- يا ست نور أنا عملت لك كوباية شاي مظبوطة والسكر برة، ودي فطيرة مشلتتة وشوية جبنة قديمة يستاهلوا بُقك، تلاقيكي على لحم بطنك.. أنا سايب لك الصينية وماشي.

بعدها سمعت بابًا يُفتح ثم يُغلق ببطءٍ وصوت قدميه تبتعدان.

خاصم النوم جفنَي، تقلَّبت على مدار الساعة في فراشي، في البداية ظننتها تهيؤات من فرط خوفي، لكني الآن متأكدة أنني أسمع همسًا قريبًا من حجرتي يدور بين رجلين، انسبت من فراشي بهدوء كقطة مُتنمِّرة، اقتربت من الباب، وضعت أذني عليه حتى ألصقتها به وأرهفت السمع، كان الخادم يحكي لآخر أنه وضع لي منومًا بالشاي ومعه مفتاح آخر للغرفة، وينتظر اكتمال الساعة حتى يدخل عليَّ، ليهمس له زميله محذرًا:

– ماليش صالح بيك.. لو الشيخ رجب عرف إني سلمتك المفتاح التاني حتبقى وقعتك سودة لوحدك..

– ما يعرف.. أنا جاهز له بالرد، ومن دقنه وافتلُّه، ما هو ليل نهار يقول لنا النصارى كفرة ونسوانهم حلال، وحرام نعيِّد عليهم، وبندعي عليهم وراه كمان كل جمعة وقت الصلاة، خلاص يا خَيّ مصر حتخرب يعني لو ركبت البت النصرانية الكدابة دي؟ جت عليا أنا ووقفت عندي؟!

ظل الرجل الآخر على حذره يحاول أن يثنيه عمَّا يدور برأسه ويهدي شيطانه، قائلًا بنبرة منفعلة:

– ما يمكن البِت غلبانة فعلًا واستنجدت بيكم، اعتقها لوجه الله وبطل طفاسة.

– إنت أصلك على نياتك، أنا لمحت الصليب الأخضر مدقوق على إيدها وأقطع دراعي إن ما كانت هربانة من جوزها لما مسكها مع

عشيقها. اخرج من نافوخي أنا مكلفه الليلة، كل اللي عليك تأمِّن باب المضيفة وأنا مش حجيب سيرتك، والخمسة جنيه رقدت في جيبك خلاص.. قُلت إيه؟

– قُلت حلال عليا الخمسة جنيه ومالیش صالح بيك زي ما رسِّيتك.

لطمت خدَّي بلا صوت، تدافعت دموعي، تلفَّت حولي بالحجرة، نظرت إلى كوب الشاي والطعام قرب فراشي، شكرت ربنا لأني لم أقربه، عقلي يدور بسرعة لما سمعت وقع أقدام تبتعد، ثم تعالت أخرى غيرها بالتدريج، أنفاس ثقيلة تلهث ببطء وتعلو وتقترب، أعقبها صوت مفتاح يُحشر محاولًا الاستقرار في ثقب الباب استعدادًا للدوران.

"غيتيني يا عدرا.. غيتيني يا عدرا".. تمتمت بها مرتين ثم أغمضت عينَي.. اقتربت من النافذة، علا من خلفها صوت غريب، مخيف، مكتوم، لكني لا أرى شيئًا، فراعني ما سمعت.

*****

5

اختلست نظرة عابرة من النافذة لعلها تطمئنني فهالني ما رأيت، أبصرت جمعًا من الفلاحين لا يقل عن عشرين، غالبيتهم يحملون مصابيح زيتية ومشاعل ترتفع ألسنة اللهب منها، همهمة عالية تصدر عن بعضهم لا أُميزها، كبيرهم على ما يبدو هو الذي يتوسطهم، يحافظون على مسافة بينهم وبينه، تسمح له كل فينة وأخرى باستعدال عباءته على كتفيه وفرد ذراعيه. الكفوف لا تتوقف عن طرق باب الاستراحة حتى كادت تخلعه، هرولت مسرعًا على السلم الخشبي الذي يفصل بين طابقي الاستراحة، فتحت الباب راسمًا على ملامحي ضيقًا مضاعفًا، لأجد الجمع أكبر ممَّا توقعته، يتوسطهم رجل وقور أشيب، يضع نظارة قديمة سميكة على عينيه وله شارب رفيع. رفع كفه عاليًا فسكت الجمع المصاحب له، خرسوا في لحظة، فابتسم وهو يقول لي بثقة:

– أنا المستشار رضوان يا بني.. تسمح لنا بالدخول؟

لمحت رمسيس وسط الجمع، يُعافر كي يشق طريقه بينهم، تلاقت عينانا فقرأت فيهما تحذيرًا لم أفهمه، أفسحت الطريق للمستشار رغم ذلك قائلًا:

– أهلًا وسهلًا.. بس الحقيقة مفيش كراسي هنا تكفي ضيوفك يا معالي المستشار.

قهقه الرجل وهو يدخل مع رجاله في طوفان بشري غمر الصالة في ثوانٍ قائلًا:

– واضح إن سعادتك جديد في الصعيد يا نادر بك، الأرض واسعة والدار دارنا.

جلس الرجل متوسطًا الأريكة وافترش مَن معه أرضية الصالة، عدا واحدًا عفيًّا عريضًا وقف وراءه مستندًا بكفيه الكبيرتين إلى عصا غليظة مثل ملامحه، بينما ظل رمسيس واقفًا خلفي بكبرياء كأنه ملاكِي الحارس.

– ما اتشرفناش بالعيلة الكريمة يا نادر بك؟

التفتُّ إلى رمسيس مبتسمًا، فوجدته يُجيب المستشار رضوان بدلًا مني وهو يضغط على مخارج حروفه:

– نادر بك فايز ومن أسيوط كمان!

الأخيرة من عنديَّاته لكني تجاوزتها مؤقتًا مثلما تجاوز هو اسم جدي، لا بأس حتى نرى ما مشكلة هذا المستشار، تحدث معي

بأريحية كمَن يعرفني منذ زمن بعيد، سألني عن أمور العمل العامة كما لو كان رئيسي الأعلى، استرسل في عنجهية لا تجد ما يُبررها.. تفادى تفاصيل في إجاباتي تعمَّدت ذكرها عرضًا بالخطأ.. فساورني شك راح يكبر بسرعة لمَّا وافقني عليها، قاطعته بلُطفٍ سائلًا عن المحكمة التي يعمل بها حاليًّا، ببرودٍ جاء ردُّه أنه على المعاش، قبل أن يدخل في الموضوع الذي أتى من أجله وقد لاحت لي مقدماته، عُدت لسؤاله بإصرار عن آخر محكمة عمل بها، قال بصوتٍ خفيضٍ وهو يُدير عينيه بسرعةٍ بين رجاله:

- أنا يا بني الحبيب كنت مستشار قانوني في هيئة الصرف الصحي.. موش في القضاء.

- آه قول كده.. محامي الحكومة يعني، طيب وحضرتك والرجالة بقى عاوزين تحجزوا على استراحة وزارة العدل ولا إيه يا أستاذ رضوان؟

لم يبتسم لتهكُّمي سوى رمسيس، اسودَّت الوجوه من حولي وأظلمت أكثر من الليل الحالك خارج الاستراحة، بدا المستشار رضوان متنمرًا، أدمت كبرياءه كلمة "أستاذ" فيما يبدو، فوضع ساقًا فوق أخرى وهو يقول بثقةٍ لم تلتئم بعد:

- عاوز حقي وحق ناسي.. عاوز أرضي وطيني، عاوز أحمي حقوقي من ولاد بيشوي يا نادر باشا.

– طيب.. حاضر.. الصُّبح إن شاء الله حضرتك تنوَّرنا في المكتب ونشوف.

– صُبح مين يا باشا هو إحنا لسه حنستنى لما الشمس تطلع علينا ونعمل محاضر؟! أنت النيابة ذات نفسها، تلاتة بالله العظيم ما أنا قايم من هنا إلا ورجلي على رجلك تعمل معاينة للأرض وتمكِّني منها!

تبادلت نظرات بلا معنى مع رمسيس، وجدت وجهه مكفهرًّا يكاد ينطق بالرفض، ظللت متراخيًا كسولًا كأنني لم أسمع ما قاله المستشار رضوان المنشغل بمكالمة في هاتفه المحمول أجراها خلسة، بعدما أخرجه من جيب عباءته في خفة. طالت حيرتي حتى تجاوزت صمتي، وبانت على ملامحي فيما يبدو لمَّا علَت همهمات الجالسين من حولي. فجأة دق جرس هاتف الاستراحة الأرضي عاليًا مُعلنًا الخلاص من المأزق، هرول رمسيس للرد ثم أشار بالسماعة ناحيتي قائلًا بصوتٍ جهوري كأننا في المحكمة:

– معالي رئيس النيابة على التليفون يا نادر بك.

ساد الصمت احترامًا لهيبة القضاء حتى ولو عبر الهاتف، كان الرجل ودودًا معي، رحَّب بي كثيرًا، حدد موعدًا للقائي غدًا في مكتبه، وكلما حاولت مقاطعته كي أصف له حالي بالاستراحة فشلت، حتى باغتني هو في نهاية المكالمة قائلًا:

– المستشار رضوان عندك أنا عارف، شوف.. ده من أعيان البلد، والمركز هنا له طبيعة خاصة غير شغلك في القاهرة، انزل اعمل معاينة

وطلَّـع قرار تمكين مؤقت للمستشـار رضوان، وسـلِّمه صورة منه بس من غير ما تعلنه لعيلة بيشوي، وبكرة أشرح لك الموضوع بالتفصيل.

– لكـن يا باشـا الوقـت متأخر ودي مـش قضية قتل علشـان أنتقل لـلمعاينة حالًا و...

اختفت النبرة الودود فجأة لمَّا قاطعني بأخرى آمرة جافة قائلًا:

– ده شـغل يا نادر بك مافيهوش نقاوة، ودي إشارة تليفونية رسمية إثبتهـا بمحضـرك، ويـاريـت تتعـوِّد مـن النهارده مـا تقفلـش تليفونك المحمول خصوصًا بالليل.. مع السلامة.

وضعت السـماعة وأغلق رضوان هاتفه أيضًا في ذات اللحظة وهو يتمتم بعبارات شكر، إذن كنا ثلاثة على الخط!

أسدل رمسيس جفونه وهو يُطرق ببطء، هذا العجوز المُحنَّك لا بد وأنه فطن لما قاله رئيس النيابة لي، سـكت رمسـيس برهة ثم قال وهو يتحرك باتجاه الباب في تكاسُل كمَن ينتظر إشارة رجوع:

– أجهز العربية وكاتب النيابة يا باشا؟

طرح سؤاله بنبرةٍ يائسةٍ لا أملك معها ردًّا أو جوابًا سوى بنعم، نهض رضوان وعلى الفور كان الجمع كله منتصبًا حوله، وقف بجواري وهو يبتسم ابتسامة نصر واثقة، وضع يده على كتفي قائلًا:

– منتظـر معاليـك في العربية علشـان تمشـي ورايـا.. وأدلك على السكة.. لأنك جديد هنا.

سِرنا في طرقٍ غير ممهدة لكنها عريضة، وصلنا بعد نصف ساعة إلى مساحة شاسعة من الغيطان، القمر في طريقه إلى خسوف جزئي، الرؤية شبه منعدمة، ربما السماء غاضبة ممَّا نفعله، عاينت على أضواء مصابيح الغاز ومشاعل رجال رضوان حدودًا فاصلة بين قطعتي أرض، بالكاد أرى، على ضوء لهب شعلة طالعت خريطة قديمة قدَّمها لي رضوان، لا يبدو صاحب حق رغم خاتم النسر الحكومي الذي يُزين خريطته، مع عشرات التوقيعات الزخرفية لمدراء الوحدة الزراعية ووكلاء وزارة الزراعة والأمناء عليها.

الكل صامت مترقب، تعلو الهمهمات الخفيفة كلما شعروا بضجري، لا أعرف كيف ينفذون إلى وجداني بهذه السهولة كل مرة. ومضت في رأسي حُجة ارتاح لها وجداني، طلبت مسَّاح القرية وصمَّمت على حضوره، قالوا إنه نائم الآن.. تراخيت وابتسمت فرحًا بباب الخروج الذي انفتح، انتصبت قامتي وطويت أوراقي وهممت بالانصراف، لكن سرعان ما وُئدت فرحتي في مهدها، ارتفع صوت المستشار رضوان متعجلًا رجاله لإحضار المسَّاح من داره القريبة ولو بجلباب النوم.

من بعيد لاحت أضواء لامعة قوية، تنبعث من بُرجٍ عالٍ، قال رضوان كأنه يقرأ دهشتي على صفحة عيني ويُفسر ما عجز عنه عقلي:

– تخيَّل كل دي كنيسة يا باشا وفي تلاتة غيرها كمان في البلد وجامع يتيم .. حصار والله يا باشا.. أي والله حصار.

سكت رضوان قليلًا وهو ينظر إليَّ بتوجس، لكنني لم أُحرك ساكنًا يؤكد ظنه، فقال بنبرةٍ مختلفة:

– صحيح كلها بيوت ربنا والجماعة دول زي اخواتنا.. بس العدل حلو برضه يا باشا ومايصحش الكنيسة تاكل الجامع وتبلعه في عبها كده.

تجاهلت كلامه كله واستكملت المعاينة، بدا لي المسَّاح مُلقَّنًا بعناية، كأنما أحد رجال رضوان يختبئ في عباءته الفضفاضة، التي تداري تحتها كرشًا واسعة تمددت بين طياتها حتى برزت استدارتها، فصار مثل كمبوشة المسرح، ألقيت بسؤالي على المسَّاح فاستمدَّ إجاباته من نظرات رضوان وأعادها لي منمقة ومرتبة بعناية.

أنهيت عملي بصورةٍ روتينيةٍ وبأسئلةٍ نمطية، ثم دوَّنت قراري في ورقةٍ صغيرة، سلَّمتها لكاتب التحقيق لينقلها بخط واضح بالمحضر ونبَّهت عليه بعدم إعلانه للطرفين، بعدها صافحت رضوان بفتور وأوليته ظهري ومضيت نحو سيارة المحكمة. كان وجه رضوان لا يزال يبتسم ابتسامة نصر واسعة مستفزة لا تُخطئها عين.. لكني أيضًا كنت أبتسم.

في الاستراحة تركت الماء الساخن ينساب بغزارة على كتفي ورأسي، أغمضت عيني مستمتعًا، الأوجاع تنحسر وتتساقط مع قطرات الماء المنزلقة على جسدي حتى تلامس الأرض، شعرت بأن طنًّا من الأتربة والحشرات كان ملتصقًا بجسمي، الآن أنا أخفُّ

كثيرًا. تدثَّرت بأغطية ثقيلة ورُحت في سُباتٍ عميق، وصورة رضوان ترافقني حتى عتبة أحلامي. رأيته طائرًا ضخمًا بجناحين أسودين يطير فوق الاستراحة، يُطلق نعيقًا متواصلًا ويُطاردني وأحاول الفرار منه، كلما أغلقت باب غرفة علا الصوت قرب النافذة لأهرب إلى أخرى فيلاحقني، ثم أتى رمسيس ممسكًا ببندقيةٍ صغيرةٍ لا تُخيف ذبابة.. ومع ذلك أطلق منها عيارًا مدويًا يُفزع الأسد في عرينه، تهاوى رضوان وتطايرت ريشات أجنحته السوداء حتى سقطت إحداها فوق وجهي وغطَّته، فلم أعُد أرى.

*****

6

نفَّـذَت سـاقي مـا أمرها به عقلـي في ثانيـةٍ واحدة، كأنهـا كانت ترجـوه ليُخلصني، قفزتُ مـن نافذةٍ ترتفع لأكثـر مـن مترين ونصـف المتر عـن الأرض، وجدت أمامي كلبًا لا يظهر منه سـوى فكيه ولسـانه، اشتقَّ لونه مـن الظلام الحالـك، عيناه تلمعان بشـدة، أصدر نُباحًا خافتًـا سـرعان ما عـلا بشـكلٍ مُخيفٍ، وسـال لُعابه من فمـه المفتوح وهـو يقترب بحذر، ثم راح ينبـح نُباحًا متواصلًا واثبًا نحوي ولا يفلح فـي الانقضـاض عليَّ، كان مُقيدًا لكنه نجح فـي جذب طرف جلبابي، قاومتـه حتـى انفلتُّ مـن بين فكَّيه وجريـت، فكَّ الكلب قيـوده بعدها ببرهـةٍ وطاردنـي، سـبقته بالـكاد لمـا اجتزت جـذع نخلة ميـت يقطع الطريـق، توقف الكلب عنده فجـأة كأنها حدوده التي لا يجرؤ على أن يتعداها، ربما أراد حمايتي.. لست أدري، فأبي كان يقول لي دومًا ثقي بالكلب ولا تثقي بصاحبه!!

غِبت وسـط غيطان الذرة متسـترة بظُلمة الليل.. من بعيدٍ سـمعت اسـم نور يتردد عدة مرات على لسـان الخادم مناديًا، والكلب لا يزال ينبـح، لكنـي لم ألتفت لهما، أصابني دوار بسـيط شـجَّعه يأسـي على

انهيار أعصابي فجلست أبكي في صمت، لمحت عن يميني لافتة لم أستطع قراءة ما عليها بسبب العتمة، ثم تبينت جدارًا لفيلَّا مُخبَّأة وراء الأشجار الكثيفة ونورها الخافت ينطفئ، إذن لا يزال هناك أحد مستيقظًا، نهضت وأسرعت الخُطى حتى وصلت للباب الخلفي، طرقته بشدة، فتح لي رجل أشيب مندهش، ظل يُحملق في وجهي دون أن ينطق، خُيِّل لي أنني لمحت صليبًا مدقوقًا على رسغ يده التي يرفع بها المصباح، زفرت بعمق وابتسمت ابتسامة رضا لكنه خفض ذراعه بسرعة، فسقطت أمامه من شدة تعبي وخوفي وأنا لا أزال مبتسمة.

لطمني الرجل برفق عدة مرات، ربما ظن أنني فقدت وعيي، أشرت بإصبعي كي يفهم أنني لا زلت واعية، حثَّني على النهوض فلم أستطع، هَمَّ بحملي للداخل لكنه لم يقوَ على رفعي، جرَّني من كفي وإبطي حتى حجرة الصالة، توقف فجأة وراح يدقق في الصليب المدقوق على رُسغي، ابتسم في وجهي نصف ابتسامة قائلًا:

-أنا رمسيس إسكندر حاجب استراحة المحكمة.. اسمك إيه وجاية منين يا بنتي؟

-أبوس إيدك أبات عندك للصبح، أنا غريبة والناس في الجامع طردوني و...

خرجت الكلمات مني واهنة، فأشار لي بأن أسكت وأستريح وهو يتمتم:

-ما تخافيش أنتي هنا في أمان.

تغيَّرت نبرته الودود فجأة مع أنه يطمئنني، شعرت أن لفظ "الجامع" أطـار ابتسـامته بعيدًا كعصفـور فزع، أغلق بـاب الاسـتراحة بالمفتاح ووضعه بجيبه ثم صعد إلى الطابق الثاني، توجَّست وخفت أن يؤذيني، تحاملت على نفسي وصعدت وراءه بحذر، وجدته واقفًا أمام حجرة، طـرق بابها طرقتين ولم ينتظر ليسـمع مُجيبًا، أدار المقبض بحرصٍ ثم أضـاء النور، اقتربـت والفضول يدفعني من ظهري خلفه.. ألفينا شـابًّا نائمًا في فراشـه، تقلَّب بكسـل وهو يتثاءب بنصف عين كثعلب، فجأة هـبَّ من رقدته مفزوعًا ناظرًا إلينا بدهشـةٍ بالغـة، تعكَّر هدوؤه وعبث بيده أسـفل وسادته، سَـحب مسدسًا وأشـهره نحونا، انتفض رمسيس صارخًا:

-أنـا رمسـيس يـا باشـا.. رمسـيس.. والمسـيح الحـي خدامـك رمسيس.

ظـل الباشـا يُحملـق فـيَّ مندهشًـا ورمسـيس لا يُجيبـه حتـى انتبه لوجـودي وراءه، لكنه لم ينطق بكلماتٍ مفهومة، أنزل الباشـا يده التي ترفع السلاح وأشار بالأخرى بما يعني انصرفا الآن وسألحق بكما بعد قليل.

فقط يومًا أو بعض يوم قضاها وكيل النيابة نادر بك فايز هنا بالطايعة كما حكى لي رمسيس قبل نزوله إلينا، أخبرني أنه شاب مسيحي طيب من القاهرة وعائلته من أعيان أسـيوط. إذن هو غريب مثلي، ربما لهذا السـبب شـعرت بألفة نحوه وراحـة لعينيه الرائقتيـن وصوته الخفيض

رغم مسدسه الذي أشهره في وجهنا، فأصحاب الظروف المتشابهة يتقاربون بسرعة، علمت أنه يصغرني بخمس سنين تقريبًا، إلا أن همومًا قد ركبت فوق كتفيه فأضافت لملامحه أعوامًا كثيرة.

قال رمسيس أيضًا إنهما عائدان منذ ساعة فقط من مأمورية عمل، بالفعل بدا نادر بك متعبًا للغاية وهو يهبط الدرج الخشبي آتيًا نحونا، كان شابًّا خمريًّا طويلًا شعره أسود فاحم منسق بعناية، مقطبًا جبينه في حِدَّةٍ كأنه يرى كابوسًا أمامه يعقد لسانه، تثاءب عدة مرات في ضيق، جاهد كي تخرج كلماته واضحة، مع أنني لم أقل كل شيءٍ بعد سوى اسمي الحقيقي "هدى يوسف حبيب"، بعدما أطلعتهما على بطاقتي الشخصية.

-وإيه اللي جابك هنا في الوقت ده يا ست هدى؟ هربانة من مين وليه؟

انتهيت من حكايتي.. لكني أغفلت عنهما قتلي لخِضر دفاعًا عن نفسي وهروبي من بلدتنا، مثلما أخفيت ديانة خِضر، أدخلت على القصة تعديلًا طفيفًا رأيته ضروريًّا، قلت ببرودٍ ممزوجٍ بحزنٍ فات عليه الزمن ففتر؛ إن خِضر مات بالعراق منذ سنين بعيدة ولم أتزوج من بعده.

بنبرة مُحققٍ عاد يسألني نادر بك عن سبب هروبي، بدا غير مُصدق لروايتي الأولى كلها، خفت من غربلتها في ذهنه عدة مرات فيخرج منها بالقصة الحقيقية، على الفور رويت أنني هاربة من محاولة اعتداء

مـن زوج أمي، ولم أكن أدري إلى أين أذهب، فاسـتقللت القطار حتى وصلت قرية الطايعة، فنزلت بها ظنًّا مني أنها بني سويف بلدة المرحوم أبي.

تفـرس فيَّ نـادر بك صامتًا، يبـدو أنه يُقلِّـب الرواية علـى جنبيها، لكنها على الأرجح لم تختمر برأسـه. لم تخـب توقعاتي، برقت عيناه وأشـعل سيجارة في ضيق، وراح يتأهَّب لتوجيه أسئلة أخرى، تفاديتها بسـرعة لما بادرته بالقَسَم على صدق روايتي، وردَّدت بعض مقاطعها المؤلمـة مرة ثانية ثم بكيت بحُرقة، كنـت صادقة في دموعي فأطلقتها من محبسها بمقلتي لتنهمر، للغرابة وجدت رمسيس يؤمِّن على صدق كلامي. هزَّ نادر بك رأسه عدة مرات، لا يريد تثبيت الرواية الكاذبة في ذهنـه، نقـل بصره لوجه رمسـيس فوجده متهللًا، قبـل أن يوجِّه لي أي سؤال آخر باغته رمسيس قائلًا:

– يا باشا بعد إذنك أوديها الكنيسة الصبح لأبونا إسطفانوس علشان يرعاهـا ويحميها لغاية ما تسـافر بلدها تاني، الحكومة هنا ولا مؤاخذة مش بتجيب حق لحد مننا.. والا سعادتك تشور علينا إننا نعمل محضر للشيخ رجب والخدام بتاعه؟

ابتلع نادر بك الجملة الأخيرة في ضيق، نهض وهو يتثاءب قائلًا:

–وهو كذلك لكن مفيش بيات في الاستراحة، اعمل لها شاي بدل اللـي بِرد منها وهات لها فطار، كُلَّها سـاعتين والنور يطلع وتروح بيها على الكنيسة، أما موضوع المَحضر فيخصها لوحدها.

أغلق رمسيس باب حجرته بالمبنى الملحق بإحكام، خفض الشيش الخشبي لنافذتها، قدَّم لي شايًا جديدًا وبعض المخبوزات المحشوة بالعجوة، سألني إن كنت صائمة فهززت رأسي بالنفي، جلس يتفرس فيَّ وأنا أتناول طعامي بنهم، كلما فرغت من قطعة أشار للطبق لأتناول أخرى حتى امتلأ بطني، وعندما رفعت كفِّي شاكرة كرمه، اتسعت ابتسامته الصفراوية قائلًا:

-ناوية على إيه؟ أنا مش وكيل نيابة ولا ظابط شرطة، أنا قبطي زيك، يعني لازم تقولي الحق بأمانة علشان أعرف أساعدك.. عاوزة ترجعي بلدكم فعلًا والا مقطوعة من شجرة وعاوزة تعيشي معانا هنا؟

رغم ابتسامته التي لا تُريحني، وجدتني أقول:

-صدقني أنا بأمانة مقطوعة من شجرة وتحت أمرك يا عم رمسيس.

-أنا قلت كده برضه.. نظرتي ما تخيِّبش أبدًا.

نهض بهدوء بعدما أخذ مني بطاقتي، أخرج دفترًا زيتيًّا كبيرًا من تحت سريره، مدونًا عليه بالمداد الأبيض بخط كبير للغاية حرف "ز". أثار فضولي حجمه الهائل وطريقة كتابة الحرف الذي يتوسَّط غلافه العريض، قلَّب صفحاته ثم قرأ سطورًا فيها، دوَّن شيئًا ما فيه بقلم رصاص ونظر إلى ساعته، اقتربتُ أكثر لأرى فطواه مسرعًا، كان يظنني ناعسة، سألته عن معنى حرف "ز" فنفى أنه مكتوب من الأصل وأخفى الدفتر كله تحت سريره!

رفع حصيرة الشيش فتسرَّب نور طفيف عبر النافذة، أفهمني أننا سنذهب للكنيسة بعد قليل لنلتقي بأبينا إسطفانوس، لقَّنني ما يجب أن أقوله وكيف أحكيه وراجعه معي بدقة متقمصًا دور الأب الكاهن، لكنه لم يختلف عن القصة التي حكيتها . قبل أن نتحرك سألني للمرة الثالثة عمَّا إذا كنت متزوجة، فأجبته بالإجابة ذاتها التي قلتها منذ ساعات لوكيل النيابة عن وفاة زوجي خِضر بالعراق، وبالابتسامة الصفراء نفسها رد رمسيس بما لا أتوقعه:

- يبقى نقول مبروك علينا يا عروسة.

*****

7

تمـدَّدت بعـد الفجـر على فراشـي مُحلقًا فـي فراغ الغرفة بعدما خرج رمسيس مصطحبًا هدى لاستراحته، المصائب لا تأتي فُرادى أبدًا، على مدار أربع وعشرين سـاعة أو يزيد قليلًا، تعرضت لغرائب لم أمر بها طوال سـنوات عملي الثلاث بالنيابة العامـة، صحيح أن هذه المرة بالأرياف، لكنه ليـس مبرِّرًا لهذه المصائب المتلاحقة، كأن هذه الاستراحة ملعونة تسكنها الأشباح فعلًا . على ذكر الأشباح وحكايات رمسيس توجَّست، متذكرًا ما قالته هدى بأنها اضطرت لتغيير اسمها لما وصلت البلدة، لكن لماذا اختارت اسـم "نـور" بالتحديد؟! هل كانت هـدى تعرف رمسـيس من قبـل وخدَعَانـي؟! كيف يتصالح الشـيطان بداخلهـا لهـذه الدرجـة مع المـلاك الذي يكسـو ملامحهـا؟! لم أجد إجابـة تريحني، خاصة أنهـا تكذب في أمر نزولهـا بمحطة الطايعة في طريقها إلى بني سـويف، فلا توجد محطة للقطـار بهذه القرية، ولماذا تذهـب إلى بنـي سـويف إذا كانت وجهتها أسـيوط حسـبما ادَّعت؟! شـعرت فجأة برجفة وتقلَّبت في فراشـي، ثم رُحت في سُـباتٍ عميقٍ رغم هواجسي التي تركتها تُحلِّق فوق رأسي كغرابٍ جائع.

انتفضت للمرة الثانية فزعًا خلال ساعات قليلة، خُيل لي أنني سمعت صوتًا بالطابق السفلي، هرولت حافيًا بملابس النوم على الدرج الخشبي مناديًا رمسيس لكني لم أسمع مُجيبًا، أزحت ستائر النافذة فلمحته من بعيد يسير ووراءه هدى متأخرة بخطوة في اتجاه الكنيسة.

تهاويت على الأريكة الجلدية بالصالون تاركًا نفسي لدقائق أخرى من النوم، مترجيًا إياه أن يأتي ويذهب في هدوء، فاستجاب لي على مضض، وتركني لأكثر من ساعة أنعم براحة قلقة.

استيقظت في موعدي المعتاد رغم كل ما حدث في يومي الأول هنا. قبل أن أستقل سيارة المحكمة ظهر رمسيس فجأة على مرمى بصري قادمًا من ناحية الكنيسة بمفرده، استوقفني بندائه من بعيد، اقترب مهرولًا رغم سنه الكبيرة، لم أُعره اهتمامًا رغم دهشتي من عودته بهذه السرعة من الكنيسة، ركبت السيارة وأشرت للسائق بالتحرك، لحقنا رمسيس قرب بوابة الاستراحة وهو يلهث، الكلمات تخرج منه بالكاد، محافظًا على ابتسامته الصفراء التي باتت لزجة للغاية في وقت قصير بالنسبة لي، هتف قائلًا:

- أيوة كده رفعت راسنا وردِّيت لنا كرامتنا بقرار امبارح.

طلبت من السائق التوقف فورًا وقلت لرمسيس بحزم:

- عرفت القرار من مين؟

– هو في حاجة بتستخبى في بلدنا يا باشا؟ عرفت من سكرتيرك جرجس كاتب النيابة، ما هو ابن عمتي وقابلته في الكنيسة من شوية، وكمان البلد مالهاش سيرة من طلوع الشمس غير إن المستشار رضوان رجع الفجر لبيتهم وهو مدلدل راسه.

حدَّقت في وجهه بلا معنى ولم أجد كلامًا أقوله، يبدو أنني محاصر من كل ناحية، لا إراديًّا تخفَّفت من رابطة عنقي. فكرت في تغيير الموضوع وسؤاله عمَّا دار مع هدى بالكنيسة، لكني لمحت رجلًا غريبًا واقفًا قرب الاستراحة، بدينًا وطويلًا في آنٍ واحد، يرتدي معطفًا داكنًا فوق جلبابه، يحمل على كتفه بندقية كبيرة، اللافت فيه طربوشه الأحمر الذي يُخفي غالبية ملامحه من فرط كبسه على جبهته كأنه خرج لتوِّه من صفحات رواية توفيق الحكيم، سألت رمسيس عنه فأجاب بنبرة افتخار:

– ده نبوي الديب غفير الاستراحة يا باشا.

– وكان فين الديب أفندي ليلة امبارح لما الست هدى شرفت في الاستراحة؟

– في المركز زي العادة.. ما هو بيبيَّت هناك كل ليلة ويعاود الصبح.. أصل نبوي ده له قصة طويلة.

لم أُعطِ رمسيس انطباعًا باللهفة على سماع قصة نبوي، طلبت من الخفير الذي اقترب لتحيتي عدم مغادرة الاستراحة حتى أعود،

رد الخفير نبوي بصوتٍ عالٍ وقد جزعت ملامحه وتبدَّلت حتى باتت أقرب لطفل فزع تائه:

- وسعادتك حترجع هنا قبل المغربية، صح؟

هززت رأسي بلا معنى وأشرت للسائق بمواصلة السير، تحركت السيارة في اتجاه المحكمة، طوال الطريق تطوع السائق بالشرح أن نبوي الديب يعمل خفيرًا هنا منذ أعوام، ولا يُنقل لأي مديرية أخرى خوفًا عليه من ثأرٍ قديمٍ ببلدته في أسيوط، مهمته حراسة الاستراحة، لكنه قرب المغرب يذهب في حراسة رمسيس للمركز، حيث يبيت ليلته هناك كي لا يتعقبه طالبو ثأره في الظلام ويظفروا به فيقتلوه، وفي الصباح مع أول خيط نور يعود ليقضي نهاره باستراحة رمسيس، ولا يبارحها حتى غروب الشمس، علمت أيضًا أنه لا يستخدم المبنى الثاني، مع أنه مخصص له، كي لا يجلس بمفرده.

سكت السائق عن الكلام مجبرًا لما دخلنا البندر، غطَّى صياح الباعة الجائلين وضوضاء الدراجات البخارية على صوته، قبل أن نصل مبنى المحكمة بحوالي خمسمائة متر صادفنا تجمهرًا كبيرًا من الأهالي، ضوضاء هائلة لا يمكن معها تمييز هتافهم، بعضهم اصطحب بهائمه فتضاعفت الجلبة كلما اقتربنا منهم، توقف السائق إجباريًّا بعد زحفٍ بطيءٍ بسبب ظهور عميد شرطة يحمل جهازَي لاسلكي بيدٍ واحدة، تتدلى طبنجة ضخمة من جانبه الأيسر، يبدو أنه أعد كمينًا لإيقاف السيارات، عرَّفته بنفسي فابتسم قائلًا:

– حمد الله على السلامة.. أخيرًا معاليك وصلت، الكمين ده بسبب سعادتك، سيب لنا نفسك بقى.

– خير؟!

– خير.. بس قرار معاليك إمبارح ببقاء الوضع على ما هو عليه مِزعَّل المستشار رضوان وأهله وعزوته زي ما أنت شايف، ياريت سعادتك تنزل من العربية وتمشي جنبي بهدوء.. حندخلك من الباب الوراني للمحكمة.

طوال الطريق والضابط يشرح لي خطورة قراري بسبب طبيعة أهل البلد، حكى أن الأقباط يُشكِّلون أكثر من ثمانين بالمائة من السكان بالقرية على خلاف غالبية قرى مصر تقريبًا، ظللت أستمع ولا أُقاطع، كل برهة تلتقط أذني هتافات معادية للقضاء واتهام النيابة بالظلم، فيبادر الضابط بالتحدث في جهازَي اللاسلكي مؤكدًا على يقظة القوات لحمايتي، يعود لكلامه معي، يُفنِّد نقاط القرار وخطورته الأمنية بضرورة مراعاة المسلمين مثل الأقباط بالتساوي حتى ولو كان المسلمون أقلِّية، موضحًا أن أولاد بيشوي حصلوا على قرار تمكين العام الماضي في أرض أخرى، والدور كان أمس على عائلة رضوان، مع أن أرض المسلمين أكبر من حيث المساحة رغم قلة عددهم، مختتمًا بعبارة لم أكن أحب سماعها:

– لازم حِس سعادتك الأمني يكون سابق القانون بخطوة، وطبعًا معاليك عارف طبيعة الشغل بتاعنا، تسعين في المِيَّة حُسن تصرف وعَشرة في المِيَّة قانون.

فـي مكتب رئيـس النيابة لـم يختلف الـكلام كثيـرًا، وإن كان أكثر تنميقًـا وحصافة وأقل فظاظة من كلام الضابط، ارتفعت نسـبة القانون إلـى خمسـين بالمائة.. لا بـأس، لكني أبديت تذمرًا وأده رئيسـي على ملامحي في مهده لما اختتم كلامه بعبارة جعلتني أبتلع لساني.

– سـيبك من السياسـة وخلينا نتكلم بالقانـون.. النيابة العامة تبعية تدرجية رئاسـية.. يعني رئيسـك الأقـدم منك هو مُصـدِر القرار وأنت مجرد محقق يا نادر بك.

خرجت إلى مكتبي مُطرقًا، سِرت في ممر طويل خافت الضوء مثل بـرزخ مع أننا قبل الظهيـرة، أمامي حاجب يُفسـح الطريق ويطلب من الواقفين الارتكان على جدارَي الممر بظهورهم لتنفتح سِـكَّتي بينهم، مـن خلفـي حاجـب آخر يصيـح كل برهة وهـو يَمُط حـروف كلماته، خاصة حرفَي الطاء والراء اللذين ينغمهما:

– طاريـــــق.. طاريـــــق.. وسَّع السكة للباشا!

تلقائيًّا مع ندائه الأول وجدت نفسـي أجنح لليمين، نبَّهني الصائح خلفي بكوني لست المقصود، ظن مع ابتسامتي البلهاء أنني أمزح معه.. لا أعـرف، وصلـت غرفة مكتبي محاطًـا بنظراتٍ ناريةٍ مـن المحامين والمتقاضيـن، بذلـت جهـدًا لتفاديهـا، شـعرت بتضـاؤل حجمي من خجلـي رغم "الزفـة الكدابة" التي صاحبتني من مكتـب رئيس النيابة، ما إن اسـتقريت على مقعدي حتى علمت من سكرتيري بسحب قضية رضوان مني، لا بد وأنها ستُسند إلى زميلي، زفرت بضيق ولسان حالي

يكاد ينطق بل يصرخ بلعن هذه القرية التي ألهث فيها كمَن يركض في البرية منذ وطئت قدماي أرضها، وكأن لعنة الفتاة نور التي حكاها رمسيس لي قد أصابتني، ومسَّني الضُّر على ما يبدو.

*****

مضى شهر على عملي بقرية الطايعة.. تكوَّمَت على حافَّة مكتبي قضايا قديمة من العام الفائت، تخُص الزميل الذي حللت محله ولم أكن قد التفتُّ لها بعد، بسبب كثرة المحاضر اليومية التي تُعرض عليَّ، لفت انتباهي عنوان كبير بخط جميل على بعض الملفات.. "قضايا النفس"، اخترت قضية قتل، لخَّصت التحقيقات ومن قبلها البلاغ، وجدت أن أحد المتهمين لم يُستجوب حتى الآن، كذلك بعض الشهود لم يُسألوا، أغلقت الملف وذهبت لرئيس النيابة، عرضت عليه القضية متحفزًا، لكنه بعد دقيقة واحدة قال ببرودٍ شديد:

- اتصرَّف فيها زي ما أنت عاوز من غير ما ترجع لي.. دي قضية قتل عادية.. أحمد قتل محمد!!

قبل أن أُلملم أوراقي وأعود لمكتبي، قال دون أن ينظر ناحيتي:

- بلَّغني فقط بالبلاغات الجديدة.. بس قبل ما تتصرف فيها ولو بجَرِّة قلم.

أومأت بالإيجاب ولم أعرف إن كان قد لمحها أم لا، ربما استشعرها بخبرته وتأكد أنني لن أخالفه، استلقيت منهكًا على مقعدي، ألقيت

بأوراق القضية على مكتبي وطلبت فنجانًا ثالثًا من القهوة، لمحت في عيني سكرتيري تساؤلًا حرجًا..

"ماذا أنت فاعل ؟ "

ابتسمت وأنا أُسلمه ورقة صغيرة بها أسماء الشهود قائلًا:

– اطلبهم كلهم بكرة علشان نسألهم في نفس الوقت ومحدش يلحق يغير شهادته.

قبل أن يُغادر السكرتير علا صوتي بجدية:

– واللي يتأخَّر فيهم عن ميعاده أو يرفض الاستلام بلِّغني علشان أطلع له أمر ضبط وإحضار.

خرج الرجل وكلي ثقة أنه سيُبلغ كلامي للمأمور، ومن المؤكد أن الشهود سيمثلون غدًا خائفين. شردت في حالي وأنا جالس وحيدًا، تفترسني ظنون هائلة بمفاهيم العدل وسيادة القانون، تذكرت عبارة أبي المستشار فايز كمال يوم عُينت بالنيابة العامة وكان قد خرج إلى المعاش قبلها بشهور.. "ما تسمعش غير صوت ضميرك. السياسة لو تدخلت في القضاء أفسدته والقانون لو تدخل في أفعال الساسة لأصلح من حالهم".

أرجعت رأسي للوراء، أغمضت عيني برهة، أخرجتني طَرَقات خشنة على باب الحجرة من شرودي وذكرياتي، أعطاني الصول تمامًا مع التحية العسكرية، ثم تقدَّم بورقةٍ صغيرةٍ مدوَّن بها عبارات أشبه

بأسلاك شائكة، تُشكل سورًا متعرجًا في كل سطر، لم أفهم منها شيئًا، يبدو أنه شعر بحيرتي فقال من تلقاء نفسه مفسرًا:

– إشارة من قسم شرطة الجيزة بضبط محمد علوان شلتوت وتفتيش بيته لاتهامه في قضية اختلاس عهدة حكومية، وبيطلبوا تحقيق الواقعة بمعرفتنا.

ما إن فرغ من جملته حتى أحضر السكرتير ملف القضية الوارد بالبريد مع الإشارة لاستكمال التحقيقات، شعرت أننا على مسرح ولكل منهما دور محدد ووقت معين للظهور أمامي، تصفَّحت أوراق القضية في عجالة ثم ضحكت ضحكة مكتومة، رفعت سماعة الهاتف الداخلي، وأبلغت رئيس النيابة بنَص الإشارة وملخص القضية، سكت لبرهة حتى حسبته أغلق الخط لكنه استدرك قائلًا:

– قول تاني كده.. اختلس إيه محمد علوان ده.. أنا مش فاهم حاجة من كلامك يا نادر بك؟!

– طاووس يا فندم.. طاووس.. محمد علوان اختلس الطاووس عهدته من حديقة الحيوان في الجيزة ومخبيه في بيته هنا.. في الطايعة.

*****

8

الطريـق إلـى كنيسـة النور الكبيـرة يبدو أقصـر ممَّا تخيلت، دار رمسـيس حول الاستراحة نصف دورة ثم انعطف يسارًا مرتين، بعدها انحرف إلى أقصى اليمين، وجدتهـا شـامخة عالية أمامـي فجأة فارتاحت نفسـي، بوابـة حديديـة ضخمـة عريضة بـلا حـارس، تخطَّاها رمسيس ودخلنا من باب خلفي فتحه بمفتاحه!

تركنـي أنتظر في غرفة واسـعة بـلا نوافذ، الضوء يتسـرَّب إليها من كُـوَّةٍ يتيمة عاليـة، طال انتظاري، ولما نهضت لاسـتطلاع الأمر وتفقُّد المـكان وجدت رمسـيس قادمًا وأمامـه أب كاهن ضخم مبتسـمًا في وداعة، عرَّفني بنفسه، فقبَّلت يده الممدودة قائلة:

- ربنا يدينا بركة قدسك يا أبونا.

جلسـنا وهممـت برواية حكايتي الملقنة، لكن رمسـيس أشـار لي بإصبعه أن أصمت حتى قال أبونا بهدوء:

- متجوزة يا بنتي؟

- لأ يا أبونا.. أنا أرملة.

- واسمك إيه بالكامل وفين بطاقتك؟

- اسمي هدى يوسف حبيب وعمري 35 سنة والبطاقة مع عم رمسيس.

- احكيلي حكايتك يا بنتي.

رغم يقيني من أن رمسيس روى له حكايتي لكني حكيت ما جرى من زوج أمي ثم ما حدث بالمَضيَفة، ومع تصميمي على تفاصيل روايتي بخصوص زوجي المتوفَّى بالعراق، وافق الأب إسطفانوس على قبولي في خدمة الكنيسة، مسح رأسي بيده قائلًا:

- اللي معانا بقلوبهم أكتر من اللي علينا في الطايعة، والرب بيقول لا تَخْشَ من خوف الليل ولا من سهم يطير بالنهار.. إنتي هنا في أمان وسلام.

قرَّر أبونا أن أعمل في تنظيف غرف المبنى الملحق لتعليم الأطفال، على أن أنام مع سيدتين مُسنَّتَين في حجرة صغيرة أسفل السلم الكبير لأن الكنائس الثلاث الأخرى مغلقة حاليًّا للترميم كما قال، حملت نبرته قدرًا كبيرًا من التهكُّم وهو يقولها رافعًا يديه للسماء متمنيًا الخلاص. هَمس رمسيس في أذنه ببضع كلمات بدت مسموعة لي وربما تعمَّد ذلك، فالتفت لي أبونا قائلًا:

- ومالُه مفيش مانع، نجرَّبها في تعليم الأولاد طالما معاها شهادة.

تبـدَّل حالي ورُقِّيت فجـأة من عاملة إلى مُعلِّمـة بكلماتٍ قليلةٍ من رمسـيس، شـكرنا الأب إسـطفانوس وقبَّلنا يده، قبـل أن ينصرف عاد رمسـيس يهمس له في أُذنه، تلك المرة لم أسـمع حرفًا ممَّا قاله، لكنها كلمات لاقت قبولًا أيضًا لدى أبينا إسطفانوس، فقد هزَّ رأسه بالموافقة وهو يُربِّت كتف رمسيس ويدعو الرب لإتمام الأمر.

*****

لم يمضِ شـهر على إقامتي بالكنيسـة حتى بارك الأب إسطفانوس زواجـي مـن رِزق كهربائـي الكنيسـة، الـذي كان لا يـزال يبحـث عن عروس رغم أنه يبدو أكبر مني بنحو عشر سنوات على الأقل، فوافقت علـى الزواج منه بإرادة رمسـيس الحرة هذه المـرة، فأنا لا زلت حبلى بوهم الحرية وجنينها الذي لن يولد أبدًا على ما يبدو.

يـوم زفافي إلى رِزق طافت بذاكرتي ذكريات يوم مشـابه منذ بضع سـنين، عندمـا وقفـت أمـام خِضـر وأمـي وزوجها فـي غرفـة معتمة، بجوارهم شـيخ لم يلتفت نحوي ولم يسمع موافقتي.. أجبروني قبلها علـى توكيل مَـن اغتصبنـي ليتناوب علـيَّ غيـره، دَوَّن الشـيخ بياناتي وساقوني للمقصلة، تسلَّمني خِضر ليقتلني كل يوم مرات ومرات على فراشـه.. تزوجت وحيدة.. مثل التي تذهب لغرفة الإعدام.. المراسـم تتشـابه، تُتلى على مسـامعي ما فعلت يداي، يدعو لي الشـيخ بالهداية والمغفرة قبل الرحيل، ثم تُشـيِّعني العيون لمصيري.. كدت أصرخ أنا بريئة لكني اخترت الصمت مجبرة كعادتي .

اليوم بالكنيسة أنا وحيدة أيضًا، لكني أشعر شعورًا مختلفًا، تمنيت أن تكون عائلتي بجواري، ليروا رِزق وهو يُقدم لي شبكتي، سلسلة ذهبية مُعلَّق بها صليب، أول مرة تُقدم لي شبكة والليلة سأرتدي فستان فرحي الأبيض أيضًا.. لو كان أبي موجودًا معي لزارني في الصباحية بأقفاص الطيور.. لحضر مرة ثانية في اليوم الثالث مع المرحوم عمي الكبير، الذي كان سيذبح عجلًا، وخلفه حمارته تجر عربة مُحمَّلة بأجولة الدقيق والأرز والخضار، من المؤكد أن أمي كانت ستزورني أيضًا أول يومين لتُقدم لنا الكعك والفطير، وتطلب من أم رِزق أن تُعطيني عباءة من ملابسها دليل محبتها، سيعرف رِزق أن لي عائلة وورائي عِزوة وعندي أهل، لست مجرد امرأة مُهيأة للإنجاب أحضرها رمسيس هِبة لكنيستنا.

- صليبك ولازم تشيله عمرك كله.

قالها أبونا إسطفانوس عدة مرات وهو ينظر نحو رِزق.. أعرف أنه يقصد بكلمته استحالة الطلاق بيننا، فما يجمعه الرب لا يُفرِّقه إنسان، هززت رأسي بالإيجاب مُجبرة لما نظر أبونا ناحيتي ولم أُعلق، لن يحدث لي أسوأ ممَّا حدث مع خِضر. وقعت عيناي مصادفة على رمسيس، لا يزال يبتسم، كدت أسأله مرة رابعة عن مصلحته في تزويجي من رِزق لكني آثرت الصمت، فلن أتلقى منه سوى ابتسامة صفراء مثل كل مرة.

في المساء أُقيم حفل زواجي في البيت، دعا رِزق جيرانه كلهم أقباطًا ومسلمين، لا يمكن أن تفرق بينهم وقت الفرح، جلست وسط سيدات وبنات وأطفال لا أعرفهن بصحن الدار، الجميع غرباء عني، يحيطون بي في مودة لكني لا أشعر بدفء، رجال يضربون الدُّف وآخرون يُصفقون، ونسوة تُطلق زغاريد متقطعة سمعتها نواحًا، لكني مضطرة لوضع ابتسامة باهتة على شفتي طوال الوقت، وواثقة أن عينَي ستفضحانني إذا ما دققوا النظر نحوي أو التقطوا لي صورة.

انتقلت للعيش من حجرة المُسنَّات إلى بيت رِزق بطرف القرية، على رأس السكة المؤدية للسوق الكبيرة. الكل يمر من هنا، بعيدًا عن طريق الكنائس الأربع التي تحيط بالجامع الصغير وتحتضنه في وداعة لتُحافظ على وجوده، وإن كان الشيخ رجب يُصرُّ في خطبة الجمعة على أنها تحاصره وتمنع توسعه، رغم تحذيرات الأمن له بعدم إشعال الفتنة، لكنها تحذيرات مائعة كما وصفها أبونا إسطفانوس، كأنهم أدوا ما عليهم بالتوصية والرجاء، كلمات تُقال على استحياء كل مرة حتى صارت أشبه بطلقات الصوت، تُدوي ولا تُصيب، وفي الحالتين لا تردع، ومع تكرارها تيقَّن الشيخ رجب على ما يبدو من حقيقتها، عرف أنها لا تُميت ولن تجرح أحدًا على الإطلاق، بل ربما تُشجعه.

وددت كل جمعة أن أسد أُذنَي فلا أسمع الدعاء على أهلي.. لكني فشلت، لا يتركوننا في حالنا، هززت رأسي يأسًا وتقبلًا للأمر الواقع، فبعضنا أيضًا يقول في كنائسنا عنهم مثل الذي يقولونه عنَّا، لكننا لا نجرؤ على الجهر مثلهم.

صحونا ذات يوم لنجد أحدهم قد رسم صليبًا أسود كبيرًا على باب داري، ربما ليميزها عن بيوت المسلمين التي قبلي، وكلما أزال رِزق الصليب ومحا طلاءه، عادوا في الفجر ليضعوه أكبر وأعرض. ثم صارت الدار تُعرف ببيت القبطية لا ببيت رِزق مثل بقية بيوت أهل الطايعة!!

شكوت لرمسيس فأوعز لي بعمل بلاغ بالمركز وشكوى بالنيابة ضد أقرب جار لي، الحاج محمد علوان؛ لأنه كان يريد شراء بيتنا لما مات صاحبه المسلم لكن رِزق زوجي سبقه واشتراه، لم أُصدق رمسيس، فمحمد علوان هذا.. وديع.. مسالم، ويُسلِّم عليَّ في ودٍّ وترحاب، وأيضًا سنه كبيرة وداره جميلة. لكن ظل رمسيس يطن في أذني بأن علوان وزوجته يكرهان الأقباط مثل كراهتنا جميعًا للعمى، فلما لم يجد مني استجابة، حذرني من الأعمال السفلية التي يمارسها علوان في الخفاء مع زوجته، أخبرني أنه يجلب ريش الطيور من الجيزة لينثره أمام بيتي، بعد أن تغمسها زوجته في زيت به حبة البركة السوداء وصدور الدجاج النافق ليزيدنا فقرًا وبؤسًا، ويُعمق الخلافات مع زوجي رِزق ويربطه فلا أنجب منه. سكت رمسيس لبرهة يتفرس فيَّ بعينين جاحظتين ثم قال بصوتٍ خفيض:

– وعلى فكرة مراته اسمها هدى.. اشمعنى بقى بيقولوا عليكي القبطية وهي هدى بس؟!

حرصت بعدها على تفقُّد عتبة بيتي كل صباح، حتى وجدت بعد أيام قليلة ريشًا رماديًّا طويلًا غريبًا ناعم الملمس فتوجَّست، فكرت في إزالة الصليب ووضعه على بيت علوان ليفهم أنني كشفت أمره، فيما يبدو تأخرت، ففي أقل من شهر صار بيتنا علامة للتائهين، يكفي أن تقول ناحية بيت القبطية فيدلوك على طريق السوق الذي ينعقد كل ثلاثاء وخميس خلف بيتي. حتى لو محوت الصليب من على الباب فلن أمحو عبارة "بيت القبطية" من على ألسنة المسلمين.

احتفظت بالريشات الغريبة بعد أن غمستها في ماء مزهر، رشمت الصليب عليها لأُبطل مفعولها ووضعتها على عتبة بيت علوان، لكنه تركها مكانها ولم يقربها، بقيت محبة رِزق لجيراننا ولم تزل.. ظل أيضًا الصليب الأسود على باب بيتنا وظلت جارتنا هدى المسلمة تُنادَى باسمها مجردًا من أي لقب، وبقي كلام كثير في قلبي لن أقوله لأحد. اخترت الصمت حلًّا هذه المرة بإرادتي بدلًا من البكاء والصبر، حتى طار محمد علوان من فوق بيته كطير النار ومن بعدها اشتعلت الطايعة كلها.

*****

9

أمسكت ورقة وقلمًا، رسمت شكلًا هندسيًّا يخص موضوعًا يُلح على ذهني منذ فترة، تخيلت العدالة مثلثًا غير متساوي الأضلاع، قاعدته هم سدنتها، القضاة ووكلاء النيابة وأنا منهم، أما ضلعه الأطول فهم المحامون بطبيعة الحال أو القضاء الواقف كما يحلو لهم أن يُطلقوا على أنفسهم، أما الضلع الأخير فهو المغلوب على أمره، أعني بالطبع أصحاب الحقوق من مُدَّعين ومُدَّعى عليهم وشهود، وربما متهمين في بعض الأحيان.

سألت نفسي مرارًا وتكرارًا وأنا أطوف حول محراب العدالة متلمسًا الرحمة والإنسانية، عن ذلك العبقري الذي جعل للعدالة رمزًا عبارة عن امرأة معصوبة العينين تحمل في يدها ميزانًا، لا أدري كيف تستطيع وهي شبه عمياء أن تحفظ اتزان ميزانها؟!

أعياني التفكير ولم أجد له سببًا، سوى أن النحَّات الذي ابتدعه كان يومًا من المتقاضين، ولاقى ما لم يَلقَهُ المظلوم في زمنٍ أغبر،

فصـوَّر له خياله أن العدالـة يومها كانت معصوبـة العينين عن حقوقه، فاختـلَّ ميزانهـا رغمًـا عنها، هذا النحـات ضحك علينـا جميعًا، تركنا أسـرى لتفسـيرات سـطحية، باعتبـار أن العدالـة كلمة مؤنثـة والعدل مذكـر، عيناها معصوبتان حتى لا ترى الخصوم فلا تميز بينهم، مع أننا بذلـك نعطيها حُجَّـة رائعة كي تظلم بعضنا، ثم تقول لنا ببراءة "آسـفة جدًّا.. عيناي معصوبتان.. لم أكن أراكم بوضوح".

ذهب النحات لحال سـبيله منذ مئات السنين، وبقيت العدالة تنتظر مَـن يفُك العُصابة عن عينيهـا، مَن يحمل عنها الميـزان ويضعه أمامها كي لا يهتز.. لكن يبدو أنه لم يأتِ بعد.

نظرت من نافذة غرفتي فلم أرَ إلا فراغًا ممتدًّا، غيطانًا واسـعة على مرمـى البصر بلا نهايـة، من بعيد تظهر نقاط حمـراء مثل علب كبريت متناثرة بعشـوائية، ألمحها بالكاد، لا بد وأنها بيوت أهل القرية، تتمايل النخلات على نسـائم ريـح الخريف، تتراقص بإيقاع منتظم لا يُفسـده سـوى مُكبِّر الصوت بالمسجد القريب، الشيخ رجب يُعطي درسًا بعد صـلاة العصر، يُصرُّ على أن يسـمعه أهل القرية بالإكـراه مع أن صوته منفر.

يميل قرص الشمس للغروب، يزداد لونه اصفرارًا، مشوبًا بالحُمرة حتى صار برتقاليًّا، ينخفض صوت الشيخ قبلها ثم يخفت مع لحظات الغروب، تسـكن كل الكائنات إلا الشيخ رجب وحده، يُتمتم بعبارات

غير مسموعة، تلك لحظة لها قداسة ما عند كل المخلوقات، لا يصح معها سوى التأمل في صمت، كم تأسرني تلك اللوحة الربانية المتحركة ببطء بألوانها الفاتنة التي تتكرر كل يوم بلا ملل.

- تمام يا فندم.. المُجرم محمد علوان قبضنا عليه يا باشا!

بتمامه الجهوري ودقات كعبَي حذائه الميري، أخرجني الصول إسماعيل من أفكاري التي لم تُبارحني منذ وصولي الطايعة أو التايهة كما يقولون، لا فرق على رأي رمسيس، فالطائع دومًا هو تائه للأبد.

تأملت محمد علوان في دهشة، الرجل على مشارف الستين، نحيل للغاية، عظام صدره البارزة تُعلن عن فقره وهُزاله، مع ذلك تزوج منذ عامين للمرة الثانية من فتاة تصغره بثلاثين عامًا، والأغرب أنها مليحة، انفتح باب الغرفة فلمحتها بجواره، نظراتها هائمة حائرة، دعوتها للدخول معه فوقفت خلفه بخطوتين مُطرقة في خجل بدا لي مصطنعًا. لا أحد يعرف سببًا لهذه الزيجة الغريبة، فمحمد علوان بلا مال أو جاه تقريبًا، مجرد حارس طواويس بحديقة حيوان الجيزة، يخرج لعمله في الخامسة من صباح كل يوم ليعود بعدها باثنتي عشرة ساعة منهكًا، ما المثير في ذلك؟! ربما لأنه ورث بيتًا واسعًا هنا عن أبيه، ولديه قيراطان يؤجرهما ليعيش بالكاد.. ربما.

أخطأت وسألتهما السؤال ذاته على استحياء، الرجل لديه حياء طاغٍ.. فغمغم "أمر الله"، أما الزوجة فقد رفعت لي حاجبها الأيسر،

تبدَّلت ملامحها الوديعة وطار بُرقع حيائها قائلة ببجاحة لا تُحسد عليها:

- وهو الحلال حُرُم يا باشا وإحنا مانعرفش؟!

دعوت محمد علوان للجلوس آمرًا عروسه بالانتظار خارج الغرفة، غادرت الزوجة متأففة وهي تتقصَّع في مشيتها باستفزاز تغاضيت عنه وابتلعته، عُدت لأوراق القضية متأملًا وقائعها في دهشة لم تفارقني منذ إبلاغي بها، غالبية أحداثها دارت خلف أسوار حديقة الحيوان بالجيزة بعد انصراف زوارها، لكن شرارتها الأولى اندلعت هنا في قرية الطايعة، ربما العروس الجديدة أرادت برهانًا قويًّا على استمرار حبه، بعدما ضحَّت فيما يبدو بآخرين تقدَّموا لها، وتجاهلت نداء عقلها بأن امرأة في جمالها الفتَّان وجسدها الممشوق تستحق حياة أفضل، على الأقل ماديًّا، لكنها فيما أعتقد غلَّبت قلبها.

"إذا كنت تحبني فأحضر لي طاووسًا من الحديقة هذه الليلة"!

بتلك الكلمات القليلة التي تخيلتها حوارًا بينهما، طلبت عروسه الثانية بدلالٍ برهانًا على شغفه بها. ظل الموضوع يشغل عقله فيما يبدو، واحترت أنا في استكمال الأحداث من عندياتي، لم يُسعفني خيالي أكثر من ذلك فلست روائيًّا وإن كنت أحب قراءتها، التفتُّ ناحية علوان مُشعلًا سيجارتي مستأسدًا.. متقمصًا دور المحقق التقليدي لأستخلص منه حوار مشهد النهاية قائلًا بنبرةٍ مسرحية:

– كل الأدلة ضدك، إنت آخر واحد كنت في الوردية، متهيأ لي تعترف أحسن لك يا علوان!

هزَّ محمد علوان رأسه في أسى، نظراته تُخبرني بعتاب أن الأرنب لا يراوغ و هو أسير بين أنياب السبع. راح يحكي بنبرةٍ خانعة، ولسان حاله يقول لي لا داعي لكل ما تفعله، سأتكلم من تلقاء نفسي.

روى لي علوان أن التفكير أتعبه لليلة حتى اهتدى إلى شراء معطفٍ واسع، يُرفرف جانباه على جسده الهزيل، بتلك الوسيلة اقترب من الطاووس وتحايل عليه حتى خدَّره بحُقنةٍ صغيرةٍ تكفي لذهابه في سُباتٍ عميقٍ لبضع ساعات، ثم لفَّه حول وسطه وأحكم ربطته، ليخرج به صباحًا مصحوبًا بتحيةٍ من حارس البوابة الرئيسية، الذي لم يلتفت لسِمنته الظاهرة وبطنه المنفوخ كأنه امرأة حُبلى في شهرها الأخير.

ظل علوان يحكي وأنا أتخيل معه حال الطاووس لمَّا أفاق من غيبوبته، ليجد نفسه في بيئةٍ لم تخطر له على بالٍ حتى في أحلك الظروف التي مرت بها حديقة الحيوان، حوش صغير وسط بيت ريفي متواضع في نهاية قرية الطايعة، وامرأة بملامح بلدية فاتنة ترتدي جلبابًا مشقوقًا يكشف عن ساقيها وبعض فخذيها المرمريتين وتنظر إليه بإعجاب، يلمع خلخالها منافسًا لمعة عينيها وقد رضي غرورها واستراح قلبها، لتطبع قُبلة حانية على وجنة زوجها محمد علوان وهو يخلع معطفه، بعدما عاد ظافرًا من رحلة صيد، ربما هي الأولى من نوعها في تاريخ مصر المحروسة.

كان من السهل عليَّ استنتاج بقية القصة، فبعد يومين اكتشفت إدارة الحديقة اختفاء أنثى الطاووس، ربما لأن ذَكرها ملأ الدنيا صياحًا واحتجاجًا على حرمانه منها، تحركت الأجهزة المسئولة كلها كما نُشر الخبر بالجرائد القومية، أُجريت التحريات الشرطية بهمَّةٍ ونشاط، بمعرفة السيد العقيد رئيس المباحث تحت إشراف العميد مدير المباحث والسيد اللواء حكمدار الجيزة، ومن قبلهم بالطبع توجيهات وزير الداخلية، ليُفاجأ الحارس التعس بقوة أمنية من بِضعة مخبرين تطرق بابه لتقبض عليه قرب الفجر وتُفتش مسكنه، لتعود مُحمَّلة بالغنيمة والفريسة.

جلبوا معهم حرزًا، عبارة عن ظرف حكومي كبير مُنتفخ خفيف الوزن، لونه أصفر داكن، مختوم بالشمع الأحمر، قمت بصفتي وكيل النائب العام بفَضِّه في مواجهة المتهم، وأنا أتفرس في نظراته الزائغة المرتبكة، وجدت بداخله ريشًا طويلًا كثيرًا للطاووس القتيل، واجهت به فريستي قائلًا بجدية ربما لا محل لها من الإعراب:

– ما قولك فيما هو معروض عليك من مضبوطات عُثر عليها بمسكنك وفي حضورك؟

– يا باشا القول قولك والأمر أمرك.. دول شوية ريش.. أنا اعترفت بكل حاجة وقلت إني سرقت الطاووس ذات نفسه، فأقوم أنكر ريشه بعدها؟!

– طيب فين الطاووس يا عم علوان؟!

تحسَّس بطنه في ندم تُظلِّله دهشتي العارمة، ثم استرسل ليشرح لي وسط دموع حقيقية كيفَ هام عِشقًا بالزوجة الثانية، مختتمًا بأن هذه الفاتنة كافأته على شجاعته بذبح الطير المسروق على شرفه، ليستقر به الحال عائمًا مطبوخًا على سطح سائل أخضر كثيف في صحن عميق.

صرخت في وجهه بدهشة:

- أكلته بالملوخية يا علوان؟!

هزَّ الرجل رأسه بالإيجاب وهو مطرق في أسى، لم أتمالك نفسي من الابتسام رغم دموع علوان التي بلَّلت مقدمة جلبابه. راحت ابتسامتي تنفرج وتتعالى ضحكاتي، بينما تتعقَّد المشكلة التي تواجهني، تلك جريمة تُصنَّف في القانون جناية اختلاس، تصل عقوبتها إلى الأشغال الشاقة المؤقتة.. خمسة عشر عامًا بخلاف الغرامة والعزل من الوظيفة بسبب هذا الطاووس ومهنة الرجل، فهو وفقًا للقانون موظف عام، اختلس أموالًا عامة مملوكة للدولة سُلِّمت إليه بسبب وظيفته، فصارت عهدة حكومية تم تبديدها، والقانون لا يُفرق بين ملايين الجنيهات أو طاووس؛ فالعدالة عمياء!

توجهت لمكتب رئيس النيابة بعدما أمرت الحاجبين الصائحين بإيقاف مراسم الزفة الكاذبة إياها بإشارة حازمة من يدي، أتبعتها بنظرة رادعة ألزمتهما مقاعدهما الخشبية على باب غرفتي. جلست أمام رئيسي صامتًا بعدما فردت أمامه محاضر التحقيق التي تحوي

اعترافات سارق الطاووس، جرى عليها بعينيه في سرعة وبلا اهتمام، ضحك مثلي عاليًا وطواها، ثم قال وهو يُعيدها لي:

- تمام، خلَّص التحقيق وروح نام لك ساعتين علشان حتشيل النبطشية الليلة!

- ومحمد علوان أعمل فيه إيه؟

- احبسه طبعًا، دي جناية اختلاس مال عام.. عُهدة وبدِّدها.. إيه المشكلة؟!

- بس ده عيان بالقلب وسِنه كبيرة وكمان أكيد حيترفد من شغله و...

- ولما هو عيَّان وكبير ومحتاج للشغل بيختلس ليه، ومن الأساس بيتجوز عيِّلة صغيرة ليه؟

اختفى وجه رئيسي من أمامي، رأيت بدلًا منه تلك المرأة معصوبة العينين، ميزانها تلك المرة يهتز بشدة في يدها، طالت فترة صمتي حتى ظن أنه أقنعني، لكني رددت بحدة موضحًا أنني أعرف كل ما سيقوله مسبقًا من أن النيابة تبعية، تدرجية، رئاسية، لكني لن أحبس هذا الرجل، وإذا ما أراد هو حبسه فالمحضر أمامه ليتخذ فيه ما يشاء من قرارات، فأنا لن أتحمل وزره يوم القيامة.

قُلت كلمتي ونهضت، فبُهت الذي أمر بالحبس، طلب مني الجلوس بإلحاح، قدَّم لي سيجارة، وطلب لنا بعض القهوة، ثم قال

بصوتٍ خفيضٍ كمَن يخشى أن يسمعنا ثالث لا وجود له.. إلا إذا كان الشيطان:

- ما تبقاش حنبلي.. عندك حل تاني؟!

- أيوة عندي.. نوقع عليه الجزاء الإداري بالرفد ونكتفي بفصله من عمله ونكتب مذكرة بحفظ التحقيق.

قال بسرعة كمَن يُلقي بحمولة أتعبت كتفيه:

- موافق بشرط نقترح خصم نُص معاشه كل شهر لغاية ما يسدد قيمة الطاووس.

وافقت على مضض رغم سِن الرجل المتقدمة ومرضه ورفده، كُلها أسباب مقبولة لحِفظ التحقيقات باختلاس الطاووس عهدته، سدادًا لفاتورة أغلى طبق ملوخية بالطاووس تناوله في حياته بل ربما في التاريخ ليبتعد عنه شبح السجن للأبد.

أفرجت عن محمد علوان، ودسست في جيب جلبابه ورقة مالية بمائة جنيه قبل انصرافه فسالت دموعه، ظللت أتابع أحواله بعدها من خلال رمسيس وهو يطمئنني عليه بأنه في أحسن حال، ولديه مال كثير يُنفق منه ببذخ، وينقل لي استياء أهل الطايعة من قرار الإفراج عنه، وأنا لا أُصدقه ولا أفهم سبب الاستياء منه، فرمسيس لا يشرح ما يدَّعيه.

بعدها بفترة أخبرني رمسيس أن حال الرجل تبدَّلت وساءت لمَّا هجرته زوجته وحصلت على الطلاق ولم يعرف أحد السبب، ثم

أبلغني رمسيس مرة ثالثة شامتًا بأن المليحة طليقة علوان تزوَّجت من شقيق عمدة البلدة الحالي عبده طايع فمللت الحكاية، حتى جاء يوم وكنا جالسين في تراس الاستراحة فتذكرت علوان، لما لمحت عصفورًا كبيرًا جميلًا بالحديقة ذكَّرني بالطاووس، سألت عن علوان، تغيرت ملامح رمسيس وبدا متوترًا وهو يقول:

- يظهر إن لعنة البت نور صابته!

- نور مين؟!

- نور بنت محمد طايع عمدة التايهة زمان وجِد عبده عُمدتنا النهارده.. لحِقت تنسى الحكاية يا باشا؟ البت نور ظهرت له في المنام زي الجِنِّيَّة وطارت، فقام في الفجر علشان يحصلها وولع في نفسه.. ربنا يرحمه!

- إمتى الكلام ده حصل يا رمسيس؟!

- من يومين.. وزميل سعادتك عثمان بك بيحقق في الموضوع.. الله يرحمك يا علوان ويغفر لك سرقة الطير اللي ربنا حرَّم عليه أكله إلا بالحلال!

سكت رمسيس عن الكلام وانشغل بتقليب كيزان الذرة على الفحم، شردت فيما قاله، لكن عندما تلاقت عينانا رأيت عيني رمسيس تلمعان بغرابة أخافتني، ملامحه كلها اختفت ولم يبقَ بوجهه

سوى عينين كبيرتين، استعذت بالله في سِرِّي ثم قلت بصوتٍ عالٍ كي أُطمئن نفسي:

- وأنت عرفت منين إنها زارته في المنام؟

ابتسم رمسيس ابتسامة استنكار لسؤالي ثم قال بثقة العارف بالخبايا:

- يا باشا كلهم بيموتوا نفس الموتة، يطلعوا فوق الدار ويولعوا في نفسهم والريح ترميهم على الأرض، طير مولع نار، عمومًا هو مش أول واحد ولا آخر واحد، طول ما لعنة البت نور في بلدنا، هي أول واحدة عملت كده واختفت، ومن يومها كل اللي بتظهر له بيقلدها بس بيموت على طول.. بتوسوس لهم يا باشا!

لا أعرف لماذا تحسَّست مسدسي الفارغ ثم نظرت في عيني رمسيس المخيفتين رغم وجهه المبتسم وقلت بنبرةٍ آمرة:

- من بكرة الصبح تعدي على المركز تصرف استمارة طلقات للطبنجة، عاوز خمسين رصاصة على الأقل.

لمحت نظرة شك في عيني رمسيس فاستدركت بحسم:

- خمسين طلقة زيادة على اللي عندي يا رمسيس.

*****

10

خِضر شوَّه روحي، أطلق رصاصات الأسى صوبها بـلا هوادة بعدما أضـرم فيها نيران الإهانـة.. بدَّد أحلى سـنوات عمري.. بعثر أحلامي، نثرها في اتجاه الرياح فلم ألحق بها.. لملمتها متفرقات لا تكتمل بها صورة.. أحرق حبي لنفسي وخنق مشاعري لما سجنني في جسدي، فكرهتهما معًـا.. قتل كل معاني الـدفء والاحتواء لما تربص بقلبي وكمن له كل يوم متعمدًا كسـري، فعمَّق شروخ روحي، صرت معه مثل القمر الذي أغرق السـماء دموعًا، فصارت النجوم لآلئ منطفئة تتسـاقط من عينَي الحزينتين كل ليلة، وفي النهاية قتلته فارتاح هو وتركني لعذابي.

منـح جيرانـي لقب القبطية لبيتي بسـبب ديانتي.. يُضايقني الاسـم والمعنـى لكـن رِزق احتوانـي، رغم مخاوفـي منه كرجل فـي البداية، تمنَّعت وتيبَّسَت أطرافي كلما اقترب مني، بكيت.. ارتعشت.. فطمأنني بوقوفـه على مسـافة آمنة مني، ابتعـدت متذكرة زوج أمـي وخِضر من بعـده.. فربَّت رِزق رأسـي وقبَّل يدَيَّ، ثم منحنـي نفحة من روحه كل يوم لأحيا بها وعليها، عندما كان يُصلي ويدعو لي في صلواته السبع.

مـن أول ليلة أخبرني أنه وقع في غرامي، خيط شـفاف من مشـاعر دافئـة ربطه بقلبـي، عيناه الكبيرتـان مثل كفيه تحتويانـي.. تطمئناني.. جسـدي يرتعـش فيهدأ بيـن يديه. يقتـرب لكنه لا يخترق، يتحسسـني برفق ولا يخدشني، يشتهيني حسبما أقرأ عينيه، لكنه يحتويني بمشاعره وينتظر استجابتي، لم يجبرني أو يتعجلني، ابتسمت له بدلال ذات ليلة، فأشرق وجهه لما اتسعت ابتسامته قائلًا بنبرة طفل شقي:

- إيه رأيك نلعب دور ورق واللي يخسر يشلح؟!

خرجـت ضحكاتـي مـن قلبـي حتـى دمعـت عينـاي، مـن داخلي لازلت خجلة ومتوجِّسـة، أريد احتضانه لكني أتحسس خطواتي حتى لا أخسـره، أخـاف الاقتـراب أكثر كـي لا أكرهه، وقفت في المسـافة الفاصلة بين السـعادة والسـلامة، فلم أنهل من الأولى ما يرويني، ولم تظللنـي الثانيـة بعد من شـمس الخوف، لا تزال بقاياهـا تلفح روحي، تبطئ خطواتي، تزيد عطشي، لكن ما يُريح قلبي أنها إلى غروب.

وضع رِزق سـاقيه أسفله فوق السـرير وبدأ يُرتب أوراق اللعب في حماسة، اعتبر سكوتي علامة رضا، لعبت وأنا خائفة من الخسارة لكن عقلي ذهب لما بعدها بمسـافة ففقدت تركيزي وخسـرت، لمحت في عينيه نشـوة انتصار، يشـع منهما بريق عجيب يُدير رأسي فجعلني ثملة منتشـية، لكنه لـم يُطالب بحقوقـه، صبر عليهـا وتركني مع ابتسـامته. تمدَّدت على ظهري وأغمضت عينَي، ارتجفت لوهلة ثم هدأ جسـدي وهـو يضمنـي لصـدره، انسـبت بين ضلوعه، لمسـت دفء مشـاعره،

طربت لدقات قلبه، بكيت كثيرًا في حضن رِزق وهو يُغمغم بتراتيل لا أتبينها لكننا نمنا بعمق على وقعها بأذنينا حتى الصباح.

مع الوقت محا رِزق آثار عدوان خِضر على روحي، شعرت بأني أنثى لأول مرة. نَدَت من بين شفتَي ابتسامة رضا، تنهدت مائلة برأسي ناحيته، لم أشبع منه بعد، تمدَّد على ظهره بجواري، صدره يرتج لكن أنفاسه تبدو في طريقها للانتظام، لمحني بطرف عينه فباعد بين ذراعيه وصدره، اقتربت منه.. التصقت بجسده وأنا أحتضنه، ضمَّني بقوة وهو يمسح شعري، همس بأن صبره عوَّضه خيرًا، تأخره في الزواج جعلنا نلتقي، دمعت عيناي وأنا أضع رأسي على صدره ليغوص بداخله، لا يريد تركه، تحسَّس ظهري بكفِّه الكبيرة، داعبته مقتربة أكثر وباطن قدمي يحنو على ساقه، كأنه يمسح طبقة رقيقة لا تُرى من فوقها بعناية.. فازدادت إثارته واعتصرت كفه نتوءات جسمي، يلتحم جسدانا في ملحمة عِشق تالية، وربما هناك ملاحم غيرها تنتظرنا قبل نهاية الليل.. هكذا منَّيت نفسي.

صرت مثل فراشة مندفعة نحو النار تتمنى أن تحرقها الخَطِيَّة، لكني اخترت طريق الورد والرياحين لأحوم حولها. هززت رأسي ضيقًا بأفكاري، لا ليست خطية ولم تكن يومًا، يؤرقني فقط ما أخفيه عن رِزق بمقتل خِضر بعدما لاقيت منه حنانًا غمرني، وكلما شعرت بأنني ارتويت منه ظمأت، ليرويني ثانية، فأزداد ألقًا وقلقًا في آنٍ واحد.. يريد الإنجاب بأي ثمن وأنا اشتقت لأكون أُمًّا. العمر يسبقه

وهو يلاحقه بسرعة لكنه لا يلحق به، تخطى رِزق الأربعين بخمس سنوات ولم يُرزق بطفل، بوادر الحمل لا تظهر حتى الآن على بطني، وعيناه تفضحانه، بهما مسحة من حزن مثل ومضة لا يلحظها غيري بسهولة، رأيتها هذه الليلة، اقتربت من عينيه فدمعتا، مسحتهما بكفي ومِلت على صدره ثانية بثديي، نفوسنا تتلاحم، فهمست:

- وحياة سِتِّنا العَدَرا ليكون ولد كمان.. بس اصبر وإياك تسيبني.

- ده أنا ما صدقت لقيتك.. أسيبك إزاي ولمين يا روح الروح.

قالها رِزق وهو يُقبِّل راحة كفي، ثم رقبتي ووجنتي إلى أن وصل لشفتي وأنا ألتحم به، ذُبنا سويًّا في عناقٍ طويل، ثم تمددنا على ظهرينا للحظات، كأننا فرغنا لتوِّنا من عراك لطيف أنهك مشاعرنا، لكنه يؤججها.

مرَّت دقائق قليلة ثم تثاءب رِزق في وداعة طفل، سحب الغطاء على جسده ليعلو شخيره بعدها، وغرقت في هواجسي أن الرب يُعاقبني بعدم الإنجاب بسبب كذبي على زوجي، مع أني لم أقصد قتل خِضر أبدًا.

*****

عندما نقف في حيرةٍ ما بين القول والفعل.. في المسافة الفاصلة ما بين الشك واليقين.. ليس أمامنا سوى الدعاء.

منـذ يومين رُزقت شـقيقة رِزق بطفل، لكنه ولِد مبتسـرًا على شـفا هـلاك كما قال طبيـب الوحدة الصحيـة، جنين بلا حـراك تقريبًا، بارد كجثـةٍ هامـدةٍ فظنوه ميتًا، طلبـوا مني منح الصبي المنتظـر بركتي. منذ وصولي وجيرانـي يتباركون بي، يظنون أنني صاحبة كرامات، بسـبب مصادفات لا دخل لي بها سوى أن القدر فعلها في حضوري، فنسبوها لي وحدي.

ارتبكت، فسـقف التوقعات يرتفع كل يوم، لسـت في حاجة لمزيدٍ من الألم كي أغوص في العُمق دون أن أدري متى سأطفو على السطح، دعـوت العدرا للوقوف بجانبـي كما تعوَّدت، وضعت يدي على رأس الطفـل وتمتمـت بالدعاء، تحرك الصغير بعد سـاعتين ورفس بسـاقيه عـدة مرات، لولا ذلك لدفنـوه حيًّا، تحول اللطم والندب إلى زغاريد، بكـت العيـون ثانية لتزيـح دموع الحـزن جانبًا، اتسـعت الابتسـامات لتمحـو كرمشـة الوجوه التي فُجعت لفقد ولد طـال انتظاره فيما يبدو، حتى راقت واستراحت.

سَرت شـائعة بأنني أحييت طفلًا ميتًا ببركة يسوع.. حوَّطَه بذراعيه وأبعـد عنه مـلاك الموت إكرامًـا لخاطري.. ذاع صيتـي أكثر كصاحبة كرامات مع أنني لم أفعل شـيئًا سـوى الدعاء، صار مـن المعتاد بعدها أن تأتـي نسـوة من بـلاد ومراكز قريبة يسـألن عني كـي يتبرَّكن ببركتي وليلـدن ذكورًا، لكن الغريب أن الكثير من المتـرددات على داري كُنَّ من المسلمات، وتقبلتهن بمحبة.

*****

حفيف أوراق الشجر يتصاعد صوته ليُخيفني، صفير الريح يزيد كأنها تنبهني للنهوض والدخول إلى حيث دفء الفراش، ارتشفت ما تبقَّى بكوب الشاي الثقيل مُتلمِّسة مزيدًا من دفء، ظلمة الليل حالكة، أرى كف يدي بصعوبة، البرد يتسلَّل إلى عظامي رغم استعدادي لمواجهته بالملابس والأغطية الثقيلة بما يستر رأسي وأُذنَي حتى أصابع قدمَي.. تثاءبت طويلًا كأنني أنادي النوم من مكمنه ليأتي مسرعًا مثلما لحقه رِزق مبكرًا عني. هممت بالقيام لكني تسمَّرت في مكاني وأنا أُلقي عبر النافذة بنظرةٍ عابرة، خُيل لي أن شبحَ رجلٍ مُلثَّم يهرول بين البيوت، بصحبته رجل ضخم بطيء الحركة يحمل دلوًا. ظللت واقفة ولم أتحرك.. فتوقفا بدورهما على مبعدة، بالكاد أراهما، عينا الملثم تلمعان ببريقٍ غريبٍ مثل عينَي قط أسود ضخم، أو هكذا خُيل لي.

سمعت حركة خفيفة بالقرب مني، التفتُّ لرِزق وجدته استيقظ قلقًا ليشرب،ثم جلس مطرقًا على الأرض ملتحفًا ببطانية صوفية سوداء، يعبث بأصابعه في الفراغ كمَن يرسم أشكالًا هندسية ويغمغم بكلمات غير مفهومة بصوتٍ شبه هامس!

- شايف اللي أنا شايفاه هناك يا رِزق؟

رمقني بنظرةٍ حانيةٍ طالت قليلًا، ثم نهض متكاسلًا وأجابني بلا مبالاة قائلًا إنه لا يرى شيئًا، راح يطوي بطانيته وهو يُعيد على مسامعي عبارته المعتادة منذ زواجنا، بأن الأهالي هنا لا يحبون البلاغات

ولا إشراك الحكومة في مشاكلهم، ثم صعد السرير لينام وغطَّى جسده كله!

أحسست بنبرةٍ غريبةٍ بين طيَّات كلماته، تحذير خفي من توجيه أسئلة أخرى في الموضوع، ربما شعر أنني أريد أن أعرف أكثر ممَّا ينبغي لي أن أعرفه، أو ربما يخاف عليَّ من نفسي الأمَّارة بالفضول!

نظرت ناحية الشبحين اللذين رأيتهما فلم أعُد أرى شيئًا.. تبخَّرا، لمحت فنطاس الماء المرشم بالصليب الذي أحضره رمسيس منذ يومين وطلب مني رشه أمام بيوت الأقباط ليمنع سحر المسلمين، تشككت فيه بلا سبب، فتحته وجدت فيه ماءً بالفعل، لكن له رائحة غريبة أقرب لرائحة الجاز وإن كانت خفيفة للغاية.

شعرت برجفةٍ وأنا أُحكم غلق النوافذ وأراجع على قفل الباب، ثم صعدت سريري وصورة رمسيس وهو ملثم لا تفارقني، حتى أسدلت جفوني من شدة التعب والخوف، نمت ممسكة بيد رِزق من تحت الغطاء فطمأنتني.

طوال الليل أرى كوابيس في منامي، تارة رمسيس يأمرني برش الماء، وتارة تشتعل النيران فجأة لتأكل البيوت التي رششته أمامها، من وسطها يقف رجال بجلابيب يرسمون الصلبان على الأبواب وهم يضحكون ولا تحرقهم النار أبدًا!!

في الصباح وجدت صليبًا آخر مرسـومًا على بيت المرحوم محمد علوان المغلق فأصابتني الدهشـة، أخبرت رِزق بكابوسي وأنا ملتاعة، ثم أردفت:

- رسموا صليب تاني على بيت علوان!

بـلا مبالاة أغـرب من تلك التي صاحبته أمس قـال رِزق وهو يضع أدواته بحقيبة الشغل:

- عادي.. أكيد الخبر اتسرب.

- خبر إيه؟

- الكنيسـة اشـترت البيت والقيراطين من ولاده لمـا مات، ومراته التانية طلعت من المولد بلا حمص.

*****

11

- مافيش من بعد حرق الزرع جِيرة..

قالها رمسيس بنبرة متحدية لمأمور المركز في حضور ضابط المباحث وآخرين بملابس مدنية لا أعرفهم، لكنهم لما انصرفوا من الغيطان المحروقة مضى خلفهم المأمور وضابطه وعساكره مهرولين!

على مدى أسابيع متتالية ظل أهالي قرية الطايعة يعيشون حالة من القلق والترقب والهلع، غيطان الأقباط تحترق من حدودها مع أرض المسلمين كل يومين تقريبًا، وأحيانًا نادرة يحدث العكس، وتتلف مزروعات المسلمين المشوَّنة بالغيط بسبب الحريق، ومع ذلك اتهمهم رمسيس في حكاويه بأنهم يفتعلونها .. وصدَّقناه. ثم زاد الطين بلَّة لمَّا صحونا منذ فترة على انتحار محمد علوان حارس الطواويس الذي صارت شهرته الآن سارقها. الطريقة التي أنهى بها حياته أعادت لذاكرة الأهالي ذكرى اندلاع الحرائق المفاجئة في منازلهم منذ عام مضى بدون سابق إنذار مثلما حكوا لي، ممَّا دفعهم إلى الاعتقاد بأنَّ الجن هو الذي يحرق البيوت ويقتل الناس، خاصة وأن النيابة حفظت كل البلاغات ضد مجهول كما أكد لنا رمسيس.

كنا في طريقنا للكنيسة أنا ورِزق وشقيقته لحضور القُدَّاس، فجأة دقَّت الأجراس ولم تتوقَّف.. توجَّسنا شرًّا وهرولنا ناحيتها، وجدنا أبانا إسطفانوس واقفًا قريبًا من بابها، أمام مبنى يُشبهها إلى حدٍّ كبيرٍ لكنه أصغر منها حجمًا، على بُعد خطوات خلفه رأينا رمسيس وحوله عشرات الشباب من خُدَّام الكنيسة والشمَّاسين غاضبين، النيران بالداخل ترتفع ومحاولات يائسة لإطفائها، الشرطة تفرض كردونًا كبيرًا حول الكنيسة والمبنى الجديد الملاصق لها، تسد كل الطرق للوصول إليها، تمنع مئات الفلاحين من الاندفاع ناحيتها، كانوا يهتفون ضدَّنا ويحرقون صلبانًا خشبية، أمسك رِزق بيدي لأقترب منه أكثر، علمنا من رمسيس أن أحدهم أضرم النار في المبنى الجديد الملاصق للكنيسة عن طريق إلقاء كرات النار من خارج السور، لكننا لم نعرف السبب بعد، فقد كان يُجيب على عشرات السائلين باقتضابٍ متعجلًا.

انتبهت فجأة لاختفاء رمسيس من بيننا مع أنه كان يسير بجواري منذ قليل، اقتربنا من الجنود لنعبُر الكردون فرفضوا، توسَّلنا للضابط، فأجابنا بملامح جامدة صارمة لا تعني شيئًا سوى الرفض، لمحني أبونا إسطفانوس فاقترب منَّا وتوسَّط لنا للدخول إلى الكنيسة فمرقنا من بين الحاجز البشري.

أفلتنا بالكاد من أيادي المتجمهرين، التي طالت ملابسي وتحسَّست أسفل ظهري في وقاحةٍ وخِسَّة، لكني كتمتها وخشيت

أن أُفضي بها لرِزق، احتمينا بسـور الكنيسة والهتافات تعلو، والضابط يحاول تهدئتنا مع أننا المتراجعون، المُحاصرون.

خمـدت النيـران لكنهـا لا تـزال مُسـتعرة بصدورنـا. أبونا يسـتمع للضباط ولا يُعلِّق، عاتبه أحدهم على محاولة بناء كنيسـة دون تصريح لكـنْ أبونـا أفهمـه أنـه مجرد مبنـى للخدمـات وليسـت كنيسـة، ثرثر الحضـور كثيـرًا بكلام لـم أفهمه حتى نطـق ضابط أمن الدولـة بعبارة الوحدة الوطنية، وأعادها وراءه ثلاث مرات عضو مجلس الشعب عن قريتنا، هنا انتفض أبونا غضبًا وهو يُردِّد باسـتنكار موجهًا كلامه لعضو مجلس الشعب وحده:

- وحدة وطنية والا خيبة قوية؟!

فجأة انقطع التيار الكهربي ثم سمعنا صوت أعيرة نارية قريبة أعقبها صراخ، أنارت الجموع المحتشدة مصابيح متناثرة، سقط اثنان أو ثلاثة من المسلمين المحاصرين للكنيسة مُضرَّجين في دمائهم، بينهم مُجنَّد من الشـرطة مات علـى الفور، حدث هرج شـديد وتدافُـع من جموع الأهالي المتجمهـرة، تصدَّى له الكردون الأمنـي بعنف، فصاروا مثل موجات بشرية تتلاطم بعنف على كتل صخرية.

انسحبنا إلى داخل الكنيسة والشباب يُحيط بأبينا إسطفانوس خوفًا علـى حياتـه، كنـت ورِزق آخر الداخليـن، علت الهتافـات من خلفنا، صارت واضحة هـذه المرة، كلها تهدد بالثأر لعلوان مرة ثانية وللقتلى الثلاثة منذ قليل.

لـم أفهم شـيئًا ممَّا يجري حولي، لماذا نقتل ثلاثة من المسـلمين؟ ولماذا يحرقون مبنى للخدمات أو حتى كنيسـة بدون تصريح كما قال الضابط؟ مَن منَّا يُشعل النار بيننا وبينهم؟!

فجأة لمحت رمسيس وقد ظهر قرب صحن التعميد وخلفه السلم المؤدي للسـطح، وقـف يتحدث مع آخرين في عصبية بالغة، ملابسـه متربة وابتسـامته خافتة وصدره يرتج، بدا كمَن يوبخهم على أمرٍ ما لم أتبينه، اقتربت منه فسكت عن الكلام وهو ينظر لهم بحذر، بادره رِزق بالسؤال متوجسًا:

– مين اللي بيضرب نار من فوق يا عم رمسيس؟!

أجابه بعصبية بالغة:

– ولاد الحرام كتير يا رِزق.. خليك في حالك.

سـألته عن الهتـاف الذي يتـردد بالخارج بخصوص الثـأر لمحمد علوان، ففاجأني قائلًا بهدوءٍ وهو ينظر لعيني:

– أصـل النيابة راحت المدافن وطلَّعوا جتـة محمد علوان وعادوا تشريحها.

– طيب واحنا ما لنا وما له؟!

– بيقولوا مات مخنوق وبعدين اتحرق، والجماعة السُّـنِّية بيتهمونا بقتله.

*****

ظللت لأسبوع لا يقربني رِزق بسبب همومنا وتوتر الأجواء من حولنا، صرنا كتابوتين من الخشب بجوار بعضنا على السرير الكبير بلا حراك، يُجافي النوم أعيننا، يُصاحبنا الأرق والقلق حتى يُسلمانا لخيوط النهار، لندور في ساقية الخوف إلى أن يهبط ليل جديد، ظللنا مهمومَين حتى حُفظت قضية علوان ضد مجهول مع قضية قتل المسلمين الثلاثة أمام الكنيسة ولم يُتهم قبطي واحد فيهما، ثم نسي الناس الموضوع بعدها، أو هكذا هُيئ لي.

– هو احنا ماورناش غير سيرة الموت؟ ده حتى الحي أبقى من الميت.

قالها رِزق وهو يبتسم ابتسامة صِرت أعرفها جيدًا، فابتسمت كفتاةٍ بِكْر خجلة في ليلة الدُّخلة، احتواني رزق واستسلمت لمشاعري، ذابت أرواحنا وأجسادنا في مزيجٍ من الشوق، عوضنا أسبوع الجفاف وأخذنا بحقنا من أحزاننا، تسللت من سريري النحاسي لأغتسل، سرت على أطراف أصابعي كي لا أوقظه بعدما سهرنا ننهل من عسل بعضنا حتى مطلع الفجر، ظللت أُدندن بأغنية قديمة لشادية التي لا أعرف كيف يقولون إنني أُشبهها رغم سماري، انساب الماء الساخن على جسدي فدلَّكه، نمت بعدها نومًا عميقًا، افتقدته منذ فترة بعدما ظل الأرق يُلازمني فيها، فلم أشعر برِزق في الصباح لمَّا غادر مبكرًا.

غادرت البيت قبل الظهر، انحرفت إلى أقصى اليسار مثلما أفعل كل مرة عند ذهابي للسوق، كلمات رِزق ترن في أُذني التي يقولها كل

يـوم ولا يمـل مـن تكرارها، وكأنه فرغ مـن إلقائها على مسـامعي للتو خاصة بعد أحداث الكنيسة...

"بلاش أسـواق المسـلمين ودكاكينهم، خلينا فـي حالنا وهُمَّا في حالهم".

ابتعدت قدر الممكن عن العزبة البحرية والمسجد الصغير، لا أريد اسـتعادة ذكريـات أليمـة منـذ وطئـت قدمـاي الطايعة، شـردت قليلًا وتذكرت رغمًا عني ما حدث بالمضيفة ليلة وصولي.. فزفرت بضيق، انتبهـت لصـوت فرامل سـيارة تُصفِّر من جراء احتكاكهـا بالطريق، ثم رأيـت نصف رجل يخـرج من نافذة السـائق ويعلو صوتـه متهمًا إياي بأنني جاموسة عمياء.

برقت عينا الرجل فجأة وغطت الدهشـة ملامحه، تمالكت نفسـي بسـرعة، أخفيت نصف وجهي بطرحتي وأدرت رأسي لليمين مسرعة الخطى، انحرفت يسـارًا مرة أخرى بحـدة وأنا أمد في خطواتي، أُقاوم رغبتـي الجارفـة فـي الالتفـات نحـوه كـي لا يشـك فيَّ حتـى خارت مقاومتـي والتفـتُّ، رأيتـه يهـرش مؤخـرة رأسـه مترجلًا من سـيارته، ثـم هرول محاولًا اللحاق بي، ولولا سـيل سـيارات النقـل التي علت أبواقها وتوقفت خلفه عندما تعطَّل سيرهم لكان لحقني.

لا شك لديَّ أنه هلال شقيق خِضر الأكبر، الذي كان رافضًا لزواجي من شقيقه، كي لا يرثه أبناء القبطية كما أطلق عليَّ، فهو لم يُنجب سوى بنـات، لكـن ما الذي أتى به إلى هنا يقود سـيارة نصـف نقل؟! لم أجد

إجابة، هرولت لمسافة كبيرة، التفتُّ نصف التفاتة سريعة ثانية فلم أرَه، انسابت حركة السير بالطريق وربما ابتلعه الزحام.

لاحظت قرب السوق هدوءًا غريبًا يلف المكان رغم انتصاف النهار، زادني قلقًا ونشط البركان الذي بداخلي، خطواتي لا تزال مرتبكة، أتلفَّتُ كثيرًا حولي وخلفي، أتفرس في وجوه المارة بجواري بإمعان بحثًا عن وجه هلال بينهم، أشعر بخوف يمزق جنباتي ببطء، فكرت في العودة للبيت لكني خفت من الفكرة.

قررت عبور السوق للبر الثاني والذهاب إلى الكنيسة كي يطمئن قلبي، مضيت في طريقي والباعة من حولي لا يتعدون أصابع اليدين، من بعيد لمحت بائع البطاطا صليب لبيب آتيًا نحوي وهو يدفع عربته الخشبية حافيًا، يصرخ بعبارات غير مفهومة لم أستطع تبينها حتى لمَّا اقترب مني، كأنه يفر من قدره.

مرق صليب من يميني وكاد يصدمني، خلفه شاب طويل يرتدي جلبابًا أسود وعمامة من ذات اللون وكأنه مَلَك الموت، ممسكًا ببندقيةٍ قصيرة، توقف على يساري وأطلق منها خرطوشًا تبعه بآخر مباشرة.. صرخ صليب عاليًا وانكفأ على عربته الخشبية.. اندفعت العربة للأمام أمتارًا قليلة وتوقَّفت وخلَّفت صليب وراءها منكفئًا على وجهه، والدماء تندفع من ظهره ورأسه وهو لا يُحرك ساكنًا.

تحوَّل السوق في أقل من دقيقة إلى ساحة معركة، رجال تهرول من الجانبين، آخرون يتضاربون بالعصي، وصبية صغار يقذفون غيرهم

بحجارة صغيرة والسباب يتطاير من الجميع.. هرولت ناحية دار أم صليب الملاصقة لأكشاك السوق، ابنها سقط مضرجًا في دمائه منذ قليل ولم يُسعفه أحد وهي تصرخ من داخل دارها.

دفعتُ الباب بصعوبة لوجود جوالين خلفه وأنا أُنادي عليها لأُطمئنها، وجدت ثلاث نسوة متشحات بالسواد يولولن ويلطمن خدودهن، بينما أم صليب تحاول رفع الجوال الثالث فوق رأسها كي تضعه خلف الباب. دون تفكير عاونتها حتى صارت هناك متاريس كافية من سبعة أجولة مملوءة بالدقيق.

ارتكنت وأم صليب بظهرينا على الأجولة، نلهث بشدة من التعب رغم فارق العمر بيننا، تنهدت واضعة يدي على صدري المرتج ممسكة بصليبي الذهبي الصغير لكي أطمئن، رفعت رأسي للسقف فرأيت السماء واضحة من كوة كبيرة، تبادلت نظرات خائفة مع أم صليب، وجدتها تُشير لي بعينيها لأعلى وكأنها تقول.. "سوف ينالون منَّا من هذه الفتحة".

فجأة سمعنا صوتًا جهوريًّا عبر ميكروفون مشوش يُردِّد صدًى فيزيدنا فزعًا..

- يا أم صليب أسلمي تسلمي.. حيموتوكي لو ما نطقتيش الشهادتين!

انتفضت أم صليب من جلستها كفتاة متحمسة، علا صوتها بغير مُكبِّر ليُغطي على صوت الرجل، زاعقة:

- يموتونا يا خليفة.. حنموت أقباط على دين أبونا وعلى اسم المسيح.

فيما يبدو أن خليفة ابتعد بعد كلماتها فلم نعُد نسمع له صوتًا، انهالت الطرقات على باب الدار لكنه صامد بالأجولة المتترسة خلفه، يرتج بقوة، يكاد ينخلع من مفصليه، ثم سرعان ما يعود لموضعه ثابتًا، فجأة توقف الطرق، ثم راحت سيدات يصرخن وأطفال يتصايحون في هرج.

قفزت مسرعة كأن هاتفًا من السماء ناداني.. جريت نحو طِست كبير مملوء بالماء، جررته بسرعة ليستقر في منتصف صحن الدار أسفل فتحة السقف الكبيرة النافذة على السماء. تعالت تكبيرات متتالية ثم سقطت كرات النار داخل الدار، انطفأت الأولى والثانية، وأمسكت الثالثة بطرف ثوب سيدة من السيدات الثلاث المتكومات أمامنا، حملت الطست مع أم صليب وأفرغناه فوق السيدة التي كادت تحترق، قبل أن تطول النيران نصفها العلوي، بعدها سمعنا صوت سرينة عربة الشرطة من بعيد، أعقبها هرولة أقدام كثيرة، ثم ارتفع صوت رجل بالصياح مشابهًا لصوت خليفة الذي كان ممسكًا بالميكروفون:

- ابنك لسه فيه الروح يا أم صليب.. أُخرجي علشان تشوفيه!

تبادلنا نظرات حائرة.. خائفة، ولم ننطق بكلمة.

*****

12

يحيط بي ليل ثقيل، يلفه صمت مريب، كأنما أرهقه كتمان سر يوشك أن يغلبه، خيوط الفجر تتسرب، تتباعد، تنتهز فرصة تردد الليل في آخره لتغمر ما تبقى منه بضوء النهار. لا أدري كم مر من وقتٍ وما إن كنت أحلم أم أن ما يحدث أمامي واقعًا، فقد سمعت الهاتف يدق طويلًا، ثم رد الخفير نبوي وتبادل حديثًا لم أفهم منه حرفًا كالمعتاد بسبب اللحمية التي تملأ أنفه، ووجدت رمسيس يهزني برفق ليوقظني، فتحت نصف عين صامتًا منتظرًا تفسيرًا.. فقال:

- بلاغ من المركز بقضية قتل يا باشا!

فركت عينَي حتى احمرَّتا، تثاءبت غير مبالٍ، عقارب الساعة تشير إلى الخامسة والنصف صباحًا، ليسترسل رمسيس كأنه يحفزني أكثر لأقفز من رقدتي:

- واحد من الجماعة السُّنية قتل ابن أم صليب في السوق وأربعة انصابوا وحالتهم خطرة.

شعرت بصرصرة الريح، أبصرت عبر النافذة أغصان الشجر راكعة لخالقها، الهواء البارد يلفح الوجوه ويضرب الآذان بشدة، المارة القليلون يُسرعون الخُطى بالطُّرقات، مُطرقون متلحفون بالصوف، قبل أن تنفتح أبواب السماء وتُغرق الأمطار الأرض وما عليها، على مقربة من الاستراحة يظهر غراب كبير يطير وحيدًا.. بعيدًا عن السرب.. عكس الرياح في هذا الوقت المتأخر على غير عادة الطير، ينعق عدة مرات كأن القادم أسوأ، يتمتم المصلون بالسلام خلف الشيخ رجب، يغادرون المسجد الصغير، يغمغمون في همس، يبدو أنهم يستعيذون بربهم من صوت الغراب.

ركبنا سيارة المحكمة أنا ورمسيس الذي أصر على مرافقتنا، معنا الخفير نبوي الذي اصطحبته رغمًا عنه بعدما طمأنته بأن طبنجتي معي، قبلها ظل نبوي ينتظر في مكمنه بغرفة رمسيس التي صار يبيت بها حتى غادر المصلون جميعًا، ثم مرق باتجاه العربة وقفز بالمقعد الخلفي وتلفع بكوفيته.

قطعت السيارة الطريق بنا في اتجاه شارع السوق الكبير حيث بيت أم صليب والسكون رفيقنا، الجميع يغطون في سُباتٍ عميق، قطعنا شارع السوق الخالي من المارة، لا أحد هنا يستيقظ قبل السابعة صباحًا، قالها رمسيس لافتًا نظري بأن المنطقة غالبيتها من النصارى، فقط ستة عيون سود يُجافيها النوم، اثنتان منها جريحة مكلومة دامعة، الباقيات تؤرقها مشاعر متباينة من الغضب والقلق والخوف وقليل من الأمل.. أم صليب تبكي ولدها وجارة لها تواسيها، وثالثة لم تكن

سوى هدى حبيب التي هبطت على استراحتي منذ شهور، تقف ذاهلة وسطهما كتمثال، في عينيها نظرة ميتة مخيفة، تحركت باتجاهنا فجأة لما رأتنا.

– الست هدى القبطية.. شاهد عيان يا باشا.

قدَّمها الضابط بديانتها فتضايقنا، تلاقت عينانا فارتاحت ملامحها لرؤياي أو هكذا ظننت، تظاهرت بأنها لا تعرفني، فسايرتها مرحبًا بقرارها، حالها مختلفة عمَّا رأيتها أول مرة، وجهها متورد وجسمها ممتلئ، عيناها تشيان بالراحة الآن رغم كآبة المنظر الذي يحيط بنا، قبل أن أوجِّه لها أي كلمة كنت أريد سؤال الضابط عن بقية الشهود، لكني فضلت التريث، فربما يكون الحادث وقع منذ قليل والجميع نيام.

أشرت لها ببدء الكلام فتكلمت بنبرة هادئة لكنها ذات وقع محبب على الآذان، روت لي ما رأته حتى نادوا عليهن لرؤية صليب قبل أن يموت، لكن القدر كان أسبق ولم تعرف مَن المُنادي. فرغت هدى من قصتها وسكتت عن الكلام وبقيت في نفسي مرارة السؤال.

بدأنا نتحرك لإجراء مناظرة لجثة صليب وهدى تسير خلفنا، ما إن رآها الجمع الحاشد من الأهالي حتى عَلَت الزغاريد مدوية فجأة، وقفت هدى لتلتقط أنفاسها المتلاحقة من جرَّاء انفعالها، كبرت دهشتي حتى غطَّت ملامحي على ما يبدو فالتفتُّ لرمسيس الواقف خلفي مباشرة هامسًا:

- زغاريد ليه وابن أم صليب لسه مقتول وسايح في دمه؟!

- لأ يا باشا ما تستغربش، الزغاريد للست هدى لأنها مبروكة.. دي أول مرة في الطايعة ينزل طير النار على بيت أقباط وما ينحرقش، علشان كده الناس بتتبارك ببيت القبطية من يوم ما سكنت هنا.

التفتُّ ناحية هدى فوجدتها مطرقة، كأنها لا ترغب في مديحها، سألتها مداعبًا عن حكايات التبرك بها التي انتشرت بالقرية، تقلَّبت ملامحها بسرعة وبدا عليها الضيق، قبل أن ترد انبرى رمسيس من ورائي زاعقًا:

- بركة ربنا يا باشا.. والعدرا بتحميها وتضلل عليها بمحبتها ورحمتها.

نحيت هدى جانبًا وقررت معاينة مسرح الجريمة، كبر الهاجس بداخلي لعدم وجود شهود آخرين، الحادث وقع في "عز الضهر" كما علمت، وكلما سألت الضباط عن الشهود قال جميعهم إجابة واحدة كأنها ملقنة سلفًا.. "24 ساعة ونبلغ سعادتك بأساميهم".

لماذا أبلغونا بالحادث متأخرين كل هذه الساعات؟ ولماذا تعمَّدوا إيقاظي في الفجر وكأن الحادث وقع قبله بقليل؟ ساورني شك هائل في العبث بمسرح الجريمة طوال هذه الساعات، هذا الشاهد الصامت الذي لن يبوح لي إلا بما تركوه فيه، رُحت أُقسمه لمربعات كبيرة وطلبت من رجال الشرطة وضعَ كردونٍ حولها حتى يسهُل عليَّ

إجراء المعاينة، لعلي أجد دليلًا على عبثهم، لكنهم مشطوه جيدًا قبل وصولي على ما يبدو.

أصدرت أمرًا بضبط وإحضار المدعو خليفة وطلبت تحريات الشرطة حول الجريمة، سلمت القرار لمأمور المركز الذي بدا نائمًا من شدة تثاؤبه، التقط ضابط أمن الدولة أمر الضبط وقرار التحريات من بين أصابع المأمور كنسرٍ جارحٍ يخطف عصفورًا ناعسًا من عشه، ثم دسهما في جيبه. لم أُعلق بحرفٍ وتظاهرت بأني لم ألمح ما جرى.

تقدمت نحو "صليب" وناظرت جثته، لاحظت نزفًا خفيفًا من ظهره، وجرحًا متجلطًا حول رقبته. بجواري رجل قصير بأذنين كبيرتين أشبه بمغرفة، مبتسمًا بلا سبب، عرَّفني بنفسه بأنه الطبيب الشرعي، ارتحت لوجوده وطلبت منه إجراء التشريح فورًا بمشرحة مستشفى المركز.

مال نبوي على رأسي وهو يهمس لي معربًا عن قلقه من وقفتنا بالطريق العام التي طالت، طمأنته وأنا أتحسس طبنجتي عدة مرات فارتاحت ملامحه، ثم سألته عن سبب خوفه وهو يحمل بندقية على كتفه، تلفَّت حوله عدة مرات، ثم اقترب مني وهو يقول بصوتٍ خفيضٍ مرتعش:

– مفيهاش طلقات يا باشا، منظر بس، لكن وحياة حبيبك النبي ما تجيب سيرة لحد هنا!

لم أعُد أدري هل أرثى لحاله أم لحالنا معًا، كلانا يعتمد على الآخر، وكل منَّا يحتاج لمَن يحرسه، ابتسمت له ابتسامة بلا معنى وتركت له فهم مغزاها كما يحلو له.

اصطحبت الطبيب الشرعي وجثة صليب والخفير نبوي في سيارة المحكمة في طريقنا للمشرحة، بطبيعتي لا أتحمل رؤية دجاجة تُذبح، يصيبني الفزع إذا ما رأيت جرحًا غائرًا ينزف، وتتهيج معدتي إذا ما ناظرت جثة، فما بالي وأنا الآن بالمشرحة.

اصطففنا حول طاولة خشبية في حجرة شبه مظلمة، رائحتها أشبه بالقبور، شعرت بأنني في بروفة للمستقر الأخير، بجواري جرجس كاتب النيابة، ثم ظهر فجأة رمسيس ولا أدري كيف وصل قبلنا، ظل يهرش فروة رأسه ببطء وهو يتفرس في جثة "صليب" بإمعان كخبير متمرس، من بعده بخطوات وقف الخفير نبوي الديب يتعرق من كل فتحات جسده رغم برودة الطقس وكأنه القاتل، خُيل لي أنه يُتمتم بآيات قرآنية مسموعة بوضوح مع أنه يدق صليبًا كبيرًا على رسغه وكلما ذكَّرت نفسي بسؤاله عنه نسيت!

على الجانب الآخر من الطاولة الراقد عليها جثمان "صليب" كان الطبيب الشرعي ومساعده يعملان بهمة، فتح المساعد حقيبة كبيرة لان قفلها مع مرور الزمن، أخرج منها أدواته بملامح مفعمة بالحماسة، بدا مثل فنان يجهز ريشاته وأقلامه.. منشار ومشرط وقادوم ومطرقة عجوز بيد خشبية شبه متآكلة ولها رأس جلدي كبير

وأوانٍ زجاجيـة مختلفة الأحجـام، ارتدى الطبيب ومسـاعده قفازات بلاسـتيكية، بقـرا بطن "صليب" بسـهولة مَن يخط خطًّا مسـتقيمًا على ورقةٍ بيضاء، أخرجا الأمعاء اللولبية فزمجر بطني، قَصَّ المساعد بعضًا من مصران "صليب" ووضعه في إناء من أوانيه، ظلا يعملان بينما خيَّم علينا الصمت كأننا بالقبر، حتى سمعنا دويًّا هائلًا فجأة.

ارتعشـت يدا الطبيب وانتفض مسـاعده، لا أُنكر أنني فزعت أيضًا لكنى تماسـكت، الوحيـد الذي تحرك بهدوء كان رمسـيس، جثا على ركبتيـه محاولًا إفاقة نبوي الـذي فقد وعيه وهوى بثقله كله على مقعد خشـبي قديـم فحطمه، لم تفلـح محاولات الإفاقة، جرَّه رمسـيس من قدميه خارج الغرفة وسلَّمه لخفراء المركز وضابط القسم وعاد لمكانه كأن شيئًا لم يكن، معطيًا إشارة للطبيب بيده لكي يستمر في التشريح.

نَـدَت مني ابتسـامة رغمًا عني وتابعت الطبيب الشـرعي، سـرعان ما اندمج في عمله بانسـجام، شـقَّ صدر "صليب" بالمنشـار حتى بان لنا قلبه وسـط ضلوعه، تناول المساعد جزءًا من الرئتين، أشبه بلوزتين كبيرتيـن، ووضعـه فـي إناء آخـر، قلـب الطبيـب الجثمان علـى بطنه وتفحـص جرحه بعدمـا أزال طبقة الدماء المتجلطة، ثـم نظر لي نظرة ذات مغزى.

تأمَّلت الجرح وهززت رأسـي مُعلنًا موافقة ضمنية على رأيه الذي لـم يقُله بعـد، رفعت بصـري فتلاقـت عينانا مـرة ثانية، لكـن الطبيب

الشـرعي لم يقُل شـيئًا هذه المرة أيضًا، شـمر عن سـاعديه وفتح رأس "صليب" من الخلف بالمنشار، ثم حَزَّ العظم طبقة تلو أخرى إلى أن وصـل للمُخ، تفحصـه بغير اهتمام، ومع ذلـك أملى بعض ملاحظات لمسـاعده، فدوَّنهـا بسـرعةٍ في دفتر صغيـر أخرجه وأخفـاه بجيبه كما الحاوي، تشـككت في طريقة التشـريح، بدت لي بدائية نوعًا ما وربما خاطئة، لكني لم أجرؤ على التعليق فلست متخصصًا.

أخـرج الطبيب الشـرعي من جيبه عدسـة كبيرة فحـص بها جروح "صليب"، ثم سـلَّمني العدسـة لأرى بدوري، وجـدت ثقوبًا صغيرة بظهـره، اسـتخلص الطبيـب مـن بعضها حشـارًا لطلقـات خرطوش، وضعه في إناء ثالث ثم اسـتعدل الجثمان مسـجيًا إياه على ظهره، آمرًا مساعده بتخييط الجثة.

فوجئت بالمسـاعد يُلملم أعضاء "صليـب" فوق بعضها كجوارب متفرقـات، يكومهـا في منتصف بطنـه كمَن يُجهز صُـرَّة ملابس قديمة على عَجَل، أخرج إبرة طويلة عريضة من حقيبته مسـتعينًا بخيطٍ غليظٍ التقطـه من فـوق طاولـة قريبة، أشـبه بالدوبار المسـتخدم فـي تصنيع الأجولة، شد جدار البطن من الجانبين وأعمل فيها الخيط ثلاثًا، ناوله رمسـيس ملاءة بيضاء من درج مكتب مسـتقر في ركنٍ بعيد، لا أعرف كيـف عرف بمكانها هناك، وغطَّى بها جسـد "صليب"، مال رمسـيس ناحيته وقرأ قرب صدره آية من الإنجيل، ثم هممنا بالانصراف.

أبطأت قرب الباب لمَّا همس الطبيب بأذني بما شككت فيه، قال:

– صليب انضرب عيارين خرطوش في ضهره جرحوه ووقع وهو بيجري، لكن سبب الوفاة نزيف حاد وهبوط مفاجئ بالدورة الدموية بسبب ذبح بالرقبة من الخلف بسكين حاد.

– يعني كان لسه عايش زي ما الشاهدة هدى حبيب قالت لنا وحد ضربه بسكينة وجري؟

– أيوة.. لكن على ما الشهود خرجوا من البيت كان في حد فعلًا دبحه من ورا بآلة حادة!

– أنا عاوز تقرير مبدئي بالكلمتين دول حالًا يا دكتور، وبعدها ابعت لي التقرير النهائي على النيابة.

عرجنا إلى غرفة جانبية من غرف الكشف بالمستشفى لكتابة التقرير المبدئي، لكن أثناء دخولي لمحت على مقربة منَّا ضابط أمن الدولة يتحدث مع رمسيس. وخُيل لي أن طيف ابتسامة مريبة يحوم حول عينيه.

*****

13

تمايلت أغصان شجر الحديقة مع الرياح كأرجوحة خفيفة وعلا صوت طنين النحل، نفذت الأتربة الساخنة المحملة بذرات رمال من نافذة مفتوحة كنت متكئًا على حافتها في شرود فلفحت وجهي، أغلقتها منقبضًا وجلست في ركن قصي في انتظار نزول خطيبتي من غرفتها بالطابق العلوي، ظلال الأغصان المتمايلة تعكس خيالات منكسرة على أثاث الصالة الفسيحة وجدرانها، تبدو لي مثل أشباح تتراقص أمامي لتغيظني وتدفعني للرحيل، صرت أشبه بضيف ثقيل احتار مضيفه في الخلاص منه.

طنين النحل لا يزال مُقبضًا، يُلح على أذني رغم غلقي النافذة بإحكام، أراه أسرابًا صغيرة من بعيد رغم صفرة الطقس، تحوم بإلحاح حول زهور بريئة تسلقت جدران الحديقة، كأنها تبغي الفرار ولا تجد وسيلة، غرقت في سكون البيت الكبير المُقبض الذي تعيش فيه أسرة خطيبتي، امتلأت ضيقًا حتى ازددت وحشة. أتحدث مع أناس لا يشبهونني، أقول كلامًا كثيرًا غالبيته لا يُعبِّر عني، نصفه خالٍ من الود الحقيقي، وما تبقى منه محشو بعبارات المجاملة التي

ترقى لتكون نفاقًا صريحًا في أغلب الأحيان. حوارات خطيبتي مع صديقاتها وبعض أزواجهن صارت في أذني مثل نقيق ضفادع، ربما صوت الضفادع التي أسمعها كل ليلة بالطايعة أحب إلى قلبي.

اختطفت إجازة سريعة للقاهرة كي أتابع معها تجهيزات الشقة التي سنتزوج بها، منذ وصلت هنا وهي تتصل بي كل ربع الساعة، تسألني السؤال ذاته عن محال السيراميك والأقمشة والأثاث التي تُقدم خصمًا خاصًّا لي بحكم وظيفتي، عبثًا حاولت إفهامها باستحالة وجود مثل هذه النوعية من الامتيازات، وإن وجدت فهي أقرب لرشاوى مُقنَّعة تنتظر قبولها لطلب خدمات نظير أدائها ولا يوجد قاضٍ محترم يقبلها، وفي كل مرة أتلقى منها الإجابة نفسها، مثل ضربة قاضية أهوي معها على أقرب مقعد منهكًا.

– أومال جوز أختى بيجيب كل حاجاتهم إزاي بنص تمنها؟ هو مش زميلك برضه؟ وانتوا من حقكم تاخدوا تخفيضات في أي محل؟!

لا أجد ما أقوله لخطيبتي ردًّا على سؤالها الغبي المعتاد، لا فائدة من الجدال معها، سأتزوجها حتمًا لأن الأمور تسير في اتجاه واحد وأنا لا أفكر في طريق آخر، أحيانًا أشعر بأنني لا أقود، مجرد راكب بجوار السائق في عربة التقاليد والأصول وتكوين البيت والزوجة والأولاد، قد يؤخذ رأيي مرة أو اثنتين أثناء الطريق الذي نسلكه، لكن أحيانًا أخرى يتغافل السائق عني وينشغل بالقيادة، كل هذه الأشياء الصغيرة تُكبِّلني بقيود كبيرة، يشتد وثاقها يومًا بعد يوم لتُقيد حركتي ،

تجعلني أصمت مجبرًا حين يجب عليَّ الصراخ، وأخضع صاغرًا حين يتحتم عليَّ الرفض.

صرت أشبه بممثل مسرحي، ألعب عدة أدوار، أُبدل الأقنعة والملابس أمام الناس، أخلع هذا بسرعة وأرتدي ذاك في خفة لا يستوعبها أحد، جمهوري ربما يكون كبيرًا لكنه صامت، لا يتفاعل معي ولا يُصفق لي، بل حتى لا يعترض على أدائي. ربما هم ممثلون مثلي وأنا الذي أتابعهم، وقد يكونون من داخلهم متعجبين من صمتي.

لم يغمض لي جفن طوال الليل، ومع خيوط النور الأولى وبحجة أنهم يطلبونني لتحقيق قضية مهمة قررت السفر، أرسلت رسالة لخطيبتي على الهاتف بهذا المعنى تفاديًا لصراخها التليفوني ومضيت في طريقي. عُدت للطايعة هذه المرة فرحًا كأنني عائد لموطني بعد غربة، زال عني الهم وتنفست الصعداء لما رأيت اللافتة الزرقاء شبه الممحاُة.

وصلت بعد الشروق بساعة، وجدت الخفير نبوي في استقبالي، بات يطمئن لوجوده معي ويبيت بالاستراحة، واثقًا أنني سأحميه من خطر مجهول ينتظره منذ سنين ولم يأتِ بعد وربما لا يأتي أبدًا، حيَّيته ونمت على الفور مبتسمًا بلا سبب.

استيقظت متأخرًا ظهر الجمعة، كسولًا لا أريد مغادرة فراشي، تقلَّبت استعدادًا لجولة ثانية من النوم حتى موعد الصلاة، باغتني

صوت خادم المسجد الصغير القريب منَّا عبر مُكبِّر الصوت، كأنه يقف على رأس سريري زاعقًا.

"توفي إلى رحمة الله تعالى الحاج محمد الحمبولي من العزبة البحرية وصلاة الجنازة في المسجد بعد صلاة الجمعة.. إنا لله وإنا إليه راجعون.. الفاتحة "

يُنغِّم كلماته مثل مُنشد ديني في حلقة ذكر، كررها ثلاثًا فأطار النوم من عيني كطائر فزع من دوِي رصاص منهمر، فهرب بعيدًا حتى اختفى. بعدها ارتفع صوت الشيخ رجب بترتيل القرآن عاليًا، نهضت وهبطت الدور الأول لإعداد إفطار خفيف قبل أن أذهب لأصلي الجمعة، لكني الآن أسمع وقع أقدام بالاستراحة مع أن رمسيس اليوم في إجازة فانتبهت!

منذ اكتمل أسبوعي الأول هنا وجاء يوم الجمعة ونُودي للصلاة حتى تقلَّبَتْ ملامحه وجحظت عيناه كمَن يرى أمامه شبحًا، لمَّا وجدني أتوضأ متأهبًا لمغادرة الاستراحة في طريقي للمسجد القريب، توقعت ذلك من أول يوم لمَّا سألني عن اسمي ثلاثيًّا، لكني اندهشت لرد فعله رغم أنه لم ينطق حرفًا، بعدها بستة أيام طلب تعديل إجازته الأسبوعية لتكون كل جمعة بدلًا من أيام الآحاد. الآن وجدته أمامي فجأة، تسمَّرت مكاني من الدهشة، تتسيد ابتسامته الصفراء ملامحه، ملتصقة بشفتيه، منحوتة عليها، أول ما جال بخاطري أن أهاجمه

لأُعكِّر مزاجه، سألته ببرود عن سِر الابتسامة اللزجة التي لا تفارق وجهه، فجاء رده على غير توقع مني.

- إحنا أصل البلد يا باشا والابتسامة سِر الحياة.. عمرك شُفت تمثال فرعوني مكشَّر؟!

ظللت مندهشًا من رده حتى دق جرس الهاتف، لأجد ضابط مباحث أمن الدولة على الناحية الأخرى يطلب لقائي، أخبرني أنه في الطريق للاستراحة فلم أستطع التنصل، أيضًا كنت في حاجة لمواجهته. وبينما كان رمسيس منشغلًا بتنظيف أكواب وأطباق بالمطبخ، ناديته مستفسرًا منه هذه المرة عن سبب عودته من الإجازة، أجابني ببرود لا يُحسد عليه:

- اليومين دول قلق من بعد حرق الكنيسة والعين النهارده على الطايعة أكتر من أي حتة في بر مصر كلها.

قبل أن أُبدي أي رد فعل على كلامه تفاجأت بضابط أمن الدولة أمامي، وجدته واقفًا بمنتصف الصالة، يبدو أن رمسيس ترك الباب مفتوحًا، وربما تعمَّد ذلك وبينهما اتفاق مُسبق، غلبتني الهواجس والشكوك على غير عادتي.

صافحني الضابط بترحاب شديد كصديق حميم، أخبرني أن زيارته ودية، الهدف منها توجيه سفينة التحقيقات إلى بر الأمان، وضعت ساقًا فوق أخرى منتظرًا منه أن يصف لي ملامح البَر الذي يراه هو ولا أعرف أنا غيره، فقال:

– الشهود للأسف كل واحد برواية زي ما سعادتك شفت في التحقيق، أما خليفة فماحدش من البلد عارفه، والتحريات بتاعتنا توصلت إلى إن مفيش حد بالاسم ده.. يعني الفاعل مجهول.

– لأ يا باشا، هدى حبيب شافته وأم صليب عارفة شكله، ونبوي غفير الاستراحة قال لي إنه شافه قبل كده وممكن يتعرف عليه، وبياعين السوق عارفين اسمه، يمكن خليفة اسم شهرة لكن الـــــ..

قاطعني الضابط بسرعة:

– لأ.. للأسف ولا حتى اسم شهرة، التحريات بتقول إن الفاعل مجهول، غالبًا ده حادث فردي بسبب خلافات بين الأهالي على الزرع والسقي زي ما سعادتك عارف، ويمكن واد مخبول عمل العَملة الخايبة دي وهرب.. عمومًا أنا حاتكلم مع رئيس مباحث المركز في الموضوع ده ونشوف وأكيد حنحدده قريب.

– الحقيقة أنا مش عارف ليه دايمًا في بلدنا اللي بيقتل أقباط يا إما مجهول أو مخبول!

مددت ساقي بعدما أنهيت عبارتي، اقترب الضابط بجسده إلى حافة المقعد حتى كاد يسقط من عليه ثم تنبَّه فنهض فجأة، اختلَّ توازنه لكنه استعاد ثقته بسرعة وقال:

– صدقني يا نادر بك أنا ماليش مصلحة، الأغلبية هنا أقباط ومن مصلحتنا نحدد القاتل مش نداري عليه، كمان غالبية الأراضي بيملكها

مسـلمين زي ما أنت عـارف ولازم نحمي ملكيتهم.. يعني كان ممكن سـعادتك تمكِّن المستشـار رضوان من الأرض، لكن إنت ما عملتش غير الصح.. أنا كمان بعمل الصح وبالقانون.

غيرت مجرى الحديث كي لا أنجرف مع تيار منطقه الفاسد قائلًا:

– والصليـب اللـي بيترسـم بالبوية علـى بيت القبطيـة ده كمان من مجهول؟!

– شـوف يا باشـا، الولية القبطية اللي اسمها هدى دي مخاوية جن وهـي اللي بترسـم الصليب على بيتها علشـان تلفـت الأنظار وتجيب زباين ليها.. تقرا لهم الكف وتشوف لهم الطالع وتديهم البركة.. شغل دجالين يعني، التحريات بتاعتنا أكدت كده وكتبنا لمعاليك إنها شـاهد ماشـافش حاجة، وإحنـا حاليًّا بندور على أصلهـا وفصلها لأنها غريبة عن البلد والا سعادتك ليك رأي تاني؟

ارتشف الضابط بعض الماء من الزجاجة التي بيده ثم أكمل حديثه دون سماع رأيي الذي سألني عنه قبلًا:

– والشـهود التانييـن سـعادتك سـألتهم وقالـوا إنهـم ما شـافوش حاجة وكانوا بيقولوا الحق، دي مش شغلتنا إننا نضغط على حد، وإلا سعادتك تحقق معانا بتهمة التعذيب والإكراه.

وضعت ساقًا فوق أخرى قائلًا:

– وليه سايبين الشيخ رجب يدعي عليهم بعد الصلاة، ده غير الكلام اللي بيقوله في الدرس كل جمعة!

– يا نادر بك أنا ظابط شرطة مش شيخ بيفسر سورة التوبة!

– يعني عاوز تفهمني إن اللي خنق محمد علوان مجهول.. وإن اللي قتل صليب كمان مجهول؟ هو معقول إن كل طرف عنده مجهول بيشتغل لحسابه؟!

– دي قضايا جنائية عادية مش اختصاصي، ولو الفاعل اتعرف أكيد حيكون عند سعادتك من الفجر.. زي ما قُلت لمعاليك مالناش مصلحة نداري على حد.

دخل علينا رمسيس فجأة فسكتنا عن الكلام، أخبرنا بأن عمدة الطايعة بالخارج يستأذن في الدخول، كان يكلمني وبصره متعلق بالضابط. أشرت له بيدي لينصرف الآن ويترك العمدة ينتظر حتى ننتهي، لكن الضابط طلب مني السماح له بالدخول فوافقت على مضض.

ما إن خطا رمسيس خطوتين خارج الغرفة حتى دخل العمدة عبده طايع وهو يحجل كالغراب في مشيته، صافح الضابط بانحناءة تنافس الرقم ثمانية، ثم رفع يديه عاليًا وهو يحييني كأنه سيرفع الأذان.

جلس بالقرب من الضابط وراح يرجوه ألا يسمحوا لأحد من عائلة أخرى بالحصول على العمودية، ظل يحكي عن تاريخ جده وأبيه وكيف حافظا على استقرار الطايعة طوال هذه السنين، ثم نظر

نحوي كمَن تذكَّر أنني موجود فجأة كصاحب المكان فقال وهو يبتسم ببلاهة:

– اِحضرنا والنبي يا نادر بك وقول للباشا كلمتين حلوين في حقي، عليا الطلاق بالتلاتة أنا لو رفعوا التليفون أبو منافلة بتاع جدي من الدوَّار أموت بحسرتي، دول تلاتة وخمسين سنة عُمودية في البلد يا باشا.

لم أرد، اكتفيت بابتسامة باهتة بلا معنى، لكن العمدة التفت للضابط متوسلًا:

– وغلاوة الباشا وزير الداخلية ما تغيَّروني وحاتشوف سعادتك في الانتخابات الجاية الجماعة حيصوتوا لمين.

وضع ضابط أمن الدولة ساقًا فوق أخرى حتى صار حذاؤه في وجه العمدة ثم نظر له بقرفٍ قائلًا باستنكار:

– وهُمَّا أولاد بيشوي صوتهم راح لمين في الانتخابات اللي فاتت يا عمدة؟ وبيوت سمعان وواصف وأبانوب اللي في البر الغربي صوَّتوا لمين؟ خلينا نتكلم في التفاصيل دي في المكتب وماتنطش ورايا في كل حتة أروح فيها.

– يا باشا إحنا كنا فوق روسهم وقت التصويت وبندخل معاهم اللجان، ماعندناش حد يصوت من ورا ستارة وإلا يبقى خاين للعيش والملح.

قاطعه الضابط بحِدَّة:

– كان لازم تأمِّن عليهم من الطابور قبل ما يدخلوا اللجنة وتفكرهم بكلامهم زي ما فهمتك.. "نَعَم تَجلب النِّعَم"، بدل ما يعملوا فيك ملعوب.

– يا باشا ما أنا قُلت لرمسيس..

– خلاص خِلصنا.. بعدين نتكلم يا طايع.. تعالَ لي المكتب بالليل ونشوف.

قطم الضابط كلام العمدة. أدركت أن الأخير خرج عن النص، قال ما لا يصح أن أسمعه، بات واضحًا أن الضابط يتعامل مع الأقباط ككتلة انتخابية ولا شيء أكثر. صوَّبت نظري نحو العمدة الذي بدا وكأنه وضع ذيله بين فخذيه وهو يتراجع بظهره خانعًا، ينهل من الفضاء أمامه ويُهيل بكفيه فوق رأسه داعيًا لنا بالستر والصحة، نظراته موجهة للضابط، وربما الدعاء كله من نصيبه أيضًا.

شعرت بإحباط كبير، لكني مرتاح الضمير أنني أدَّيت دوري في حدود اختصاصي، نهضت وصافحت الضابط ظنًّا أنه سينصرف حرجًا مني، لكنه أخبرني بمجيئه خصيصًا اليوم لمَّا علم بقراري بطلب التحريات عن الذين يشترون الأراضي ويبيعونها بالطايعة عقب كل حريق، ثم أضاف بلا مبالاة زائدة عن الحد أن هذا الأمر يخص الجمعية الزراعية لا مباحث أمن الدولة. بعدها صافحني بقوة وهو

يضغـط علـى مخارج ألفاظـه بالقدر نفسـه الذي يضغط بـه على كفي قائلًا:

– دفاتـر الحيـازة عنـدك فـي الجمعيـة ممكـن تطَّلع عليهـا، خلِّي تحرياتنـا للحاجـات التقيلة اللي تسـتاهل البحـث، أنا احترامًـا للنيابة قُلت أبلغ سـعادتك بصورة ودية علشـان تسـحب قرار التحريات لأن ماعندنـاش اختصـاص بيه ولا رد فيه، ومايصحـش تفضل منتظر على الفاضي.

تجاوزه كان فجًّا لكني ابتلعته مؤقتًا، لن أجني أي فائدة من الصدام معه الآن، سيتمسـك بعدم اختصاصه مع أنه لاعب الشـطرنج الأوحد الذي تتحرك كل القطع على الطاولة بأمره، سـأضطر للسـكوت رغمًا عني واستكمال اللعب، على الأقل الآن أفعلها بإرادتي. فجأة قفز إلى ذهني سؤال والضابط يتأهب لتجاوز باب الاستراحة، فناديته سائلًا:

– سؤال أخير بعد إذنك، تفتكر إخواتنا الأقباط زي ما بتقولوا عنهم حيفضلوا ساكتين ومطمئنين لحمايتكم الشكلية دي على طول؟

ابتسم الضابط وهو يرد بثقة:

– هـو مـش الغفيـر نبـوي اللـي عنـدك سـاكت ومطمـن برضه إن سـعادتك بتحميه بالطبنجـة بتاعتك اللي مافيهـاش طلقات رصاص؟ والا عند معاليك رأي تاني؟

*****

ترجرجت العربة بنا في طُرق مُتعرِّجة بين الغيطان سلكناها اختصارًا للوقت الذي أضعناه، سقطت نظارتي على صدري عدة مرات، وضعتها بجيبي متأففًا، فعندما أخلعها لا أرى ولا أسمع جيدًا. توقفت السيارة أمام بوابة المعهد الأزهري، وصلت متأخرًا عن موعدي بنصف الساعة بسبب مرورنا بثلاثة كمائن شرطية بالطريق تطوق المنطقة بالكامل، صعدت للطابق الثالث حيث مقر اللجنة الانتخابية التي انتُدِبتُ إليها للإشراف القضائي على التصويت بالمرحلة الثانية في انتخابات مجلس الشعب.

يتنافس على الأصوات بلجنتي مرشحان، أولهما تابع للحزب الوطني برمز الهلال، والثاني مرشح جماعة الإخوان المسلمين لكنه لا يُعلن ذلك صراحة، مكتفيًا بصورته على اللافتات بلحية خفيفة وبدلة أنيقة بعدما اختار "الطائرة" رمزًا انتخابيًّا، معتمدًا على النجاح الذي حققه إخوانه بالمرحلة الأولى ببعض محافظات الدلتا، وما قاله بالمؤتمر الانتخابي الذي عقده بساحةٍ صغيرةٍ أمام الكنيسة الكبيرة مؤكدًا على دعمه للأقباط مثل المسلمين.

فتح سكرتيري جرجس الدفاتر، في حين تأكدت من خلو الصندوق الخشبي من أي أوراق ووضعته أمامي، بينما اختار نبوي الديب المرافق لي بإرادته هذه المرة مكانًا منزويًا بالحجرة بالقرب من الساتر القماشي، جلس متسترًا به بحيث يرى الداخل ولا يراه أحد، لمحت غريبًا بالحجرة، تلاقت نظراتنا فارتبك وهو يخبرني أنه مندوب العمدة، طردته بإشارة من يدي فامتثل.

مضت أكثر من أربع ساعات ولم يدخل لجنتي مواطن واحد، قبل اكتمال الساعة الخامسة سمعت وقع أقدام تقترب، اعتدلت بجلستي المتراخية ولكزت جرجس الذي نعس، طرقت بكفي مرتين لأوقظ نبوي الذي لا أرى وجهه من كوفيته المتلفع بها، لكنه رفع يده ملوحًا من بعيد.

– صباح الخير يا باشا إنشا الله تكون الأمور تمام في اللجنة، لو معاليك عاوز أي حاجة المأمور تحت أمرك!

وجدت ضابط أمن الدولة أمامي وبصحبته مأمور القسم ورئيس المباحث وثلاثة أمناء شرطة وعشرة مجندين، قوة عسكرية اقتحمت لجنتي فضاق المكان بنا. رحَّبت بهم ثم أخبرتهم في برود أن الصندوق خاوٍ منذ الصباح، لم يُعلق أحد سوى ضابط أمن الدولة الذي قال مبتسمًا:

– لسه بدري يا باشا، ماتستعجلش على رزقك.

رددت ابتسامته بأخرى باهتة وجذبته برفق من ذراعه إلى خارج اللجنة، وقفنا بشرفة الممر والطريق العمومي أمامنا خالٍ من الناخبين كصندوقي، اقتربت أكثر منه قائلًا:

– قل لي بصراحة هيا الناس راحت فين؟

– عِلمي عِلمك.. لو حشدنا الناس علشان تيجي تصوت حتقولوا الانتخابات مزورة، ولو الناس ماجتش تقولوا لنا الناس فين.. تعبتونا معاكم يا نادر بك والله، فرفعنا أيدينا عن الموضوع وأهي بقت نزيهة.

– ما هو مش منطقي إن مرشح الإخوان المسلمين ماحدش ينتخبه في لجنة المعهد الأزهري اللي أغلب الناخبين فيها مسلمين!

مطَّ شفتيه ببرود ورفع كتفيه ولم يرد، فقلت:

– طيب بلاش دي، فين المؤيدين لمرشح الحزب الوطني؟

– يا باشا بلاها اللجنة دي خالص يعني هية اللي حاتنجحه؟! ما تشغلش بال معاليك واطمن، نزيهة المرة دي.

قالها وضحك لكني لم أبادله حتى الابتسام على دعابته الثقيلة، فجأة علا صوت من جهاز اللاسلكي الذي يحمله يُنبِّه على القوات بإغلاق الطرق الجانبية الزراعية المؤدية للمعهد الأزهري.

نظرت للجهاز الذي بيده ثم نقلت بصري لعيني الضابط الباردتين قائلًا بغضب:

– صدقني العِنْد بيورَّث الكُفر!

– أعوذ بالله يا باشا من الكُفر، عندنا معلومة عن تحرُّك مسيرات تأييد وممكن تتطور لتخريب، وإحنا بنحافظ على سلامة المنشآت والأهالي ومعاليك طبعًا من قبلهم فبنقفل الطريق. ربنا معاك يا باشا ويحفظك.

تركني وانصرف وخلفه قوته العسكرية المصغرة، فقط ترك لنا مجندًا وحيدًا، ربما سقط منهم سهوًا، تابعتهم وهم يخرجون من فناء المعهد الأزهري، لاحظت شجرة عجوزًا جذعها عريض، جذورها

ضاربـة فـي الأرض ولا شـك منذ سـنين لكنها غير مثمرة، تسـد جانبًا كبيرًا من بوابة الخروج فتُجبر الخارجين على تحسُّـس خطواتهم وهم يدورون حولها، أغصانها الموفورة تُظلل سـيارات الشرطة ولا يُسمح لغيرها بالوقوف في ظلها بعدما تركوا حاجزًا مروريًّا معدنيًّا وراءهم.. تمنيت لوهلة لو قطعتها لكني شعرت باستحالة.. فأنا وحيد هنا.

عُدت لجلسـتي البائسـة مع جرجس ونبوي اللذين بدوَا كأبكمين، أخرجـت كتاب توفيق الحكيم "عدالـة وفن" من حقيبتي، رُحت أقطع الوقت بالقراءة، قرب السادسة مساءً أخبرني العسكري الواقف بالباب بوصول بعض الناخبين للجنتي.

- أخيرًا..

خرجت مني الكلمة بعفوية، تهلل وجهي كأنهم زبائن لمحل يوشك علـى الإفلاس، فتح جرجس دفتره ودخل أولهم، كان رِزق الكهربائي بالكنيسـة وبصحبته زوجته هـدى حبيب، حييانـي فـي صمتٍ وقد بان عليهما الإرهاق الشـديد، بعد إلحاحٍ مني بالسـؤال عن سـبب حالهما المتعبة، أخبراني أن الشـرطة تُغلق كل الطرق المؤدية للمعهد بكمائن على شـكل حلقات، تبدأ من مسـافة خمسـة كيلو مترات قطعاها مشيًا على الأقدام للوصول إلى اللجنة، الشـرطة تسـتوقف ناخبين بالمئات أمام الكمين الأول، يفحصون البطاقات الشـخصية ثم يسـمحون فقط بمرور غير المسلمين.

لـم أُعلق على كلامهما، أدلى رِزق بصوته بينما انتظرته هدى لأنها غيـر مقيـدة بدائرة الطايعة، وانصرفا، دخل بعدهما فلاح اسـمه نجيب صمويـل وزوجتـه فريـال، أدليـا بصوتيهمـا وانصرفـا بعدمـا رويا لي الحكاية ذاتها.

في السابعة مساءً أغلقت لجنتي، وقَّعت على الدفتر وتحفَّظت على بقية البطاقات التي لم تُستخدم ووضعتها في ظرف كبير أحكمت غلقه بالشمع الأحمر. راودني الفضول قبل أن أُغلق فتحة الصندوق ودارت برأسي تساؤلات حائرة، مددت يدي وأخرجت البطاقات وتفحصتها، ثم خرجت مني ضحكة مكتومة أشبه بالشخير.

طويـت البطاقـات ووضعتهـا بالصنـدوق، ظلـت عينـا جرجـس معلقتيـن بوجهي تنتظران إجابـة مقنعة عمَّا أضحكنـي، قطع الصمت رنين هاتفي، كان رئيس النيابة يطمئن على أحوالي فطمأنته هاتفًا:

– الحمد لله الذي لا يُحمد على مكروهٍ سواه، عندي ثلاثة أصوات فقط، صوَّتوا كلهم لمرشح الإخوان.

*****

14

الليلة رضي عني القدر، أبعد سُحُب الحزن وغيوم الهَمِّ عن سمائي فدفنت خِضر بين ثنايا ذكرياتي، عددت نجوم السماء فوجدتها بعدد سنوات عمري، ها أنا أعيش من جديد حياة أخرى بعدما أنار القمر ليلتي بشموع البهجة، فتلمست طريق الفرحة وسرت فيه على مهل كي لا أبلغ منتهاه بسرعة.

الليلة ليست ككل ليلة بعدما ذابت مخاوفي فأذابني رِزق بين ذراعيه، أذاقني السعادة على مهل، رجوت النشوة أن تتمهل قليلًا قبل أن تُباغتني بكأس السعادة الأخيرة، فاستجابت وهي تناولني شراب الحياة برفقٍ لأرتشفه في حبور. تلاقت شفاهنا في قُبلةٍ طويلةٍ كعزف ناي مزدوج، تعانقت أرواحنا في رقصةٍ حالمة، لعبنا سيمفونية جسدية متناغمة وهو يعتصرني أسفله، يُرمِّم شروخ روحي ويملأ شقوقها.

في الصباح غادر رِزق فراشنا مبكرًا، لديه عمل طويل في محافظة قريبة، سيغيب ليلة أو ليلتين، داعبته قبل أن يخرج بأنني أخاف النوم وحيدة على سريره الضخم، رد في ضيق:

– سرير نحس!

ضحكت ثم تصنَّعت الغضب بدلال سائلة عن السبب، حكى لي أنه اشتراه من الكنيسة منذ عشرين عامًا، كان مملوكًا لعمدة القرية طابع ثم باعه لمَّا جدَّد عفش داره كله، أخبرني أن الخديوِ سعيد رقد به في فترة مرضه الأخير حتى مات فوقه، ومن يومها خاف خلفه إسماعيل أن ينام عليه، اختتم بأسى متذكرًا سنوات عمره التي نامها على هذا السرير ولم يتزوج، ولما حدث وظهرت أنا في حياته لم تظهر عليَّ بوادر الإنجاب حتى الآن.. أطرق ثم قال بأسى:

– أنا بفكر أبيعه يمكن النحس يتفك، وبالمرة نكسب قرشين حلوين.

لم أُعلق بشيءٍ على كلامه ولا هو زاد حرفًا على ما قاله، تركني وانصرف كأنه اتخذ قرارًا ببيع السرير، لم أتشاءم ولا أتفاءل، حياتي ليست مجموعة من البدائل كي أختار ما يناسبني، بل العكس هو ما كان. قبل أن أُنهي دراستي الثانوية بعام مرض أبي ومات، تزوجت أمي بعده من رجل مسلم يصغرها بعشرة أعوام، شغفت به عشقًا، أشاعوا أنها عرفته في حياة أبي فهربت إلى قرية بعيدة في محافظة أخرى غالبيتها من المسلمين، اصطحبتني معها لمكان لا يعرفنا فيه أحد وإلا كانوا قتلونا لو بقينا بقريتنا كما قالت. زوجها اشتهاني منذ اللحظة الأولى التي رآني فيها، تفاديت نظراته وإيماءاته وتحرشه الدائم بي، حتى ظفر الصياد بالطريدة.

كنت شابة صغيرة لم أتجاوز السادسة عشر من عمري بعد، وخافت أمي أن يطلقها زوجها أو يتزوج عليها إذا ما أبدت غضبها من فعلته، وربما أحبته أكثر من ماله فعلًا.. لست أدري. لم يكن لها مأوى غير بيت زوجها بعدما كفَّرها أهلها وهربت منهم، فطردتني من حياتها.. مع أنني ضحيتها.

أدخلتني أمي معهد المُعلمين بدلًا من الجامعة لضيق ذات اليد، صرت مُدرسة للغة العربية في مدرسة ابتدائية بالقرية الجديدة التي نعيش فيها، لم أُحب عملي أبدًا ولم أتحمس له يومًا، ربما بسبب التعليمات التي تصلنا من الوزارة كل عام ولا تتغير عن النتيجة .. "الكل ناجح.. لم يرسب أحد"، اصطدمت بناظر المدرسة لمَّا حاولت التغيير، فكان مصيري النقل لمنطقة نائية فانقطعت عن عملي حتى فصلوني. فاكتفيت بهواياتي.. أكتب الخواطر والشعر وأقرأ القصص.

صممت أمي على زواجي في سن العشرين، لم أستطع المقاومة كثيرًا.. زوجتني من خِضر كلَّاف البهائم وأنا المتعلمة.. خِضر الدميم صاحب القلب الأسود وأنا شبيهة شادية وصوتها العذب كما يُقال عني.. خِضر الذي لم يفلح في مهنة بسبب غبائه وعناده واقتناعه بأنه أذكى خلق الله وأنا المُعلمة.. خِضر المسلم صار زوجي وأنا القبطية التي لم تترك دينها.

قالت أمي إنه الوحيد الذي سيقبل بغير عذراء فصرت أنا الجارية، ثم فاجأنا القدر بسائل وردي دافئ انساب بين فخذَي في ليلتي الأولى مع خِضر، ليُخبرني بعد فوات الأوان أنني صرت ضحية للجهل والقهر والعنت، فكرت وقتها في إبطال زواجي من خِضر باعتبار أنه لن يستر عليَّ طالما سترني ربي من قبله، لكني لم أدرِ ماذا أفعل.. ولم يعُد يفيدني أن أدري الآن.

دهسني خِضر كل ليلة من ليالي كابوسي الطويل معه، كان أشبه بقطار بضاعة لا يعرف إلا محطة الوصول فقط، يمر على كل محطاته ببرود، لا يتوقف حتى يفرغ حمولته كلها في مكان واحد كأنها ثقيلة على قلبه، وبعدها يُطلق صافرة طويلة تصم الآذان. أنا على يقين الآن أن المسيح وقف بجانبي فلم أُنجب من خِضر طفلًا.. الله يُحب لنا الخير ويجلبه، ولا أظن أن بذرة خِضر حملت خيرًا لي في يوم من الأيام.

*****

خرجت من مكتب نادر بك بعدما استمع لأقوالي كشاهدة، أشعر بأمان لا سبب واضح له عندي، ربما لأنه يُصدقني رغم أن الكل لا يقولون الحقيقة مثلي، بدوت كشاهدة زور لم ترَ شيئًا، حتى خليفة القاتل أنكروا وجوده مع أنني أدليت بأوصافه، ولما ضاقت بهم السُّبُل قالوا إنه ربما يكون الشخص الذي حذَّر أم صليب من المقاومة لمَّا نادى عليها بمكبر الصوت وكان يريد لها السلامة، حتى إنه دعاها للخروج كي تطمئن على ابنها قبل أن تخرج روحه!

واجهني نادر بك ببقية الشهود حتى شعرت بأنني المتهمة بقتل صليب. لوهلة تذكرت مقتل خِضر فارتجفت، كنت سأقف موقف الاتهام ذاته أمام نادر بك، وربما شهود مثلهم سيقولون إنهم رأوني، ارتعشت وارتبكت من مجرد الفكرة، عُدت أنظر لشهود الزور، رفعوا عيونهم لأعلى ضيقًا، تصعبوا بشفاههم كيدًا، ضربوا كفوفهم عجبًا ممَّا أقول، حتى كدت أفقد عقلي.

قبل انصرافي لمحتُ دفترًا كبيرًا على مكتب وكيل النيابة مثل الذي رأيته باستراحة رمسيس أول ليلة لي بالطايعة فاندهشت، لاحظ نادر بك نظرتي المندهشة للدفتر فسألني عنه، ارتبكت فأعاد سؤاله بحسم، أخبرته بأنني رأيته باستراحة رمسيس أول يوم أتيت فيه إلى الطايعة، ثم سألته عنه:

- هو حرف الزين يعني دفتر زواج يا باشا.. صح؟

ابتسم نادر بك ابتسامة واسعة ولم يُعلِّق على سؤالي، كأنه يعرف أنني رأيت الدفتر من قبل وأراد التأكد فقط مني. بدأت أتوتر من جديد، هدَّأ من روعي وأنا لا أفهم شيئًا عن هذا الدفتر الغريب الذي لا يريد أحد الحديث عنه معي، أجلسني مرة ثانية وطلب لي شايًا ثم راح يسألني بالتفصيل عن الدفتر الذي رأيته لدى رمسيس وهو يُسجل أقوالي كلها!

ليت القاضي الذي نظر قضية طلاقي من خِضر كان مثل نادر بك وبفراسته، ليته كان هو نفسه، على الأقل لم أكن لأقع في الخطية أبدًا.

منـذ زواجـي وأنا أتمنى يوم طلاقي، لامتني أمي التي تخشـى طلاقها، وصفتنـي بأنني كمَن يعيش يعُـد الأيام منتظرًا موتـه، لكني كنت أراها لحظة الخلاص.

تذكـرت لمَّا طلبـت الطلاق من خِضر بعد عامٍ مـن زواجنا فرفض وزادنـي ألمًا.. توحَّش وتعدَّى عليَّ أكثر من مرة، فرفعت قضية تطليق للضرر. في المحكمة أتى خِضر بشـهود، أقسـموا على حُسن معاملته لـي، وإن المكـواة التي حرقت جسـدي لأول مرة وقعت فوق سـاقي مصادفـة. بكى خِضر أمام القاضي وانتحب صوتـه، حتى إنني صدقته لوهلة وتأثرت.

أصـر وقتها القاضـي بعد عام كامل من نظر القضيـة على بقائي مع خِضر، حذرني في آخر جلسة من مغبَّة الطلاق، كأني في نعيم ويُخشى علـيَّ الخروج منـه، راح يتلو على مسـامعي آيات القـرآن التي تبغض الطلاق حتى ولو كان حلالًا، يُصر على تطبيق شـريعة خِضر كما أمره القانـون المكتـوب وهو يعلم أنني قبطية، يوقن أنـه لا ينصفني بالتحيز لزوجـي حتـى ولـو بتطبيق نصوص مقدسـة، نطـق الحكم باسـتمرار موتـي.. بـوَأْد أنوثتـي.. باغتيـال إنسـانيتي.. رفـض دعـوى التطليـق واعتبرني ناشزًا.. فعدت.

كـدت أصرخ يومها.. اتركني لحالي فأنا لا أطيق حياتي، الله الذي تحكمون باسـمه لـن يُرضيه مـا تفعلـون.. اتركوني لديانتـي، الله مَن سيحاسبني يوم القيامة، لا أنت ولا خِضر.. لكني جبنت.

تبقَّى السـؤال عالقًا في ذاكرتـي، إذا كان الله ترك لنا حرية العقيدة، فلماذا يُلزمنا بها البشر في الزواج والطلاق؟!

أيهما أكبر ذنبًا وأعظم شأنًا الكفر أم الزواج والطلاق؟

خرجت من النيابة في طريقي لبيتي ضيقة بأفكاري، تكاد تُخرجني من مِلَّتي وتهز إيماني بقوة الصليب. قررت أن أمشـي المسافة الطويلة كلهـا لأرتـاح، بعد نصف سـاعة من السـير لمحت طابـورًا طويلًا من فتيات صغيرات، أكبرهن لا تزيد على السادسة عشر عامًا، بعضهن لم يبلغن بعد، كلهن متطرحات وغالبيتهن تُزين وجوههن أصباغ ثقيلة.

لمحت عجوزًا على كرسـي متحرك تُرك سهوًا فنام تعبًا، مال رأسه يسارًا وسال لعابه من حرف فمه حتى طال صدره، تعتني به امرأة هرمة تُحـدث نفسـها، تشـكو حالها للعدم، علـى مقربة مـن العجوز جذوع نخـل ميتة، يجلس عليها بقية الأهالي من رجال ونسـاء في صبر ضاق بصدورهم فيزفرون لهبًا، يترقبون حركة الطابور الأشـبه بثعبان ضخم يتلـوى ببطء، رأسـه يبـدأ عند مدخل مكتـب محامي معـروف بالقرية بتخصصه في الطلاق والنفقة، لينتهي ذيل الثعبان البشري بفتاة صغيرة راحـت تبكـي، وأمهـا بجوارها تشـد من أزرهـا، بينما أبوهـا يصفعها ويلكزها بعنف في جنبها كل حين إذا ما علا صوت بكائها.

كنـت أعرفهـا وأعطيتهـا دروسًـا في اللغـة العربيـة ببيتـي لتقويتها وحضـرت ليلة زواجي مـن رِزق، اقتربت منهـا واحتضنتها، ذابت في حضنـي، تريد الاختباء بداخلي والاحتمـاء بي، لكن أباها انتزعها مني

بقسوةٍ حتى كاد يخلع ذراعيها، نظر نحوي واستعاذ بالله وأولاني ظهره. لا أصدق أنه ائتمنني على تعليمها في بيتي لتنجح، والآن ينتزعها مني ليسوقها نحو الفشل في حياتها كلها، ماذا تفعل هنا مع بقية البنات؟ هل ستتزوج في هذه السن الصغيرة أم أنها زُوِّجت بالفعل وحان وقت طلاقها؟!

من بعيد لمحت الشيخ رجب يُنظم الدخول للمكتب، يفوت على طابور الواقفين مبتسمًا، لا أسمع ما يقوله لهم، اقتربت من سيدة أخرى أعرفها بحكم الجيرة لعلها تفك طلاسم دهشتي.. فزادتني حيرة ودهشة لما تكلمت. علمت أن كل هؤلاء ينتظرن دورهن للعرض على عجوز خليجي يزور قريتنا، يتولى محامي الأحوال الشخصية الشهير كل الإجراءات، ليحصل أهل العروس التعسة على عشرين ألفًا من الجنيهات نظير شحن ابنتهم لبضعة شهور ضمن متاع الثري العربي، حتى يزهد فيها ويُطلِّقها، فيعيد شحنها للطايعة مع حقائب الهدايا.. لتتزوج ابن الحلال.

انضممت لصفوف المتفرجين من أهل القرية، تأمَّلت وجوه البنات في حسرة.. تلك شاردة فيما سيحدث لها ليلة الدُّخلة، وأخرى ذاهلة من الطابور الطويل الملتوي خلفها وأمامها، ربما تتمنى أن يصيبها الدور بدلًا منهن، من نظراتها القلقة وحركتها العصبية تبدو كطير مذبوح يرقص رقصته الأخيرة قبل السكون، أما الثالثة فقد تراخت وقفتها، من المؤكد شعرت بحنين لصديقاتها كي تلهو معهن

بالغيطـان مثلما اعتادت قبل الغروب كل يـوم، لكنها اليوم حُرمت من طفولتها، وقد تُسـلب منها للأبد بعد قليل، والرابعة تضحك غير عابئة بما ينتظرها، جسـمها الفائر يمنحها فرصة متقدمة على قريناتها، تُدرك مفاتنهـا فراحت تتيه بها وسـط البنـات الذاهلات، واثقة مـن فوزها.. لكـن أي فوز هذا؟! سـتفوز بكونها جارية، أم ستكسـب قيودًا جديدة علـى أنوثتها لتعتصرها حتى تموت الرغبـة بداخلها وتحيلها إلى ركام بشري؟!

توقفت عند الخامسة فكلهن تشابهن عليَّ بعد ذلك، لمحت مسافة خاليـة، مكانًا شـاغرًا بيـن بنتين من البنـات، نَدَت مني نصف ابتسـامة مبتورة، لوهلة شـعرت أنه مكاني.. ينتظرنـي.. يناديني بحِسٍّ خافت.. دورك حان مرة ثانية يا هدى، وكأن الزمن لم يكتفِ بما فعله بي، لا يزال يدعونـي إلى مائدة الذل والقهر، لتجرُّع المزيد من الحسـرة والمرارة، ولـو أني من داخلي أحسـدهن، فحالهن أفضل مـن حالي، على الأقل سـيعملون مدة سـجنهم في أحضان الثري الخليجي، شـهرًا أو اثنين، أما أنا فسجني كان مؤبدًا حتى قتلت سجَّاني رغمًا عني وهربت، لكني الآن أنتظر إعدامي في أي لحظة.

ابتعـدت عن ثعبـان البنات مهرولة كـي لا يعتصر قلبـي حزنًا على الصبايا. ظل الحزن يحوم فوق رأسي كسحابة ثقيلة، غيمة كبيرة تظللني وتجعلني أرى كل ما حولي باللون الرمادي، شعرت أن الفضاء الفسيح حولي يضيق ويصغر، محبوسة خلف قضبان غير مرئية، أحاول الهرب فلا أفلح، مسجونة دومًا في واقعي.. وفترة راحتي فقط مع رِزق.

زفر أهالي البنات زفرة عالية ثانية ضيقًا بانتظارهم، راحوا يُخرجون ألسنة لهب من حلوقهم، تتراقص نيران سخطهم على حالهم من حولي، تشكل دائرة تضيق وتقترب، تكاد تلحق بي وتُعيدني للجحيم.. أنا كنت مثلهن.. فكلنا نولد أبرياء.. براءة لا تلبث أن تتخلى عنَّا عاجلًا أم آجلًا، طالما نعيش بين فكي مجتمع مزيف، لا يشبع من التهام الأنقياء وتشويه الأسوياء، ولا يسأم أبدًا من اجتذاب مزيد من الضحايا كل يوم.

رفعت رأسي للسماء، فرأيت سربًا من غربان تدور في حلقات فوق رؤوس صُم بُكم عُمي عن الحق والعدل.. مضيت مُسرعة الخطى حتى علا نعيقها فوقي، راحت الطيور تحوم في دوائر أكبر، تقترب.. تفرد أجنحتها السوداء.. تترقبنا بلهفة.. شعرت أن قدمَي ثقيلتان، وانتابني هاجس غريب أنها ترانا الآن على حقيقتنا، مجرد جيفة شهية.. ولا شيء أكثر.

انقلب الجو فجأة، غيوم ماطرة متفرقة، أشعة شمس خفيفة تتلصص من وراء سحب داكنة، نسمات هواء باردة تشي بعاصفة على وشك الهبوب.. سرق الغروب ساعة من نهار الشمس خلسة فتوارت مبكرة عن موعدها، يائسة.. مُحبطة.

من بعيد لمحت هلال يتلفع بكوفيته، خُيل لي أنه يُشير بيده لأنتظره وهو يهرول ناحيتي، شعرت لوهلة أن أكياسًا مملوءة برمال مربوطة

بسـاقَي، هلال يقترب وأنـا مرتبكة.. جزعة.. خائفة، صارت المسـافة بيننا بضعة أمتار، هو بالفعل هلال لا شـك عندي الآن، سـينتقم لأخيه القتيل مني، فلا شيء يمنعه من أن يقبض روحي ويحرمني من رِزق.

عـلا صوتي بالدعاء.. يا يسـوع معـك وببركتك بدأنـا يومنا، ولك سـلمنا مشـيئتنا، احفظنا وبـارك أرواحنا، لا نرى يدك لكننـا نؤمن أنها تسندنا وعليك وإلى الأبد كل اتكالنا.

*****

15

قدَّمت اعتذارًا مكتوبًا عن عدم استكمال الإشراف على الانتخابات، متعللًا بإصابتي بآلام شديدة في ظهري تمنعني من الجلوس لساعات طويلة بجوار الصندوق. عُدت لعملي في اليوم الثاني مباشرة، استدعيت مدير الجمعية الزراعية رسميًّا وبصحبته دفتر حيازات القرية، لديَّ من القضايا ما يسمح بهذا الاستدعاء، لكني أبحث عن شيء آخر.

قُرب الظهر حضر المدير إلى مكتبي، فَرَد أمامي الدفاتر ذات اللون الزيتي الداكن، مدون عليها جميعًا حرف "ز" بخط كبير، عاد خطوة للخلف عاقدًا كفيه أمامه، لم أُعره اهتمامًا، لا أرى سببًا للإصرار على تسمية الدفاتر بالاسم ذاته الذي أطلقه عليها محمد علي باشا والي مصر منذ مائتي عام عندما أنشأ نظام الدفاتر بالإدارة المصرية، يختارون حرفًا من عنوان الموضوع ليكون هو اسم الدفتر، وبما أن الدفاتر مخصصة للحيازات الزراعية فقد اختاروا لها حرف "ز".

ظللت أبحث عن أرقام الأحواض ومالكها الحالي، حتى قطع تركيزي صوت مدير الجمعية قائلًا:

- قول لي معاليك بتدور على إيه وأنا أطلعه في ثواني.

دون أن أرفع رأسي قلت بحدة:

- عندك دفتر ناقص يا عاطف أفندي..

- ضاع يا فندم من سنتين وعملنا جرد لكن موصلناش لحاجة، وبنحاول نقنن الحيازات الناقصة على مالكها الحالي لكن من غير تسلسل ملكية!

رمقته بضيق ثم ألقيت نظرة على بطاقته التي تركها سكرتيري أمامي قبل دخوله، اسمه عاطف ناثان، هذا لا يعني سوى أمر واحد، أي سؤال مني الآن ستمر إجابته أولًا على فلاتر رمسيس قبل أن أتلقاها في الغد، ضغطت الجرس بعصبية مُتعمَّدة، دقَّ الصول كعبيه كالمعتاد وهو يُعطيني تمامًا، أمرته بالتحفظ على مدير الجمعية خارج الغرفة، وإمعانًا في الضغط على أعصاب الرجل قُلت بحِدَّة:

- إوعى يغيب عن عينك يا صول إسماعيل.

خرج الرجل مبهوتًا من تصرُّفي، مستسلمًا للصول الذي وجد فيه ضالته فعامله بغلظةٍ واضحةٍ وهو يلكزه بظهره عند خروجه. عُدت للدفاتر.. وجدت أن كل البيوت التي مات أصحابها أو شبَّت بها حرائق على مدار الأعوام السابقة اشتراها أولاد بيشوي، بعدها اشتروا القراريط القليلة التي حولها أولًا، بعض عمليات الشراء تمت عن طريق الكنيسة في البداية، ثم باعوها لمسلمين مجهولين من قرى

أخرى بعيدة، ثم باعها هؤلاء المسلمون لآخرين أقباط بعدها بوقتٍ قليل، وهكذا حتى عادت لأولاد بيشوي في النهاية.. دائرة طويلة من البيع والشراء تُعطي دلالة على أنها بيوع وهمية، لكن كيف لي إثبات ذلك؟ الكل سيتمسك بصحة البيع وقبض الثمن، البائعون مسلمون وأقباط والمشترون كذلك، وإن كانت ملكية الأقباط في ازدياد.. مَن وراء ذلك؟ لا إجابة رسمية ولا حتى ودية.. فازددت حيرة.

دوَّنت بيانًا بكل القطع المباعة في آخر ثلاث سنوات وأغلقت الدفاتر، وضعت علامة على أسماء لا علاقة لها بما أبحث عنه لتمويه مدير الجمعية الزراعية، اخترت آخر دفتر به قيد حيازات تخص العمدة عبده طايع وبعض أقاربه، ثم وضعت بجوار اسمه علامة لا معنى لها لكنها تُشبه الصليب إمعانًا في التضليل.

جلست شاردًا في البيانات التي أمامي، حاولت الربط بينها، هداني تفكيري لأمرٍ ما عندما لفت نظري ما يؤكد شكوكي. استدعيت مدير الجمعية لمكتبي مرة أخرى، أخبرته أن هناك شكاوى كثيرة ضده لكنه يبدو طيبًا ومنتظمًا في دفاتره لذا سأحفظها كلها. كان الرجل يتصبَّب عرقًا من الخوف ثم استراحت ملامحه بعد كلامي، ظل يدعو لي ويشكرني، أسكتُّه بإشارة من يدي طالبًا منه حمل دفاتره والانصراف واحتفظت بدفتر واحد منها، أمرته أن يأتيني غدًا بخريطة المركز الزراعية، غادر الرجل غير مُصدق أنه نجا، ثم طويت ورقة الملاحظات ووضعتها في حافظتي بهدوء.

سـمعت ثـلاث طرقات هادئة علـى باب غرفتي، دخل سـكرتيري حامـلًا أوراقًا كثيـرة مربوطة بدوبارة غليظة، تأهـب لوضعها بدولاب معدنـي لحفـظ القضايا، سـألته عمَّا يحملـه فأجابني أنهـا قضية أرض المستشـار رضوان، أبديت اندهاشـي من حفظها ضمن قضاياي رغم أنها سُحبت مني ووزِّعت على غيري، أوضح سكرتيري أن القضية لم تـوزَّع على أحد، كانت قابعة في درج مكتب رئيـس النيابة على حالها من أول يوم بقراري ذاته الصادر لصالح أولاد بيشوي ولم يُغيِّره أحد.

– أومال كانت عند رئيس النيابة كل الفترة دي ليه؟!

– علشان المستشـار رضوان بيقدم شكاوى كتير وكل شكوى كان البيه رئيس النيابة بيحفظها ولما مواعيد التظلمات والشكاوى خلصت قال لي شيل القضية يا جرجس في الحفظ وأنا عبد المأمور.

قلَّبـت فـي أوراق الملـف بعد فَـضِّ الدوبـارة من حولـه، وجدت قراري ببقاء الحال على ما هو عليه ساريًا بالفعل، ذهبت لرئيس النيابة ضاربًا أخماسًا في أسداس، طلبت منه تفسيرًا لكل ما قاله لي رغم عدم تغييره لقراري، فأجابني:

– قرارك سليم من الأول..أغيره ليه؟!

قالهـا ببرودٍ وكأن شـيئًا لم يحدث، قبل أن أعاود سـؤاله استرسـل بنبرةٍ مؤنِّبة:

– لكـن توقيتـه كان غلـط، أنا قلـت لك طلَّـع قرار تمكيـن مؤقت لرضـوان علشـان يسـكت، وبعديـن نلغيـه لمـا الأمـور تهـدا.. إنـت

باندفاعك خليتنا نشتغل بالعكس، صدقني أنا كان عندي حماسك نفسه من سنين بس ...

ابتلع رئيس النيابة جملته، ألححت عليه أن يقول ما سكت عنه لكنه أردف وهو يزفر في ضيق:

- إنت صح لكن ما علينا أهو درس بنتعلم منه، المهم دلوقتي تنزل تحضر الجلسة، وماتنساش تاخد الوشاح معاك.

تأملني لبرهة ثم قال:

- كويس إنك لابس بدلة غامقة النهارده؛ لأن قاضي جلسة الجنح حنبلي شوية.

قبل أن أغادر مكتبه، التفتُّ نحوه وأنا في منتصف الغرفة سائلًا إيَّاه عن إمكانية مساعدتي في العثور على طلقات لمسدسي، بعدما فشل رمسيس والعمدة في تدبيرها لي، انتبه رئيس النيابة لكلامي وبرقت عيناه ثم ابتسم، أخرج من درج مكتبه مسدسًا فضيًّا حديثًا، راح يتغزل في إمكانياته ويشرح مزاياه باستفاضة ربما لم يفعلها في القضايا، سحب جسم الماسورة بقوة لتُحدِث قرقعة عالية، بدا أنه طرب لها، سألني عن نوع طبنجتي، سحبتها من جرابها ووضعتها أمامه في حرج..

كان مسدسي صغيرًا بالمقارنة بمسدسه، طبنجتي سوداء لامعة ذات مقبض خشبي ولها ساقية معدنية دوَّارة تُعبَّأ بست رصاصات

فقـط، انفجـر رئيـس النيابة ضاحـكًا وهو يتفحصهـا ويزنهـا بكفه في استهتار قائلًا بسخرية:

– ويـا تـرى هيئـة الآثار عارفـة إن الطبنجـة دي عنـدك والا مخبي عليهم؟!

ابتسمت قائلًا:

– ورثته عن أبويا.. ويمكن يكون جدي هو المالك الأول.

– الطبنجة دي تروح تسلمها في المتحف يا نادر بك وتبقى بجميلة منك للحكومة.. إنتاجها وقف من عشـرين سـنة ومسـتحيل تلاقي لها طلقات النهارده، لكنها حتنفعك برضه.

زفرت يائسًا وأنا أسأله:

– تنفعني في إيه بقى من غير طلقات؟

– اعتبرهـا عصاية من إزاز.. اللي يشـوفها معاك من بعيد يعمل لها ألـف حسـاب، لكن إوعـى تطلَّعها وتهـدد بيها.. لأنها فـي الحالة دي حتتكسر على نافوخك.

*****

صاح الحاجب وهو يضرب الأرض بحذائه دونما مبرر:

– محكمة..

انتفض الجميع وقوفًا، عيونهم على المدخل الذي ندلف منه للقاعة، كلهم يتمنونه بابًا للفرج، خرجنا إلى الناس، القاضي وأنا متشحان بوشاحينا ومن خلفنا سكرتير الجلسة مهرولًا.. جلسنا صامتين حتى شقَّ القاضي الصمت قائلًا بصوتٍ شبه خفيض.. "فُتحت الجلسة".

تابعت إجراءات المحاكمة في قضايا الجنح بملل، لا دور لي تقريبًا سوى الوقوف مع كل قضية تُنادَى لأُردد ذات العبارة.. "النيابة تطلب تطبيق مواد الاتهام". بات الأمر أشبه برسالة صوتية مسجلة، أظن أنها تنال من الهيبة ولا تُرسخها لدى الناس، لا أحد بالجلسة يهتم بما أقوله، لا أحد ينظر نحوي، الأبصار كلها متعلقة بالقاضي، العقول سخَّرت الآذان لسماع المحامين حتى ينتهوا من مرافعاتهم، ثم تتعلق الأنظار فقط بشفتي القاضي وهو ينطق بالحكم في كل قضية، أما أنا فأقوم وأجلس لأُردد عبارتي البائسة، كأن كلامي لا قيمة له بعدما حصل نصف المتهمين الواقفين بالقفص على البراءة.

بعد بُرهة لاحظت أن القاضي لا ينظر نحوي، فبدأت أُردد عبارتي متكاسلًا بصوتٍ خفيض، متظاهرًا بالنهوض، نصف قائم كل مرة.. شردت في جنايات القتل والحرق المهمة التي أُحقق فيها بالنيابة والفاعل دائمًا مجهول، مع ذلك شد انتباهي في القضايا العشر الأخيرة بجلسة الجنح الآن أن الجريمة واحدة، مؤداها أن المتهم في يوم كذا.. شهر كذا.. من عام كذا.. أقدم على زراعة البصل بالمخالفة لأحكام

القانـون، بدأ المحامون فـي الترافع مطالبين بالبـراءة لتفاهة الجريمة، بينما دفع آخرون دفوعًا قانونية بعدم دستورية قانون زراعة البصل.

فـي كل قضيـة ينظـر ناحيتي القاضـي نظـرة لا أفهم مغزاهـا، كأنه يحثني على تنشـيط ذاكرته، لكني لا أُسـعفه بأي إشـارة، تلك أول مرة أسـمع فيها بهذه الجريمة، كل هذه القضايا لا أعرف عنها شيئًا، قدمها رئيس النيابة للمحكمة، وطلب مني تمثيل النيابة العامة كالمعتاد فيها. ففعلت ما أؤمر به.

قلَّـب القاضـي ونقَّب فـي الملفات العشـرة بحثًا عمَّا يُسـعفه لكنه لـم يجد، فضحَته قسـمات وجهـه المحبط، أعـاد نظر القضايـا للمرة الثانية بالجلسـة العلنية، راح يستجوب كل متهم. نودِي على المتهمين العشـرة ليتكرر المشـهد بحذافيره مع كل منهم، القاضي يسأل السؤال ذاته، والإجابة لا تخرج عن المضمون نفسه.

- إنت يا راجل إنت زرعت بصل في الغيط بتاعك؟

- أيـوه يا بيه وطول عمري بزرعـه وأبويا كان بيزرعه وجدي كمان كان بيزرعه!

- جاوب على قد السؤال.

- حاضر.. أيوة زرعت بصل.

- بس أنت زرعته بالمخالفة للقانون يا راجل إنت.. فما قولك؟

– يا بيه قانون إيه بس؟ هو فيه قانون للبصل؟ عجايب والله!

– اسكت خالص.. المحامي بتاعك بس هو اللي يتكلم في القانون والمَحضر بيقول إنك خالفت، إيه أقوالك؟

– يا سعادة الباشا أنا لا أعرف اقرا ولا اكتب.. أنا بزرع زي الناس وبس.

– آخر الجلسة.. احجزه عندك في القفص يا عسكري!

سِيق الذين زرعوا البصل زُمرًا إلى قفص المجرمين مرة ثانية ورُفعت الجلسة.

في غرفة المداولة قال القاضي كمَن يُحدِّث نفسه بصوتٍ عالٍ:

– كل هذه القضايا لا بد من الحكم فيها النهارده..

هززت رأسي بالإيجاب، فعاد يقول:

– قضايا متنوعة.. لكن قضايا زراعة بصل بالمخالفة للقانون لاحظت أنها كتيرة النهارده والا إيه؟

– أيوة فعلًا.

– جديدة القضايا دي، مشفتهاش كتير قبل كده في المحاكم!

– أنا كمان جديد هنا يا فندم.

نظر إليَّ القاضي من أسفل نظارته الطبية السميكة وبدا عليه أنه ضاق بي، ربما ظن أنني أتهرب من الإجابة عليه أو أمزح معه. استأذنته في

الانصراف على أن أعود إليه بعد قليل لحضور جلسة النطق بالأحكام في جريمة زراعة البصل، فقال وهو يُريح رأسه المجهد بين كفيه في يأس :

- حرام والله الفلاحين الغلابة تتحبس على زرع بصل!

شعرت بغُصَّة في صدري لما تخيلت هؤلاء الفلاحين البؤساء وهم يسمعون حكمًا بحبسهم على أمر اعتادوه، أوحيت للقاضي أنه ربما يوجد خطأ في الاتهام وعلينا أن نراجع قانون الدورة الزراعية، أجابني بأنه بحث عن هذا القانون ولم يجده بمكتبة المحكمة، توجد فقط إشارة لرقمه ووصف التهمة ومواد الاتهام فقط في أجندات وكلاء النيابة، التي تضم عشرات القيود والأوصاف المجمعة للتهم والقوانين لتسهيل إنهاء ملفات قضايا المخالفات والجُنح الكثيرة.

أخبرني بضيق أنه يفكر في تأجيل القضايا كلها أسبوعًا آخر حتى يبحث الأمر برمته، استأذنته في سؤال رئيس النيابة عن هذا القانون، فهو الذي قدم المتهمين للمحاكمة ولا بد أن لديه نسخة منه. تهلل وجه القاضي وهو يحُثُّني على إسعافه.

صعدت مسرعًا للطابق الثاني حيث مكتب رئيس النيابة، رويت له ما حدث بالجلسة والحرج الذي نحن فيه بسبب تهمة زراعة البصل، طلبت منه نسخة من قانون الدورة الزراعية ليطَّلع القاضي عليها كي يطمئن قلبه، عاد بكرسيه للوراء، ابتسم ابتسامة غامضة، ثم أشعل سيجارة قائلًا بهدوء:

– شـوف يا نادر بك أنا بقالي عشـر سـنين باشـتغل في النيابة على القانون ده من الأجندة المجمعة، دي تهمة بنورثها جيل من بعد جيل، لكـن مفيش مشـكلة القانون موجود والتهمة سـليمة بس أنا ماعنديش نسخة من القانون.

– يا خبر اسود.. والناس الغلابة دي تتحبس على زراعة بصل؟

– وميـن قال يتحبسـوا؟! ما كفاية غرامة خمسـين جنيه والحصيلة بتروح للجمعية الزراعية تشـتري لهم بيها تقاوي، يعني من دقنه وافتل له، شغل مماليك من بتاع زمان.

رغـم أنني ارتحت لهذا الحل الوسـط بالغرامة، والذي من المؤكد سيُريح القاضي من بعدي، لكني قلت منزعجًا:

– لكن إحنا كده ظلمنا الناس!

– المساواة في الغرامة عدل مين قال إننا ظلمناهم؟! إحنا اتهمناهم بقانون شرعه مجلس الشعب والحكم في النهاية للقاضي.. إحنا سلطة اتهام وبس.

*****

16

لا يكاد يمر أسبوع تقريبًا إلا ويسقط قتيل أو يُقلَع زرع، أحيانا تُسمَّم ماشية أو تُحرق دار ودائمًا الفاعل مجهول، لا أعرف الحقيقة أبدًا، الشرطة في قرية الطايعة باتت مقتنعة بأن المساواة في الظلم عدل، والأهالي يتسابقون لتقديم البلاغات في جيرانهم بالمركز، ثم يعدلون عن اتهامهم أمامي أو أمام القاضي بالمحكمة، من الممكن أن أقضي بقية عمري هنا لحصر المساوئ ولا أُحصيها، دخلت في متاهة كبيرة باحثًا عن العدل والحقيقة، شعرت أنني أتلاشى بالتدريج، لا أريد التحول لمسخ يُطيع بلا عقل، ولم أستطع الاستمرار.

وقَّعت على طلب نقلي بعدما راجعت صياغته لمرةٍ ثالثةٍ ثم توجَّهت لمكتب رئيس النيابة، وجدت العشرات يقفون ببابه المغلق، الذي يتسمَّر أمامه حارس غليظ القلب، مُتجهِّم الملامح، خشن العبارة، ردوده مقتضبة تدفعك لليأس دفعًا على منحدر التجاهل.. تُعيدك من حيث أتيت آثرًا السلامة إن كنت صاحب شكوى أو رافع مظلمة. تجاوزت الحارس دون تحية ودخلت غرفة تعج بكثيرين،

على سطح المكتب ملفات تسبح في كل اتجاه مبعثرة بعشوائية، يبدو رئيس النيابة مهمومًا بلا سبب واضح، إلى يساره هاتف أسود سمَّاعته مرفوعة غالبية الوقت، أمامه جهاز كمبيوتر قديم متداعٍ، صار شبه منضدة من عدم الاستعمال، نافذة المكتب مفتوحة على مصراعيها حتى لو كان الطقس باردًا، لتُسرِّب دخان سجائره التي لا تفارق شفتيه تقريبًا، تُطل نافذته على فناء خلفي صغير، يتخذه صبية المدرسة القريبة منَّا ملعبًا لكرة القدم بدءًا من الرابعة عصر كل يوم، لنفزع مع صيحات كل هدف.

تركت طلب النقل أمام عينيه ورفعت بصري فوق رأسه، متأملًا صورة بإطار مُذهَّب لامع رخيص لرئيس الجمهورية حسني مبارك، يبدو فيها متحديًا للا شيء في كسل، نقلت بصري بين وجه الرئيس مبارك ووجه رئيسي، كان يستمع لوكلاء نيابة آخرين فرغوا من تحقيقات أولية في قضية حريق الكنيسة، ثم باغتني وهو يطوي طلب النقل قائلًا:

– اقعد يا نادر بك.. أنا عاوزك في كلمتين بيني وبينك.

أخلى رئيس النيابة غرفته من شاغليها، توقعت أنه سيؤنبني كالعادة خاصة لما أمسك بطلب نقلي الذي قدَّمته ومزَّقه قصاصات صغيرة، راح يُلقيها بعناية في سلة المهملات أسفل مكتبه. نظراته شاردة.. قلقة.. نفث دخانًا كثيفًا كان يحتبسه في صدره وهو يقول بصوتٍ هادئ:

– ما ينفعش تمشي وتسيبنا بعد خمس شهور، أنا محتاجك جنبي الفترة الجاية، أنا عارف إنك صح لكن انت عارف برضه إني متقيد بقوانين وتقاليد صارمة.

– أنا مش عارف أشتغل وبصراحة حاسس إني ممثل في مسرحية سخيفة مكررة مُتفق عليها مُسبقًا، والمصيبة إن المُخرج مش من عندنا.. مش شبهنا، بيفكر في اتجاه تاني غير اللي بنفكر فيه، فكرة العدل والقانون مش بتشغله، كل اللي بيهمه السياسة وياريته حتى بيلعبها صح.. أنا مُقدر ظروف البلد لكن عارف إن أغلب الجمهور بيسقف للمخرج ده مش لينا، بس ده لأنه بيخاف منه مش علشان مقتنع بيه.. أنا عاوز ..

ضغط رئيسي زر الجرس فدق عاليًا وأسكتني، دخل علينا سكرتيره، طلب منه رئيس النيابة تقرير الطب الشرعي في قضية علوان حارس الطواويس، وضعت ساقًا على أخرى متململًا، شعرت أنني سأسمع محاضرة جديدة عن أصول الشغل، رغم كل ما نقلته له من همومي، يا ليتني ما تحدثت.

فاجأني بإعادة استخراج جثة علوان وتشريحها منذ أيام، التقرير الثاني من الطبيب الشرعي يؤكد أن الرجل مات مخنوقًا أولًا، ثم تم إحراق جثته ودفعها من فوق سطح بيته ليبدو انتحارًا.

سألته ببراءة عن الفاعل، أجاب في أسى بأنه لا يزال مجهولًا، لكنَّ المسلمين مُصرُّون على أن المسيحيين قتلوه.. تحدَّثت عن صاحب المصلحة في قتله، فطالت فترة الصمت بيننا حتى قطعها قائلًا:

– صدقني مع بعض نقدر نوصل للحقيقة، الطرفين فيهم متعصبين، وحتى لو مقدرناش نعرف دلوقتي على الأقل حنحقق ونكشف ونبيِّن، يمكن ييجي غيرنا من بعدنا يكمل ويحاسب.. مسيرها تتصلح طول ما بنحاول.

ارتحت لكلامه وشعرت أن طرف الخيط بيدي قد يساعدنا في الوصول للحقيقة، نقلت له هواجسي وشكوكي في رمسيس لاحتفاظه بدفتر حيازة زراعية رئيسي في الاستراحة، ولا بد أن به كل المعلومات الحقيقية عن الذين اشتروا البيوت والأراضي بعد قتل أصحابها أو حرق مزروعاتهم.. بدا على رئيسي الاهتمام، شرد لوهلة ثم أخبرني أيضًا أنه طلب تحريات جديدة من مدير الأمن في جريمة قتل "صليب"، لمَّا تبين لنا ذبحه بعد إصابته بالخرطوش رغم كل محاولات الشهود وغيرهم لطمس أدلة الجريمة.

كان جادًّا وهو يؤكد لي ضرورة الوصول للمدعو خليفة بعدما أجمع الشهود على أنه القاتل، ولخليفة الآخر قاتل علوان بعدما تأكدنا من خنقه ثم حرقه، الأمور تتبدَّل أمامي بسرعة للأفضل، هناك أمل في اعتدال ميزان العدل بين يدي المرأة معصوبة العينين، أعدت على مسامعه موضوع دفتر رمسيس وعرضت عليه تحقيقاتي، أطفأ سيجارة بعدما أشعل ثانية منها، ثم أصدر قرارًا بضبط رمسيس وتفتيش استراحته بناءً على أقوال هدى حبيب التي أخذتها منها لمَّا أخبرتني برؤيتها دفتر حرف "ز" في استراحة رمسيس.

دبَّت فيَّ الروح من جديد، نهضت متحمسًا لجولة أخرى من العمل ونسيت كل المساوئ مؤقتًا، رَبَّت رئيس النيابة كتفي بقوة، نظرة عينيه تقول إنه يعتذر لي عمَّا سبق، ابتسمت له ابتسامة عريضة.. فأنا قبلت الاعتذار.

انتقلتُ صحبة معاون المباحث وقوة من القسم، إمعانًا في التمويه أخبرتهم بأننا سنذهب لمأمورية معاينة غرب القرية، في الطريق طلبت من السائق أن يعرج إلى الاستراحة بحجة أنني نسيت أوراقًا مهمة، وجدت رمسيس يجلس القرفصاء بالتراس، يُطعم كلبًا اعتاد التردد على استراحتنا، بجواره نبوي الديب يحتضن عيدانًا من القصب، وعلى مقربةٍ منهما تل صغير من بقايا ممصوصة، وعُقلات لم تَلِن مع أسنانهم فنحَّوها مؤقتًا. جلسة رائقة سيتعكر فيها مزاجه بعد قليل، هكذا فكرت وأنا أبتسم بثقةٍ مُترجِّلًا من السيارة حتى منتصف المسافة بين الاستراحتين.

هَبَّ رمسيس واقفًا وراح يقترب مني، مبطئ الخطى.. مترددًا.. قلقًا، لا يفهم شيئًا ممَّا يدور حوله، وهو يشاهد عساكر الشرطة يقفزون من صندوق السيارة تباعًا كجحافل نمل منظمة في طريقها للهجوم، لم يُدرك بعد أنه قطعة السكر المستهدفة، التفتُّ للضابط والقوة المرافقة لي بهدوء مشيرًا نحو رمسيس المذهول قائلًا:

- اقبض على المتهم يا حضرة الضابط.

بُهت رمسيس لبرهة وتلفت خلفه، لكنه سرعان ما تماسك وهو ينظر لي بحدة، ممَّا استدعى دهشتي بسرعة وكنت ظننتها غابت، جذبته من ذراعه بغلظة بعدما وضعوا القيود بيديه، متجهًا به نحو مبنى استراحته، همس لي في المسافة الفاصلة بيننا وبين بابها بأنني خسرته للأبد.. ابتسمت له لأول مرة ابتسامة صفراء لزجة استعرتها منه بحذافيرها.

فتَّشنا الاستراحة كلها، قلبناها رأسًا على عقب عدة مرات، لم نترك خرمًا بها إلا ونقبنا فيه، كدت أنزع بعض الألواح الخشبية التي تُغطي المدخل لما لم نجد الدفتر الذي نبحث عنه. التفتُّ نحو رمسيس بعد ساعتين ونصف من التفتيش المتواصل، وقفته متراخية، يرتكن بظهره لباب الاستراحة والابتسامة اللزجة على وجهه تتسع بعدما استردَّها مني كاملة، ولم يبقَ بملامحي سوى اليأس والعبوس.

ساهمت أقوال هدى حبيب بالتحقيقات في إقناع رئيس النيابة بحبس رمسيس أربعة أيام احتياطيًّا، رغم عدم عثوري على الدفتر، لكن السؤال الذي يشغلني الآن هو كيف علِم رمسيس بأننا كنا متوجهين لتفتيش استراحته ليتمكن من إخفاء الدفتر بهذه السرعة؟

أجهدني التفكير لكني لم أصل إلى شيء. نقلت تساؤلاتي لرئيسي في حيرة، فبادلني مثلها، أكد على أنه لم يُخبر أحدًا بالمأمورية ولا حتى سكرتيره. سادت فترة صمت ونحن نسترجع الأحداث ببطء، نحاول ربط الخيوط وتتبُّعها، حتى التقينا في نقطةٍ فاصلة.. تذكرنا فجأة أنه

دارت بيننا محادثة هاتفية طويلة وأنا أتحرك من سراي النيابة، هابطًا الدرج في طريقي للقبض على رمسيس تنفيذًا للإذن، تكلمنا بتفاصيل أكثر وقتها. قطع رئيس النيابة الصمت بابتسامة استنكار مريرة وهو يصوب بصره نحو هاتفينا المحمولين الراقدين على سطح المكتب، ثم هزَّ كتفيه يائسًا، ففهمت مقصده.

*****

منذ صدور القرار بحبس رمسيس احتياطيًّا وهو صامد كتمثال، لم يقُل شيئًا يُذكر لزميلي الذي تولَّى التحقيق بدلًا مني، أنكر معرفته بالدفتر أو أي معلومات عن الحيازات الزراعية، واجهوه بأقوال هدى حبيب الشاهد الوحيد على جريمته، لكنه ظل ثابتًا متماسكًا، زادت دهشتي وكبرت لمَّا علمت أنه أنكر معرفته بها باعتبارها وافدة جديدة على القرية. من المؤكد بعد كل ذلك أنهم لن يُجدِّدوا فترة حبسه، حتمًا سيُفرج عنه وكأن شيئًا لم يكن، سيختفي الدفتر للأبد وستُحفظ القضية قريبًا، لتستقر بجوار بقية الملفات التي تحمل جميعها الكلمتين ذاتيهما.. "ضد مجهول".

تثاءبت وهممت بالصعود لغرفتي، ارتطم حذائي بحجر أملس صغير، تلقائيًّا التقطته وطوَّحته بعيدًا بطرف الحديقة نحو أشجارها الكثيفة، نبح كلب فجأة عاليًا فانتبهت، لمحته خارجًا من بين الأشجار، راح يحوم حول استراحة رمسيس المغلقة، كانت رمية حجر مُسددة بعناية فيما يبدو، أصابته في موجع وهو يتبرز هناك، حاول لعق مؤخرته

عدة مرات ليطمئن على سلامتها ففشل، ثم ما لبث أن ابتعد وهو يهز ذيله في سرور. رمسيس لا يزال محبوسًا أربعة أيام على ذمة التحقيق، وإجراءات الإفراج حتى لو تمت اليوم فلن يخرج قبل الغد. اعتاد رمسيس إطعام هذا الكلب، لا بد أنه أتى في موعده اليومي ليتلقى طعامه، أشفقت عليه ولم أُلقمه حجرًا ثانيًا.

أعددت له وجبة محترمة من عظام الضأن التي رقدت لحومها بمعدتي أمس، سكبت عليها بعض المرق الذي تبقَّى مني، ووضعتها بالقرب منه في إناءٍ صغير، تشمَّمها الكلب وابتعد دون أن يقربها. راح يحوم نحو الاستراحة وهو يهز ذيله ثم يعود ليقترب من الطعام، يتشممه ويتركه، ناديته لكنه لم يستجب، ابتعدت ثم تواريت خلف ضلفة النافذة الطويلة لعله خائف مني، راقبته من مكمني، ظل يُعيد الدورة ولا يقرب الطعام، فجأة انتصبت أذناه وجرى حتى باب استراحة رمسيس، نبش أظافره فيه وهو ينبح نباحًا مكتومًا.

ضربت جبهتي بيدي في ضيقٍ من غبائي وأنا أَكِزُّ على أسناني بشدة، أدركت كم كنت مغفلًا، لم أفهم مغزى الإشارة التي تحوم أمامي، هرولت مسرعًا باتجاه استراحة رمسيس، كسرت النافذة بحجر وفتحتها بسرعة من الداخل، أزحت الستائر بدفعة واحدة من يدي، فوجدت ما توقعت.. رمسيس كان جالسًا في فراشه بملابسه كاملة، وعينيه مفزوعتين لرؤيتي والكلب ما زال ينبح.

*****

17

عـلا صـوت نفيـر سـيارة أجـرة تعبـر نهـر الطريق الفاصل بيني وبينـه، تراجع هلال مذعورًا بعدما كادت السـيارة تصدمه، سـقط على ظهره لمـا ارتطمت قدمه بحجـر كبير، لم أدرِ بنفسـي إلا وأنا متشـبثة بحافة باب العربة، أمسـك التباع بيـدي الأخرى وجذبني بقـوة لداخلها، انطلقت السيارة مسرعة بعدما ابتلعتني. مصادفة ثانية تتكرر بحذافيرها أُرسلت من السماء لنجدتي.. لكن إلى متى؟!

تمتمـت بالصلوات التي تعلمتها من أبينا إسـطفانوس، رحت أُردد كلماته لتسـبق دموعـي علَّها تجِفُّ علـى وجنتَي، أدعـو أبانا الذي في السـموات ليغفـر لنا ذنوبنا كما نغفر نحن للمذنبيـن إلينا، لا أريد رؤية هـلال لمرة ثالثة، ارتفع صوتي وأنا أقول: "لتكن مشـيئتك، لا تُدخلنا في تجربة لكن نجِّنا من الشرير ".

من بعيد رأيت هلال ينفض جلبابه وهو يتابع العربة ببصره، ربما كان يقول شـيئًا لمَن تجمَّعوا حوله لكني لا أسـمعه، ثم اختفى عن ناظري. برد الصعيد أجبرنا على غلق نوافذ العربة، بخار أنفاس الركاب يتكثف

على الزجاج الخلفي فيحجب عنَّا الرؤية، بجواري فتاة صغيرة صحبة أمها، جثت بركبتيها على المقعد وراحت ترسم على الزجاج قلبًا كبيرًا بأناملها، ابتسمت لها ونظرت معها من خلال القلب الذي سمح إطاره لنا برؤية ما خلفنا، لكني لم أعد أرى "هلال".

عُدت لبيتي، أشعر بانقباض يلازمني طوال اليوم، ربما يكون مبعثه نومًا متقطعًا أو إجهادًا مستمرًّا بسبب طلبات أهل القرية التي لا تنتهي للتبرُّك ببركتي كما يظنون، عقولهم صارت في آذانهم، كلما أصابتهم مصيبة ذهبوا لبيت القبطية، كلهم يريدون الإنجاب ويؤمنون بقدرتي، ولا يستوقفهم أبدًا أنني محرومة منه إلى الآن..!

لازمتني كوابيس متكررة بعدها لأيام عديدة، صارت رفيقة منامي منذ أتى هلال من الماضي القريب وراح يحوم كل فترة حولي حتى تعبت من الهرب وصرت قريبة من الافتراس. على يساري نافذة كبيرة، لمحت منها شجرة عليها عصفور صغير يقفز من غصن إلى غصن في رشاقة وخِفَّة، حسدته على ما هو فيه من نعمة، حتى لمَّا حطَّ غراب كبير على مقربة منه فأطاره فزعًا، يكفي أنه لا يزال قادرًا على التحليق.

- اتأخرنا يا هدى على معادنا، هِمِّي شوية.. اتلحلحي..

علا صوت رِزق واقفًا قرب باب البيت فلحقت به مسرعة، جلست بجواره بعد قليل في الممر الطويل أمام غرفة وكيل النيابة، ننتظر الإذن لنا بالدخول، طال انتظارنا بلا سبب، أناس تروح وتجيء علينا، بعضهم

يخرج مجبور الخاطر وآخرون تسوَدُّ وجوههم . فجأة هَلَّ علينا الشيخ رجب بسِحنته الصفراوية وخلفه خادمه الذي رمقني بنظرةٍ حقيرةٍ وهو يعبث بشاربه، بصق الشيخ على الأرض بعدما تخطانا، أمسكت بيد رِزق بقوة، أعصابه كلها مشدودة، لكنه أطبق على كفِّي بعدها في هدوءٍ وأفلتت منه عبارات سباب خفيضة.

دخل الشيخ رجب بدون استئذان بعدما نفح الحاجب نفحة خفية بأصابعه التي انسلَّت من بين عباءته، أبدينا تذمرنا وعلا صوت رِزق، استفسر نادر بك من حاجبه عمَّا يجري بالخارج ثم سمح لنا بالدخول أيضًا، جلسنا في ركن الغرفة الفسيحة نستمع لشكوى الشيخ رجب الذي أبدى تحفُّظًا على وجودنا، لكن نادر بك صمَّم على بقائنا، بسمل الشيخ وحوقل وتبدلت ملامح وجهه ونبرة صوته وهو يحكي لوكيل النيابة أن قبطيًّا من أهل القرية هداه الله منذ فترةٍ فأسلم ونطق الشهادتين. تململ رِزق في جلسته وسَعَل بصوتٍ عالٍ، لكن نادر بك طلب من الشيخ الاستمرار وهو ينظر لرِزق نظرة مؤنبة للمقاطعة، عاد الشيخ يستكمل حكايته بأن الرجل مات منذ أيام على دين الإسلام وترك ولدًا مع امرأته القبطية، وهو يريد ضمَّه لحضانته بدلًا من تركه معها!

اعتدل نادر بك في كرسيه فجأة كزاوية حادة قائلًا بضيق:

- وإنت مالك ومال الطفل يا شيخ رجب علشان تاخده في حضانتك زي ما بتقول؟!

– ما هو أنا كده بقيت في حُكم عمه يا باشا، والشرع بيقول إن الحضانة تروح لأفضل الأبوين دينًا، والأب مات على دين الإسلام والحمد لله، وأمه نصرانية وكافرة ومالوش أعمام، يبقى إحنا كمسلمين أولى بتربيته!

– جبت الكلام الفارغ ده منين يا شيخ رجب؟

– يا باشا مايصحش تكلمني كده وكمان قدام نصارى أغراب عنِّنا، ثم إني حاصل على دراسات من الأزهر ومتعين من الأوقاف يعني أنا عا ..

قاطعه نادر بك وقد علا صوته في حدة قائلًا:

– اسمهم مسيحيين أو أقباط، وهُمَّا مش أغراب عنِّنا، وعلى فكرة يا شيخ رجب أنا جدي كان شيخ أزهر، ووالدتي اتعلمت في مدارس راهبات.

مصمص الشيخ رجب شفتيه وهو يتبادل نظرات مريبة مع خادمه المبتسم في خبث، تجاهلا كلام وكيل النيابة كله وقدَّم الشيخ طلبًا مكتوبًا بضم الحضانة، راسمًا ابتسامة لزجة على شفتيه الغليظتين لكن نادر بك رفضه وأزاحه بضيق من على سطح مكتبه، أمره بعرض طلبه على القاضي في قضية يرفعها بمعرفته إن أراد، توتر الموقف بينهما، علا صوت الشيخ رجب محتجًّا على سوء معاملته لكنه خمد بسرعة بنظرة غاضبة من نادر بك، ساد صمت مريب ثم تلقى وكيل النيابة مكالمة هاتفية عكَّرت مزاجه، بدا متضايقًا وعصبيًّا رغم خفضه لصوته

مـع مُحدِّثه، همَسْـتُ فـي أُذن رِزق لنغـادر فورًا. اسـتأذنَّا كي ننصرف فسمح لنا نادر بك وضيقه يحجب عقله عن معرفة سبب زيارتنا.

خرجنا مسـرعين وأنا ألوم رِزق علـى اقتراحه بالذهاب للنيابة بدلًا من عرض مشـكلتنا على رمسيس.. فلا أحد غيره سينصفنا، مطَّ شفتيه قائلًا:

– طيـب مـا نـروح المركـز ونبلـغ رئيـس المباحث وممكـن أبونا إسطفانوس يكلمه لنا.

– رمسـيس أقوى مـن أبونا ومـن المباحث ومـن الحكومة كلها.. طاوعني وريَّحني، أنا بقيت عارفة الطايعة أكتر منك بعد كام شـهر بس مش أربعين سنة.

سـكت رِزق وهو يهز رأسـه عدة مرات، يبدو غيـر مقتنع بكلامي، لكنـه لم يُعارضني، ذهب معي لاسـتراحة رمسـيس بعدما علمنا بقرار الإفـراج عنه، طـوال الطريـق ورِزق يسـير خلفـي بخطـوات مترددة، يُذكرنـي بأنني كنت الشـاهدة التي تسـببت في حبس رمسـيس فكيف سيُسـاعدنا الآن، يسـأل لأتراجـع، وأنا أمـد الخطى لأتجاهل سـؤاله فيعيده؛ لأرد في النهاية قائلة:

– البلـد كلها عارفة إنه كان بايت في اسـتراحة المحكمة طول فترة حبسـه وأنا قلـت لنادر بـك الحقيقة غصـب عني.. صدقني رمسـيس هـو الوحيد اللي يقدر يسـاعدنا في الموضوع ده وربنا بيسـامح، يبقى رمسيس مش حيسامح؟!

– وهـو أخـو المرحوم جوزك في إيده إيه يعملـه غير إنه يقول إنك اتجوزتي تاني بعد ما جوزك مات في العراق؟ أنا مش فاهم إنتي خايفة منـه كده ليه؟ جـوزك وربنا افتكره وانتي اتجوزتي واحد من دينك، هو الجواز حُرُم؟!

لا أجـد ردًّا على أسـئلة رِزق التي تتكرر منـذ أخبرته بمخاوفي لمَّا ظهر هلال مرتين وتعقبني، بالطبع أخفيت اسم هلال عنه حتى لا يشك فـي زواجي من مسـلم، لكني الآن لا أجد إجابة عنهـا مع أني اتخذت قـرارًا بالتطهـر من الخطية، سـأقول كل ما حدث، سـأذكر اسـم هلال وأروي قصتي مع خضر شقيقه، لكن مرة واحدة، نعم مرة واحدة فقط أمام رمسـيس ليتوسَّـط لي في الكنيسة، لم أعد أستطيع الصبر، ولست قادرة على تكرار حكايتي، فحتى الآن لا أعرف كيف سأبدأ روايتها.

اسـتقبلنا الخفير نبوي الديب بابتسـامة باهتة، سـألته عن رمسيس، ظـل يتفحصنا في ريبةٍ وهو يتحسـس بندقيته، ثم راح يستفسـر منَّا عن سبب حضورنا عابثًا بشاربه وبعدها نطق كفرًا:

– الزيارات الشخصية ممنوعة هنا بأمر من نادر بيه وكيل النيابة.

تدخَّـل رِزق فـي الحديث وهو يخفض من صوتـه مقتربًا من نبوي متلفتًا حوله عدة مرات:

– أصـل فيه جماعة أغـراب في البلد، فأنا قلقـت منهم وقلت أبلغ عم رمسيس.

كلمة "أغراب" كان لها وقع السحر على أُذن نبوي الديب ولا أعرف السبب، لكنها أخافته وأعطتنا هيبة، أضْفَت على كلام رِزق الثقة، وفتحت لنا الطريق ممهدًا لدخول الاستراحة، فدخلنا وتركت دهشتي ورائي.

قابلنا رمسيس بفتورٍ شديد، لم يُفاتحني على الإطلاق في موضوع القضية وشهادتي فيها ضده، بدا لطيفًا مع رِزق وتجاهلني، ظلت ابتسامته غير مريحة وحركته بالغرفة موترة لنا، عندما انتهينا من الشاي هَمَّ ليُعد غيره وهو يتحدث عن الخيانة فأربكتني نبرته ونظراته، لملمت شتات شجاعتي وأخبرته بأنني طالبة مساعدته في مسألة حياة أو موت تخصني وتخص زوجي، لحظتها التفت رمسيس فجأة نحوي، تلقفني وأنا أهوي بكلماتي بين يديه من علٍ وقال بنبرةٍ مستفزة:

- أي واحد فيهم؟ الأولاني خِضر اللي انتي لسه على ذمته، والا رِزق أفندي الغلبان اللي صدقك؟!

تقلبت ملامحي، حملق رِزق في وجه رمسيس مدهوشًا وهو يتمتم ناقلًا بصره نحوي في ذهول:

- خِضر مين؟!

سبقني شيطان رمسيس المكبوت في الإجابة فاسترسل وهو يضغط على مخارج ألفاظه:

– وبعدين حياة أو موت إيه يا ست هدى اللي جاية تغني بيها علينا، مفيش حَد مات لسه، حتى الواد خِضر جوزك الأولاني عايش وزي الحصان كمان.

ألجمت كلمات رمسيس لساني، شعرت لوهلة أن الصورة ثُبِّتت على وجه رِزق، علامات الاستفهام تتقافز من عينيه، لون بشرته استحال إلى صُفرة غريبة، شعرت للحظات أن الأرض تَميد بي.. لا أُصدق أن خِضر على قيد الحياة.. ما فائدة كل ما كنت أنوي قوله بعدما وضع رمسيس كلمة النهاية قبل أن تبدأ الأحداث؟!

– خِضر مين؟!

كرَّر رِزق تساؤله بصوتٍ متحشرجٍ هذه المرة، أشعل رمسيس الموقد الصغير بحجرته وهو يتفرس في وجه رِزق الذاهل في شماتة، ثم قال بنبرةٍ لا تخلو من تهديد:

– اللي يخون مالوش مكان بينَّا.. مراتك زانية يا رِزق.. كدبت علينا كلنا وهي على ذمة راجل تاني والمصيبة إنه مُسلم كمان، الست هدى هربانة من محمد خِضر أخو هلال اللي بيدور عليها هنا بعد ما ضربت جوزها على نافوخه وسابته سايح في دمّه من كام شهر نواحي الجيزة، والله أعلم ليه عملت العَملة السودة دي، ومش بعيد تكون غيَّرت دينها كمان وبتكدب.

سقط رِزق من فوق مقعده متكومًا على الأرض بعدما شهق عاليًا، فقد وعيه فجأة، لم يستطع الصمود أمام فيضان الكوارث الذي انهمر

من شـفتَي رمسـيس كأحجار ضخمة جرفها السيل من علٍ، غرقت في مصيبتـي وفضيحتـي معًا، خِضر على قيد الحيـاة ورِزق يُحتضر أمامي ويتأهـب لتركها، أنا على ذمة رجليـن الآن، أحدهما يُريد قتلي والثاني سيموت بسببي!

حاولـت كالمجنونـة إفاقة رِزق بلطمه على خدَّيـه عدة مرات دون جدوى، صرخت، تحرك رمسيس ببطء، جذب فحل بصل من مقطف خوص مُعلَّق قرب نافذة مطبخه الصغير، طرقه بكفه وهو يبسـطه على الأخـرى ففدغه، ثم قرَّبه من أنف رِزق، تحـرك جفناه قليلًا وباعد بين شفتيه، لكنه لم ينطق وظل في غيبوبته.

– اطلـب المركز بسـرعة يبعتوا عربية إسـعاف.. الراجل بيطلع في الروح يا بَجَم.. اتحرك.

قالها رمسيس زاعقًا لنبوي الديب الواقف بباب الاستراحة متسمرًا فتحرك مسـرعًا، دموعي تنهمر أسرع من الأحداث المتلاحقة، قدماي لا تحملانـني، عينـاي زائغتـان، رمسـيس لا يصـوب نظراتـه نحوي، يتعمَّـد تجاهُلي بعدمـا ألقى قنبلته في وجهينا فأصابـت رِزق في مقتل وشرذمت شظاياها روحي، الخوف يفتك بقلبي ويُشتت ذهني، صورة خِضر تتصدر مخيلتي رغم أننا انشغلنا برِزق الغائب عن الوعي بيننا.

قبل أن نسـتقل عربة الإسـعاف قال رمسـيس بنبرةٍ مُحـذرةٍ وعيناه تبرقان محدقتان في وجهي:

– نطَّمن على رِزق النهارده ومن بكرة مالكيش عيش معانا هنا، سيبي الطايعة بالمعروف أحسن ما تخرجي منها في صندوق خشب، أهل البلد لو عرفوا حيهدوا بيتك على دماغك ويجيبوا عاليه واطيه.

*****

دفعت المقعد المتحرك أمامي، عبرت البوابة ودخلت من باب جانبي صغير للكنيسة الكبيرة، رِزق يجلس مُطرقًا، شبه نائم، منذ أن لدغه رمسيس بخبر زواجي من خِضر، شهر كامل أمضيناه بين المستوصف وعيادة الطبيب ومستشفى كبير بالجيزة ولا أمل في شفائه، لم تتحسَّن حاله سوى أنه أفاق من غيبوبته، ليجد نفسه محاصرًا بالسكون بلا حراك، لا أعرف ما يدور برأسه، ولا يجد لساني كلمات بعقلي ليُطمئنه بها.

قطعنا الممر الطويل بين المقاعد الخشبية ثم انعطفنا يسارًا، أشعر أنني غريبة لأول مرة، تلفني الريبة وتُحلِّق الهواجس فوق رأسي وتُشتتني الظنون، طرقتُ باب غرفة أبينا إسطفانوس ولم أنتظر ردًّا، أدرت المقبض ودفعت الباب، بادرني أبونا بإشارة من يده فتوقفت مكاني، اقترب منَّا مُرحبًا برِزق وهو يقبض بكفَّيه على يده، مسح رأسه عدة مرات بكفِّه وقبَّل جبهته، نحَّاني بجسده، أخذ عني قيادة الكرسي المتحرك وأولاني ظهره طالبًا مني الانتظار خارج الكنيسة لحين انتهاء الصلوات. نظرته لا تحمل عتابًا أو لومًا بقدر ما تحمل ازدراءً، لا أفهم له سببًا منطقيًّا بعد اعترافي بالخطيَّة أمامه.

ثلاثـون يومًـا قضيتها مـع رِزق يـكاد يموت مني، شـعرت بأن الله غضـب علـيَّ، سـلبني فرحتي فجـأة وحرمني من جنتـي لأني كذبت، ما إن تعافى رِزق بالكاد وجلس على كرسـيه المتحرك حتى زارنا أبونا إسطفانوس في بيتنا، تذكرت الآن أنه رمقني يومها بنظرةٍ مماثلة، لكني لم أتوقف كثيرًا عندها لفرحتي بأن رِزق عاد للحياة بيننا.

جلسـت حتى لا أسـقط من فـرط انهيار أعصابـي المنهكة، أبلغني أبونـا ببرود أن الكنيسـة اعتبرتني خارجة عـن الملة لزواجي من خِضر وأبطلـت زواجـي مـن رِزق لأنني على ذمـة رجل آخـر، أعطاني مهلة أسـبوعًا لترك الطايعة، تكلم بنبرة رمسـيس وبنظرته نفسـها يوم انهيار رِزق.

اليوم أتيت للكنيسـة تائبة، أردت مَدَّ المهلة للنظر في الغفران لكن أبونـا إسـطفانوس رفض، مـع أنني علـى الحافة بين الكفـر والإيمان، هؤلاء ينبذونني والآخرون لن يُرحبوا بي.. "غيتيني يا عدرا".

غـادرت الحجـرة، وطـوال سـيري بـرواق الكنيسـة لاحظـت أن أحدهم يسير خلفي، شمَّاس شاب يُراقبني حتى خرجت فعاد أدراجه. راودتنـي فكـرة الانتحار لوهلـة لكني تراجعت بسـرعة لمَّا فكرت في رِزق. عيد القيامة بعد يومين فقررت الذهاب للسوق لأشتري له هدية، رِزق يقول لي دائمًا إن الهدية تُزيل الغُمَّة وتُصفِّي النِّية، سأشتري قطعة قمـاش جديـدة، أفضلهـا جلبابًا له مـن الصنف الذي يحبه، وسـأعود للكنيسة ولن يمنعني أحد هذه المرة.

حملتني قدماي بالكاد حتى وصلت إلى السوق، استقبلني البائعون بريحٍ عدائيةٍ هزتني وزعزعت ثقتي بنفسي فقاومتها، لكني كلما اقتربت من عربة مُحمَّلة بالأقمشة لأتفحصها وأختار من بينها، اخترقت أُذني العبارة ذاتها.. "القماش مش للبيع.. امشي من هنا يا ست".

تذكرت تحذيرات رِزق بعدم الذهاب لأسواق المسلمين، لكنه السوق الأقرب عند خروجي من كنيسة النور، انتابتني الحيرة، كيف عرفوا أنني منبوذة من كنيستي؟ هل أخبرهم رمسيس بهذه السرعة؟ أم أن الكنيسة فضحتني؟ لست أدري.

قررت العودة للكنيسة مرة ثانية بعد أربع محاولات فاشلة للشراء، لكني لمحت نجيب صمويل أحد جيراننا مع زوجته فريال، رحبا بي في مودة. شكوت لصمويل العنت الذي لاقيته من التجار، اصطحبني إلى عربة بنهاية السوق، يبدو أنه على محبة مع صاحبها. بدأت وفريال نُقلِّب في الأثواب المرصوصة على العربة، لكن النظرات من حولنا تحاصرنا، الألسنة تُغمغم بما في الصدور، تطاول أحدهم علينا وهو يضع قرنين بأصابعه فوق رأسه في إشارة إلى زوجي رِزق، حمدت ربي أن صمويل وزوجته لم يعلما بالحقيقة بعد.

اتسعت الابتسامات البلهاء، بعدها علت ضحكات شجعت آخرين على التمادي في إهانتنا، لاحت بوادر مشاجرة بالأيدي بين صمويل وباعة آخرين، تدخلتُ وزوجته لنجذبه بعيدًا وننصرف في سلام،

نحن ثلاثة وهم عشرات فلا غلبة لنا، دفعني أحدهم بشدة في صدري، سقطت على ظهري وكُشفت ساقي حتى منتصف فخذي.

علا صياح فريال ولطمت، تدافع الباعة نحونا، دخل صمويل في عراك شرس مع مَن حوله وهو يسب لهم الدين والملة، رجحت كفتهم سريعًا، طرحوه أرضًا ثم دفعوا فريال بجوارنا، انهالوا علينا بالعصي وبعضهم يُكبِّر بصوتٍ عالٍ بعدما استمر صمويل في سب دين المسلمين، فجأة دوت سرينة عربة الشرطة قادمة باتجاهنا، انفضَّ الباعة من حولنا، مثلما يهرب الذباب جماعات من فوق الحلوى إذا ما لمح المنشة وهي تهوي فوق رأسه، أدخلنا الضباط بصندوق السيارة ونحن لا نصدق أننا نجونا، ربما كنا أول ثلاثة بالقرية كلها نفرح لركوبنا سيارة الشرطة.

في المركز رفض صمويل الإفصاح عن أسماء الباعة الذين اشتبكوا معنا وكشفوا عوراتنا، ولم يتهمه أحد منهم بسبِّ الدين أيضًا، سِرنا على دربه وأنكرنا أنا وفريال، وبقي ما في النفوس يكاد يخترق الصدور ويتشابك وسطنا أمام الضابط، لكنه أفرج عنَّا جميعًا وهو يسب لنا الدينين!

عُدت للكنيسة ثانية كي لا أترك رِزق بمفرده، علمت أنهم أعادوه لبيت شقيقته فلحقت به، حكيت له ما حدث، رفع جفنيه لأعلى بعد قليلٍ ودمعت عيناه، مددت كفي وأمسكت بيديه وقبَّلتهما باكية ثم

ركعت وقبَّلت قدميه، لكنه ظل على حاله ينظر للا شيء ويبكي في صمت.

بعد المساء سَرَت بالقرية إشاعات حتى وصلت باب بيتي، قالوا إن الأقباط وضعوا سُمًّا في مياه الشرب وحرقوا المعهد الأزهري، أشاعوا أن القبطية تستدعي جِنًّا لبيتها، يحرق القمح والبرسيم ويُهلك المواشي كلها في غمضة عين، علمت أن الطايعة بالكامل محاطة بعشرات العربات من قوات الأمن المركزي، لا أحد يدخل أو يخرج منها، مع أن الخطر بالداخل يمرح بيننا.

دارت عربات نصف نقل بمكبرات صوت تُحذر الأهالي من مغادرة بيوتهم، ينادون علينا بأسماء أزواجنا، تضايقت لما قالوا عني هدى النصرانية وهم يمرون من أمام بيتي كأن رِزق لم يعُد موجودًا، على الأقل لقب القبطية كان أهون، لكنهم ليسوا في حاجة لبركتي الآن. بعد ساعتين هدأت الحركة، ولم نعُد نسمع سوى صوت السكون وصراصير الغيطان القريبة. فجأة عادت كُرات النار للظهور، لكنها هذه المرة غريبة، أشبه بشهاب أحمر يطير عاليًا، ثم يسقط فوق البيوت أو بينها، ينطفئ بسرعة ولا يحرق شيئًا.

خرجت خائفة ووقفت أمام البيت لاستطلاع الأمر، جيراني القريبون مسلمون لكن بيوتهم غارقة في العتمة، كرات النار اختفت كما ومضت فجأة، عُدت وتطرَّحت ثم أسرعت الخطى حتى وصلت

إلـى بيت صمويل بالشـارع الخلفـي، وجدت عنده تجمُّعًـا من رجال كثيرين مسـلحين بعصي غليظة، وبعضهم مُسلَّح "بمقروطة" يحشوها بالخرطوش، توجَّست ممَّا أراه ونقلت مخاوفي لفريال، لكنها سكتت عن الكلام بنظرةٍ واحدةٍ من زوجها الذي أغلق علينا باب الحجرة وهو يقول بحسم وعصبية بينما يتطاير الرذاذ من بين شفتيه:

– والمسـيح الحـي لناخـد بتارنـا منهم الليلـة ونلبِّسـهم طُرَح زي نسوانهم، والسما تشهد علينا.

*****

18

غُصت في مقعدي أستمع لإيقاع نشع قطرات المياه من السقف في رتابةٍ تُنبِّه ذاكرتي وتُلح عليها، زاعقة بصوتٍ يسد أُذنَي.. "أنت فشلت.. هم أقوى منك ومن القانون.. هم القانون نفسه، وأنت أحد منفذي رغباتهم في النهاية مهما حاولت أو قاومت".

لا أعرف ما إذا كان رمسيس قد أمضى فترة حبسه الاحتياطي كلها بالاستراحة أم بحجز المركز، حال الحجرة التي اقتحمتها عليه وهو راقد بفراشه تشي بأن أيام الحبس الأربعة قضاها هنا، لكن دفاتر المركز وعساكر القسم يؤكدون حبسه بالتخشيبة. الوحيد الذي لمحت في عينه نظرة ضيق ممَّا جرى هو نبوي الديب.. نظرته تنبئ عن بركان بداخله، يريد أن يقذف حُمم الحقيقة قبل أن تحرقه، هو طرف الخيط الذي سيقودني للفريسة، وما عليَّ سوى جذبه ناحيتي برفق.

ظننت أنني سأصطاد أكثر من عصفور بشهادة نبوي الديب، ضابط أمن الدولة الذي مكَّن رمسيس من مغادرة التخشيبة كل ليلة، دفتر حرف " ز " الذي نبحث عنه والذي حتمًا سيظهر لو ضاق الخناق على

رقبة رمسيس هذه المرة، لنكشف غموض الحوادث كلها ونقبض على المجهول ونحاكمه. لكن خَمَد بركان نبوي بسرعة على عكس ما توقعت، انطفأ بريق نظراته وانكسرت، لم يقُل شيئًا ممَّا في صدره، اكتفى بأنه كان نائمًا كل ليلة من الليالي الأربع، لا يعرف مَن دخل أو خرج مع أنه حارس ليلي. أعيتني الحيلة وفشلت كما في المرة السابقة، لا أدلة على أن رمسيس خالف القانون، ولا قرينة حتى على أن أحدًا من الضباط قد ساعده على الهرب من الحبس والمبيت بالاستراحة.

اضطر رئيس النيابة للإفراج عن رمسيس في اليوم الرابع فوجدته أمامي، خفتت نظرة التحدي والابتسامة الصفراء أو ربما خُيل لي ذلك، كل ما يشغلني معرفة السبب الذي دفع الضابط لتهريبه كل ليلة لكني لم أصل لإجابة بعد، وهو لن يتكلم، فحاولت الانشغال بعملي.

*****

تلقيت إشارة من مأمور المركز بوقوع حريق في بيت شخص يُدعى حليم تادرس، في طريقي للمعاينة هاتفني ضابط المباحث مؤكدًا أن الحريق عمدي، المفاجأة في أن النار أتت على البيت كله بمَن فيه، مات حليم وزوجته وأولاده الخمسة.

- والفاعل برضه مجهول يا حضرة المأمور؟

سألته باستنكار متوقعًا إجابته، ففاجأني بأنهم ضبطوا المتهم قبل هروبه من القرية واعترف بارتكاب الجريمة، دفعني الفضول لسؤاله عن اسم المتهم، فأكد توقعاتي هذه المرة قائلًا:

- عامل محارة اسمه ياسر الرشيدي من الجيزة لكنه حاليًّا عاطل.

طوال الطريق كنت منشغلًا بحوادث الفتنة الطائفية التي لا تريد أن تنتهي بهذه القرية الصغيرة، ما الذي يدفع مسلمًا غريبًا عن القرية مثل الرشيدي لحرق عائلة قبطية بأكملها؟ مَن الذي حرَّضه وملأ رأسه حتى ذاب عقله وصار دُمية بين أيدي غيره؟ زفرت في ضيقٍ ولم أجد إجابة تُريح عقلي حتى ركبت سيارتي، ما إن جلست بمقعدي فيها حتى قلب نبوي الديب توقعاتي كلها فوق رأسي، أخبرني بما أثقل تفكيري وغيَّر بوصلتي، عرفت أن المجني عليه حليم تادرس إسكندر هو شقيق رمسيس الأصغر. قبل أن تكتمل دهشتي ألقى نبوي قنبلته الثانية، ليُجهز على ما تبقَّى مني، حليم استأجر البيت أمس فقط من مالكه، وأول ليلة يبيت فيه مع أسرته هي الليلة التي مات خلالها.

- ومين صاحب البيت يا نبوي؟

- تاجر مواشي اسمه الحاج محمد حمدان.

أول ما طلبته من رئيس المباحث عند وصولي أن أرى المتهم، بدا الرشيدي مستعدًّا للاعتراف بجريمته، تفحَّصت جسده الممتلئ فلم أجد به آثار تعذيب، بدأت في سؤاله شفويًّا مصطحبًا إياه معي أثناء المعاينة، تركته يشرح كيف سكب الكيروسين على مدخل البيت وبالجهة الخلفية، ثم أشعل النيران وظل واقفًا كي يتأكد من مقتل صاحبه، سألته عن سبب الجريمة فأجابني بانفعال ممزوج بالمرارة:

- الكلب محمد حمدان سرق كِلْيتي.

انتشرت الحكاية بالقرية فخيَّم عليها صمت مريب، لا الأقباط فرحوا بأن الجريمة لم تكن تستهدفهم، ولا المسلمون اهتموا برجلٍ غريبٍ يُصفِّي حساباته مع آخر ينتمي لهم لكنه ترك بيته لقبطي ليموت بدلًا منه، تقبَّل الطرفان الأمر بصورةٍ أقرب للتعادل السلبي في مباريات الكرة، كأننا على موعد مؤجَّل مع جولةٍ أخرى، لكني على الأقل نجحت في نزع الفتيل مؤقتًا.

ظللت أحقق أكثر من ثماني عشرة ساعة متواصلة حتى لا تندلع في القرية نارٌ أخرى تأتي عليها كلها، لو انتشر خبر مقتل حليم تادرس على يد مسلم لن يتوقف نزيف الدم لأسابيع قادمة.

سمحت لبعض الأهالي المتجمهرين من الأقباط بحضور المعاينة، وقفوا على مسافة كافية يسمعون منها أقوال الرشيدي، وهو يحكي بمرارة شارحًا كيف أن حمدان اتفق معه على شراء كُلْيَتِه مقابل عشرين ألفًا من الجنيهات، وبعدما تمت عملية النقل بأحد مستشفيات الجيزة تهرَّب منه حمدان وماطله، لم يُعطِه سوى ألف جنيه فقط واختفى بعدها، فصمَّم الرشيدي على قتله، ولم يكن يعلم أنه قبل الحادث بيومٍ واحدٍ قد أجَّر بيته لحليم شقيق رمسيس، الذي ألحق أخاه بالعمل في شركة الكهرباء القريبة من الطايعة، فاستأجر بيتًا بها مع أسرته ومات قبل أن يرى نهار اليوم التالي.

أصدرتُ أمرًا بحبس ياسر الرشيدي أربعة أيام على ذمة التحقيقات. وسألت عن رمسيس كي أُعزيه وأواسيه لوفاة شقيقه، أخبروني بانهياره

أثناء مراسم العزاء بالكنيسة، خاصة وأن الجثث تفحَّمت وصعُب التعرف عليها بسهولة. أبلغني نبوي أن رمسيس كان يعتبر حليم بمثابة ابنه الأصغر، وله محبة خاصة عنده هو وأولاده، فرمسيس لم يتزوج.

قال آخرون إنهم شاهدوا رمسيس يُكلِّم نفسه بالكنيسة، بدا وكأنما مسَّه الجن، وأقسم أحدهم إنه لأول مرة يراه غير مبتسم منذ أربعين عامًا.

بعد أسبوعين من وقوع الحادث وأثناء تواجدي بمكتبي دقت طرقتان على باب الحجرة، ثم ظهر سكرتيري حاملًا طردًا كبيرًا، وضعه على مكتبي وهو يلتقط أنفاسه ربما جرَّاء صعوده السلالم بحِمله، تفحصته بعينَي فأجابني وهو يستعد للانصراف:

- وصل الصبح على مكتب البريد باسم سعادتك، ومُرسَل من أسيوط من غير اسم الراسل ولا عنوانه، ومكتوب عليه من برة لا يُفتح إلا بمعرفة معاليك.

- استنى هنا.. افتحه إنت قدامي.

لا أعرف لماذا شعرت بقلقٍ من أن أفتح شيئًا بمفردي دونما شهود، ربما وظيفتي عوَّدتني على فعل كل شيءٍ في النور، تجنبًا لشبهات لم نعُد في حاجة إليها، بعدما باتت تلاحقنا بغير حق في مجتمع صار يتربص بنا أكثر من أي وقتٍ مضى.

فَضَّ سكرتيري الظرف الكبير وكلما نزع جزءًا من ورقه الأبيض لاح اللون الزيتي أسفله، حتى اكتملت المفاجأة بظهور دفتر حرف "ز" الناقص أمامي. فتحته بلهفة، تصفَّحت بعض أوراقه، وجدت الكثير منها منزوعة من مكانها، البيانات لا تُعطي دلالة على تسلسُل الحيازات الزراعية، قفز هو إلى ذهني أولًا، سألت سكرتيري عنه فأجابني بتلقائية:

- رمسيس سافر، طلع أجازة من أسبوعين في بلدهم، يستريح من اللي جرى له وياخد عزا أخوه الصغير.

- وبلدهم دي فين؟

- أبوتيج.. أسيوط.

*****

عُدت للاستراحة وكلمات رئيس النيابة ترن في أذني.. "أنت في حاجة لإجازة أكثر من أي وقت مضى"، فكرت في النزول للقاهرة، خطيبتي تُلح عليَّ في زيارة قصيرة لكنها باتت ثقيلة على قلبي، لا أريد السير للنهاية في هذا الطريق. دقَّ جرس هاتفي المحمول فابتسمت، يبدو أنها مثل الشياطين تحضر بمجرد ذكر سيرتهم، هذه المرة كان صوتها باكيًا حزينًا، تريد أن تستمع لي أكثر ممَّا تتكلم كعادتها.

علمت منها أن زوج شقيقتها تعرَّض لأزمة كبيرة في عمله، أوقفوه عن العمل مؤقتًا، ثم أحالوه إلى لجنة لتقرر صلاحيته للعمل القضائي

مـن عدمه بعدمـا ألقت الرقابـة الإدارية القبـض عليـه، لاتهامه بقبول رشـوة من رجـل أعمـال للموافقة علـى تخصيص قطعـة أرض له مع أنها مخصصة للشـباب من أجل اسـتصلاحها، أربعمائـة فدان أهداها زوج شـقيقتها بجرَّة قلم لرجل الأعمال، نظير مليون جنيه وُضعت في حسابه البنكي فلم يستطع تبرير مصدرها.

وقع الحكاية لم يكن مفاجئًا لي، كنت أتوقع هذه النهاية المتأخرة. قطع صوتها المنتحب حاجز الصمت بيننا قائلة:

– اعمل حاجة يا نادر، كلِّم له أي مستشـار زميلك، بلاش يحبسوه ده ابـن ناس ومش حايسـتحمل البهدلة، وقول لنـا مين أفضل محامي في الحالات دي.

– اهـدي طيـب دلوقتـي وأنا حاتصل بيكـي تاني بعد شـوية.. ربنا يقدم الخير.

ليـس لديَّ ما أقوله، لم تسـتقر حكايـة خطيبتي في رأسـي طويلًا، طردتهـا متعمـدًا متمنيًـا أن تنتهي علـى خير فعلًا، خيـر للقضاء وحده ولا أحـد آخر، فـلا زلنا قادريـن على تطهير أنفسـنا. ناديـت نبوي في طريقـي للحديقة، قررت سـؤاله عـن الصليب الذي يدقه على رسـغه وعلاقته برمسـيس وحكايته بالطايعة، جال بخاطري أن جلستنا الودية الثنائيـة هنا سـتفك لسـانه وتفتح قلبـه، خصوصًا وأنه يسـتريح لي في غياب رمسيس، باغتُّه بسؤالٍ صريح:

– قول لي يا نبوي إنت مسلم والا مسيحي؟

– أنـا ربي الزمن يا نادر بك.. هو اللي بيحييني وهو اللي حيموتني وياخد روحي فجأة.

أربكنـي ردُّه، جلسـت بوسـط الحديقـة وطلبت منه إعداد الشـاي حتى أُعيد ترتيب أفكاري، ولَّيت ظهري للاسـتراحة مستمتعًا بتدخين سـيجارة مُجهزًا أسـئلة أخرى في ذهني قبل إلقائها على مسامع نبوي، ممـددًا سـاقي علـى مقعد منخفض في اسـترخاء، لمحـت الكلب من بعيـد يعـدو ناحيتـي لأُفاجـأ برمسـيس يظهر فجـأة من على يسـاري، وضع صينية الشـاي أمامي مبتسـمًا الابتسـامة إياها وإن خفتت كثيرًا، بدت أقرب للمصطنعة منها للحقيقية التي كانت ملتصقة بوجهه طوال الوقت، شـعرت أنه يحافظ على وجودها فقط. قبل سـؤاله عن عودته المفاجئة، بادرني بقراءة ما في ذهني وكأنه مكتوب على جبهتي فقال:

– أصل اليومين دول مِعاد المولد في الطايعة وقلت يمكن تحصل مصايب والا حاجة، فرجعت من أسيوط جايز معاليك تحتاجني، إحنا برضه عِشرة وأكلنا عيش وملح مع بعض.

أي مولد هذا والبلدة كلها عبارة عن مولد كبير منذ وصلتها! وربما هي كذلك منذ سنين طويلة ولا أمل في بارقة نور قريبة. هززت رأسي بالموافقـة على كلامه فليس لديَّ ما أقوله، عزَّيته في شـقيقه، لاحظت أنـه ينظـر إليَّ نظـرة مختلفة، منكسـرة، كمَن يُبـدي ندمًا علـى أمرٍ ما.

لا أعرف لماذا يُباغتني رمسيس دائمًا بالضربة الأولى، لا يمكنني أبدًا توقع رد فعله، ربما غموضه هو الذي يدفعني دفعًا للسير وراءه، لعلي أعرف يومًا ما الذي يُخفيه عني.

من بعيد وقف نبوي الديب يراقب المدخل، بينما انسحب رمسيس نحو درج التراس المُطل على الحديقة، جلس يُدخن سيجارة وهو ينظر للسماء شاردًا وبجواره كلبه يلهث، اقترب مني نبوي الديب هامسًا بأن رمسيس قد انكسر لما مات شقيقه الأصغر، وطلب أن أسامحه على مبيته بالاستراحة وقت حبسه، سكت لبرهة ثم قال بنبرة قلقة:

- إحنا عشمانين في كرم سعادتك ورضاك عننا، أنا ماينفعش اتنقل مركز تاني، ولا رمسيس ينفع يسيب الطايعة.. وإحنا خدامينك يا نادر باشا وحُكمك سيف على رقابينا.

- ولو سألتك حتقول الحقيقة يا نبوي؟

هزَّ رأسه بالإيجاب بعدما التفت ناحية رمسيس أولًا، الذي فاجأني بأنه أومأ له برأسه أيضًا، كأنه يسمعنا بوضوح وموافق على ما نقول، تنهدت لأول مرة في راحة، لكني أجَّلت سؤالهما إلى وقتٍ لاحق، شعرت أنهما صادقان هذه المرة رغم سرعة تحول رمسيس ولم أشأ أن أُفسد صحة اعتقادي، ربما هزَّه موت شقيقه محروقًا بلا ذنب. قفزت لرأسي فكرة أخرى، لماذا لا يكون هو الذي حرَّض على حرق علوان وقتله فاكتوى بناره هذه المرة؟ أعلم أنني لن أجد إجابة أبدًا، فكلنا فرائس للظنون وضحايا للإشاعات حتى ونحن نكتوي بنار الحقيقة.

ذهبت لغرفتي، ارتديت ملابس خفيفة، لمحت مسدسي الفارغ فأخذته معي، استدعيت سائق المحكمة وركبت بجواره، ناديت رمسيس ونبوي وأنا قُرب البوابة قائلًا لهما بنبرةٍ آمرة لا تقبل اعتذارات:

- اركبوا معايا.. أنا عاوز أنزل البلد أتفرج على المولد.

*****

19

تابعتهـم من نافـذة البيت، تفرقوا جماعـات باتجاه السوق والعزبة القبلية والمعهد الأزهري، ابتعدت أقدام صمويـل ورجاله حتى خفتت بينمـا علت دقات قلبي، قـررت العـودة لبيتي، صمَّمَـتْ فريال زوجـة صمويل علـى الذهاب معي، مـا إن غادرنا بيتها حتى وجدنا جماعة من السُّـنية يقطعـون الطريق المؤدي لبيتي بثلاث عربات صغيرة "توك توك"، كان أحدهم ممسـكًا بسـيفٍ رفيعٍ مطوحًا به في الهـواء بعصبية، حذرنا من التقدم خطوة واحدة وإلا ذبحنا، سبَّته فريال بأنه جبان لا يقدر إلا على الحريم، اقترب الرجل منَّا وعيناه تشيان بأنه قد نوى على الشر لنهايته، في تلك اللحظة زمجر توك توك آخر من خلفنا ودار حولنا نصف دورة ليستقر أمامنا، يقوده صبي صغير صاح بصوتٍ عالٍ:

- اركبي يا أبلة هدى بسرعة!

لـم نتردد لحظة، طار بنا التوك تـوك بعدما قفزنا فيه، من ورائنا كان الرجل يجري بأقصى سـرعة للحاق بنا، لكن الصبي الذي يقود التوك تـوك انعطف في حوارٍ ضيقةٍ وهو يصيح فينا لنتشـبث جيدًا بمقاعدنا،

اصطـدم عمدًا بأقفاص دجاج متراصة فـوق بعضها، ربما كانت نائمة، طارت في وجه مَن يُطاردنا وأفزعته وهي تُنقنق بشدة، أطلق نفير التوك تـوك عدة مرات كأنها إشـارة مُتفـق عليها، بعدها ألقت بعض النسـوة مياهًـا كثيرة فـوق رأس الرجل الذي لم ييأس بعد مـن الهرولة خلفنا، تبدو الأرض زلقة، فقد لمحته وهو يسقط فجأة على ظهره أثناء عدوه، بينما لسانه لم يتوقف عن ملاحقتنا بالسباب.

ابتعدنـا عن الخطـر مؤقتًا، لكـن الصبي الذي يقود التـوك توك بدا متوترًا. همستُ لزوجة صمويل سائلة إياها عن أمه وبيته، هزَّت رأسها بأنها لا تعرفه، هممت بسؤاله عن أهله لكنه راح يجوس بنا في حارات مظلمـة، لم نكن نـدري أن في أحـد منعطفاتهـا يكمُن سـيَّافٌ مُتلحِّفًا بالعتمة، فلم نلمح سـوى نصل سـيفه اللامع وهو يخترق جدار التوك تـوك الجلدي، لتصـرخ فريال من الألم وهي تُمسـك بجنبهـا والدماء تندفع منه.

عـرج بنا الصبي ناحية الزراعات وهو يسـألنا عـن الجهة التي نريد أن نذهـب إليها، طلبـت منه التوجُّه للكنيسـة كي نسـعف فريال، أومأ بالإيجـاب وانطلق، فوجئنـا برجال يهرولون بالقـرب منَّا ونجحوا في استيقافنا، لكنهم ما إن تفرسوا في وجه الصبي حتى ارتاحت قسماتهم، فسـألهم ببراءة عمَّا يدور بالقرية، أخبروه أن بعض الأقباط حطموا كل العربات الخشـبية لبيع الأقمشـة والبضائع بسـوق المسلمين وأحرقوا محلات أخرى مجاورة لها، أجابهم بثقة:

– ربنا معاكم يا رجالة، أنا معايا حريم منهم واحدة متصابة بسنجة ولازم نلحقها.

دارينا وجهينا بطرحتينا، خفنا أن يعلموا أننا ذاهبون للكنيسة، مالت فريال برأسها على كتفي وهي تئن، لكن الصبي الذكي سَبَّ لهم دين الأقباط الذين أصابوها فاطمأنوا لنا أكثر ودلُّونا على طريق المستوصف. لما ابتعدنا عنهم بقليل اعتذر لنا الفتى عمَّا قاله وهو يلتفت لنا بخجلٍ شديد:

– أنا آسف يا أبلة هدى.. ربنا يسامحني كنت مضطر اعمل كده.

ربَّتُّ كتفه برفق فابتسم في طفولة، شعرت لوهلة أنني رأيته من قبل لكن ذاكرتي لا تُسعفني في تلك العتمة، اقتربنا من الكنيسة ووجدنا حصارًا من عربات نصف نقل قبلها بخمسمائة متر تقريبًا، صرخت فيه قائلة:

– ادخل على الكنيسة يا وله ما تخافش.

أجابني بلعثمة أن العربات لمسلمين ولو استوقفونا سيقتلوننا هذه المرة فزادنا خوفًا، دار بالتوك توك دورة واسعة فانزلق بالغيط الملاصق للطريق لمَّا فقد سيطرته عليه. استمر يقطع الطريق بسرعة فائقة حتى دخل ناحية المساكن غرب السوق، على يسارنا رأينا بيوتًا تشتعل بالنيران، ثم اقتربت منَّا عربة بمُكبر صوت تُحذِّر الأقباط بضرورة ترك بيوتهم لأن المسلمين يحرقونها.

انتابتنا حالة فزع. لا تزال فريال تنزف، تتعرَّق بشدة، تئن بصوتٍ عالٍ، بينما ترتعش ساقي بصورة غريبة لا أملك أي سيطرة عليها، شاهدنا مُلثَّمين يحملون مصابيح، يرسمون صلبانًا بطلاءٍ داكنٍ على أبواب بيوت كثيرة تخص أقباطًا، ليأتي مِن بعدهم مَن يُشعل فيها النار. صوت إطلاق الأعيرة النارية ظلَّ مُصاحبًا لنا بغير توقُّف، أشار لنا الصبي على بيوت أقباط يقف فوق أسطحها أشخاص مُسلَّحون يُطلقون النيران بعشوائية على الجانب الآخر حيث بيوت المسلمين، لكننا لا نراهم من مكاننا بوضوح ومن المؤكد سقوط قتلى ومصابين منهم مثلنا. استغثت بالعدرا عدة مرات وأنا أبكي صامتة.

لمحت من بعيد الشيخ رجب يقود عشرات الأهالي ويهتف فيهم ليحرقوا مَن يُقابلهم، ثم وقعنا في كمين أعدَّه مسلمون متترسون خلف عربات خشبية مقلوبة فباغتونا، بدا الجمع شرسًا من هيئة رجاله وعتادهم، هتفوا الله أكبر عدة مرات رافعين أذرعهم بالشوم مطالبين بأن نتوقف.

هدَّأ الصبي من السرعة ليُطمئنهم وهو يرفع لهم كفَّه من التوك توك هاتفًا:

- صلوا على النبي يا رجالة..

ظنوا أنه امتثل فتراخوا وقد علت همهماتهم، لكنه كان يستعد للدوران، ثم ابتعد بأقصى سرعة، ما إن انطلق بمسافةٍ كافيةٍ حتى دوَّى صفير رصاصة مرقت بجوار آذاننا فصرخنا. استمر التوك توك

في السير، لكننا فوجئنا بالصبي منكفئًا على مقوده ولا ينطق، اندفع متعرجًا لمسافة طويلة ثم سقط في ترعة صغيرة، والصبي ينزف بغزارة من فمه وظهره، وجهه مبتسم في هدوء لكنه لم يمُت بعد.

حملته وخرجت به من الترعة، وضعته ممددًا على السكة الترابية، بعدما أحاط بنا جمهرة من فلاحي القرية من أهلنا، أخرجوا فريال بسرعة، أحدهم أطلق عدة أعيرة تجاه أفراد الكمين الذي تسبَّب في سقوطنا بالترعة ليبتعدوا عنَّا. ارتحت لرؤية مَن أعرفهم من جيراني الأقباط، سألتهم عن أهل الصبي الصغير وأنا أطلب منهم نقله للمستشفى لإسعافه مع فريال التي فقدت وعيها هي الأخرى، قالوا إنهم لا يعرفونه لكنه يُشبه ابن عريان الحلاق.

حملوهما لمستشفى المركز في عربة نصف نقل، وسرت أنا مع آخرين مسلحين عبر الغيطان في طريقنا للكنيسة الكبرى لنحتمي بها بعدما طمأنوني أنهم نقلوا رِزق إليها. على ضوء المصابيح القوية شاهدت جثثًا محترقة إلا قليلًا بالحقول التي مررنا بها، اقتربنا من بعضها نحاول التعرف عليها، على رسغ كل منها دُق صليب، إحداها لنجيب صمويل وقد فقأوا إحدى عينيه ففزعت، تردد صوته بعبارات التهديد الأخيرة في أذني، جذبوني من يدي لننصرف وأنا شبه ذاهلة.

انتابتني مشاعر متباينة، ماذا فعل بقية رجال صمويل إذن، خسائرنا تدل على سير المعركة لصالحهم. تسرَّبت خيوط النور فوقنا ونحن نسير صامتين مُطرقين كأننا في جنازة، هدأت الأعيرة النارية وظهرت

مدرعـات الشـرطة وهي تجـوب المدينة، الكردون الأمنـي يكبر كلما اقتربنـا مـن مربع الكنائـس، بالداخل وجـدت غالبية أقبـاط القرية في انتظـار كلمـة راعي الكنيسـة أبينا إسـطفانوس.. بحثت عـن رِزق بين الصفوف حتى وجدته قرب نهايتها وحيدًا.

ظهر أبونا إسطفانوس بعد ساعتين ونصف الساعة مكفهرًّا، الغضب يسـود ملامحه ويكاد يطمسـها تحته، أمسـكتُ بيد رِزق الجالس على كرسيه المتحرك بجواري، شعرت لأول مرة منذ مرضه أنه يضغط على يـدي برفـق، التفتُّ إليه فوجدته يحاول الابتسـام لكنه لا يقدر، دمعت عيني وقبَّلت باطن كفه، مسح دموعي وهو يُربِّت رأسي بوهن.

أمسك أبونا بالميكروفون ليهدئ الجموع الغاضبة، قال كلامًا كثيرًا عمَّا حدث، ثم بشَّرنا بأن سيدنا في طريقه لزيارتنا اليوم أو غدًا ليطمئن علينا فهلَّلت الجموع، ثم أعلن عن فتح سائر الكنائس الثلاث المغلقة منـذ فترة، فقوبل قـراره بتصفيق متواصل لدقائـق، علمنا أن القتلى في هـذه الليلة بلغوا عشـرين قتيلًا، منهم تسـعة عشـر قبطيًّـا، أخبرنا أبونا أن المسـلم الوحيد الذي مات قتله المسـلمون بالخطأ، تاجر من قرية أخرى رفض التوقُّف بسيارته في كمين مثل الذي قابلناه، حاول الهرب منهم ظنًّا أنهم أقباط فاختبأ ببيت قبطي شريكه في التجارة، فتح له داره ليحميه، فأطلقوا عليه النار وأردوه قتيلًا معه، ثم حرقوه مع أهل البيت اعتقادًا منهم أنه قبطي مثلهم. هنا ارتفعت الهمهمات بشدة.

بـدت الكنيسـة كلهـا غاضبة وحزينة فـي آنٍ واحد، الجميع يتشـح بالسـواد ما عدا أنا، حتى الصليب أعلاها علَّقوا به قماشًـا أسود، رأيته وأنا داخلة يرفرف في غضب، حكاية القبطي الذي أوى مسـلمًا ومات معـه دفعـت بعضنـا لحكي قصـص مؤثرة عـن مسـلمين أنقذوهم لمَّا علقوا بأسطح بيوتهم، فأتوا لهم بسُلَّم خشبي لينزلوهم، وآخرون رووا كيف أن مسلمين آووهم بديارهم وقت الضرب لينقذوهم من الهلاك، لكنَّ أبانا إسطفانوس لم يُعطهم الفرصة ليسترسلوا في تلك الحكايات وقطم حديثهم، فرووها في أحاديث جانبية بالتفصيل.

سـمعت كثيرًا عن رمسـيس وكيـف كان يتحرك كالمكـوك بالقرية ليُسـاهم في إطفاء النيران وإنقاذ المصابين ونقل القتلى للكنيسـة. عاد أبونا إسطفانوس يشرح كيف بلغت الخسائر المادية مئات الألوف، أما المعنوية فلا تُقدَّر بثمن، عشرات المحلات أُحرقت وحُطِّمت، البيوت نُهبت وشبَّت في أثاثها النيران، أُسرٌ كثيرةٌ حُرمت من عائلها وأولادها، لا زال أبونا يتكلم، صوته متحشرج، آهات المصابين والناجين تُقاطعه وهي مجروحة مـن القلب، جثامين بعض الضحايا توضع كل فترة في صناديق خشبية أمامه، ابتلع ريقه ثم اختتم كلماته قائلًا بغضب:

– شـكرًا يا مسـلمين! أنـا عارف إنكم بتسـمعوني دلوقتـي من برَّه الكنيسة، وعارف كويس مين اللي بينقل لكم كلامنا.. شكرًا يا مَن كان أجدادكـم أقباطًا مسـيحيين، وبتعصبكم تريـدون أن نصدق ما يقولونه عنكـم، أن دينكـم هو الـذي يُحرضكم علـى كراهيتنا وسـفك دمائنا،

دينكـم الذي اعتنقه بعض آبائكم لأنهم فقط لم يسـتطيعوا دفع الجزية وقتها، لكننا لن نُصدق ما يُقال عنكم، مع أننا ندفع أرواحنا ثمنًا لتعنُّتكم وتعصُّبكم، سنسامحكم كما أمرنا يسوع، نسامح لأنكم إخوتنا ..

تحشـرج صوته بعدها فسكت ليمسح دموعًا سالت بغزارة، ثم قال بصوتٍ مُنتحب:

– إنما ربنا شـايف وسـامع ولو سكت كل المسئولين في مصر فلن يسكت الرب.

ضجَّت الكنيسـة بالتصفيق المختلط بالبـكاء والعويل، لمَحتُ من بعيـدٍ الرجليـن اللذين ذهبا بالصبي الصغير سـائق التـوك توك وزوجة صمويـل للمستشـفى، اقتربـت منهمـا وسـألتهما عنهما بلهفـةٍ وقلق، التفت لي أحدهما قائلًا بصوتٍ خفيض:

– الواد مات أول ما وصلنا المستشـفى وأهله أخدوه يصلوا عليه.. والولية مرات صمويل عايشة وجرحها بسيط.

انحـدرت دموعـي رغمًا عني، دعـوت له بالرحمـة وأن يُعزِّي ربنا أهله، لتصعد روحه للسـماء في سـلام، عدت أسأل الرجل عن أم هذا الفتى لنواسـيها وتُعينها الكنيسـة على مصروفـات الحياة بعدما فقدت ابنها، لوى شفتيه وهو يقول:

– اسمه حمادة إسلام.. ابن الست بهية اللي ساكنة بعد بيتك بتلات بيوت.

ظلَّلتني سحابة حزن وطفح الغضب من حلقي، خطفت الميكروفون من الشمَّاس الذي يدور به على المتحدثين، حكيت حكاية الصبي الصغير معي، بعدما انتهيت علا صوت جارنا مُريد دُميان وهو يحكي أن ابنه الوحيد ميلاد اختفى، ظنَّ أنه خُطف وقتلوه، فأبلغ القس توماس راعي الكنيسة ليُعاونه لكنه طلب منه الدعاء والصبر، حتى هاتفه جاره محمود وطمأنه عليه ومكَّنه من محادثته بعدما عثر عليه مُصابًا بشجٍّ في رأسه ومُلقًى بالغيطان. بكت منال ظريف وهي تروي كيف اقتحم مجهولون مسكنها، قتلوا زوجها واقتادوها وصغارها إلى خارج المسكن وتصادف مرور جارها أبو القاسم فتدخَّل لحمايتها وحال دون الجناة وإياها، واصطحبها إلى مسكن ذويه حيث مكثت آمنة مكفولة برعايتهم.

كبرت دهشتي لما سمعت عاطف بلامون المعروف بتعصُّبه يقول وهو مُطرق بصوتٍ خفيضٍ إن كرات النار سقطت على بيته وحرقته فلم يتمكن من الخروج فاستنجد بإسماعيل ابن جاره، الذي وضع له سُلَّمًا خشبيًّا ليهبط عليه مع أسرته ثم اصطحبهم للكنيسة في حماية عمِّه المُسلَّح.

لم أتمالك نفسي، علا صوتي من بعيد لمَّا رفضوا منحي الكلمة مرة ثانية وأنا أنظر إلى أبينا الواقف قرب المذبح قائلة:

- بقوا اتنين مسلمين مقتولين بالغلط يا أبونا، حتفضلوا ساكتين لغاية إمتى؟ اللي ماتوا كانوا بيحبونا وأنت رافض تسمع حكاويهم

وعاوزنا نعادي اللي ساعدونا ونسامح اللي قتلونا، ما ربنا برضه سامع وشايف كلام الناس الطيبة دي، لغاية إمتى حنفضل نقول إحنا وهُمَّا؟ ما كفاية بقى.. سيبونا نعيش.. أنا جيت هنا علشان أعيش وبس.

نظر إليَّ الأب إسطفانوس بغضبٍ وأشار لأحد مساعديه، ثم انصرف وسط همهمات عالية لم أعرف أهي تُناصرني أم ضدي. بعد لحظات وجدت مَن يقترب مني بهدوء ويدعوني للقاء أبينا في غرفته، لمَّا دخلت عليه كان بصحبته مطارنة وآباء آخرون وشمَّاسون، فآثرت الصمت، رماني بنظرةٍ قاسيةٍ وهو يجلدني بكلماته توبيخًا على مقاطعته، قال كلامًا كثيرًا عن التسامح، بعدها التفت نحوي غاضبًا ثم أخبر الجميع أن الكنيسة فرَّقت بيني وبين رِزق لكوني خاطية، زانية، كاذبة، كافرة، ثم طلب مني المغادرة فورًا وعدم دخول الكنيسة مرة ثانية إلا بإذن منه شخصيًّا.

طلبت الصفح واعتذرت عن صوتي العالي أثناء كلامه، لكنه أشاح عني منتظرًا خروجي، رجوته أن يوقع عليَّ أي عقوبة إلا أن يفرقني عن رِزق، جالَ بعينيه بين الواقفين حوله فظلوا تماثيل، عُدت أرجوه أن يؤجِّل قراره حتى تهدأ الأمور وننتهي من المصيبة التي نحن فيها جميعًا الآن، لكنه بعدما تلقَّى الصمت جوابًا ممَّن حوله، قال بهدوءِ مَن يُلقي درسًا من دروس الآحاد:

– الكنيسة هي التي تمنح سر الزيجة، والزواج التصاق لا يُفرقه إلا الزنا، وأنتِ زانية وخرجتي من الملة بزواجك من مسلم، الكنيسة تمثل

الله على الأرض وهي مَن تمنح وتمنع، وأنا بحكم سُلطتي أمنعك من استمرار زواجك برِزق، واعرفي إننا وافقنا نمنحه تصريح زواج جديد لو أراد أن يتزوج، إنما إنتي محرومة من الزواج للأبد.

لطمت صارخة:

- تاني وتالت حاقولك وأنا ذنبي إيه يا أبونا؟ أنا كنت مُجبرة واعترفت بخطيتي ومش عاوزة أتجوز حد تاني غير رِزق وما أظنش إنه عاوز يسيبني، أنا كنت مجبرة على الجواز من خِضر ومعرفتش أتطلق منه، واتجوزت رِزق وكنت فاهمة إن خضر ميت، والمسيح الحي افتكرته مات، ليه بتحمِّلني مسئولية على حاجة أنا ماليش ذنب فيها؟

هنا اقترب مني أحد القساوسة، جذبني من يدي بعيدًا عن الجميع وقال لي بصوت خفيض:

- شوفي يا ست هدى، لو جوزك غِلِط ومديره في الشغل زعَّق له، ورجع البيت متضايق وزعَّق فيكي وانتي زعلتي منه وزعقتي في بنتك، وبنتك طلَّعت غضبها كله على قطتها وضربتها فماتت منها، يبقى مين فيكم اللي قتل القطة؟

*****

20

سـرنا بمحاذاة الجسـر ثم انعطفنا إلى أقصى اليمين لكنـي لم أجد ريفًا. المكان يعج بالبشـر كيوم الحشـر، الوجوه تتسـوَّل الفرحة، تُقاوم الحـزن والفقر، تتلمَّس السـعادة في جلباب بسـيط مُزركـش، تبحث عن بهجة مُفتقدة اسـتقرَّت بقاع النفس وصعب عليهم استعادتها بسـهولة. على يسـارنا نُصبت أُرجوحات ثنائية ملونة تُشـبه المراكب، يتصايـح الصبية وهم يتمايلون بها، بعضهم يُكمـل دورة تامة، تابعتهم حابسًا أنفاسي ثم أظهرت إعجابي بهم.

دوي بنادق الرش الخفيفة يتلاشى أمام صيحات الفرحة عند الفوز بلعبة بلاسـتيكية بعد إصابة الهدف، مئات الباعة الجائلين ينادون على بضائعهـم، لم أفهم حرفًـا ممَّا يقولونـه، غالبيتها طيور كثيـرة متنوعة، مربوطة من سيقانها ببعضها، تتحرك في سنتيمترات قليلة فوق أقفاص جريـد متهالكـة، تهـز رؤوسـها في حركـة روتينيـة لا تتوقف مـع نداء أصحابها، وكأنها تُعلن موافقتها على بيعها ثم ذبحها.

لمحت بيوتًا كثيرة غالبيتها بالطوب الأحمر، السكك الترابية تفصل بينها خطوط صفراء منحولة لا تسرُّ الناظرين، تظهر على استحياء مُعلنة عـن موت نباتات.. عمران قبيح يزحف نحو خضرة ناضرة، يُحاصرها قبـل أن ينقـضَّ عليها، وهي تُنـازع، تُقاوم، تتزحزح ببـطءٍ تحت وطأة الغابة الأسـمنتية، تذبل، تجف، تبور، لتتماهـى الخطوط الفاصلة بين اللونيـن الأخضر والرمـادي، يغلب اللـون الأخير ويتصـدَّر الصورة. ترتفـع المبانـي لتُنافس النخيـل، لكنها لا تتمايل طربًا مثلها مع نسـائم الهواء إنما تكاد تخنقنا من فرط حصارها لنا.

التفـتُّ لرمسـيس مؤنبًـا إيَّـاه ومُذكِّرًا بأننـي طلبت منـه منذ نصف الساعة رؤية ريف حقيقي إلى جانب المولد، ظهرت ابتسامته الصفراء على الفور وهو يجيبني:

– مـا هي دي الفلاحين وبيوتهم وحياتهم يا باشـا، البلد كلها بقت كـده إلا الناحية اللي فيها اسـتراحة معاليك، أما فلاحين زمان تلاقيهم في الروايات اللي سعادتك أخدتهم من المكتبة.

من بعيد بدا أمامنا برج كنيسة عاليًا، سألت رمسيس عنها لكن نبوي تبرَّع بالجواب قائلًا:

– دي كنيسة خاتم المرسلين يا باشا.

رمقه رمسـيس بنظـرةٍ حادَّةٍ غاضبـة، لم أتمالك نفسـي وضحكت بصوتٍ عالٍ، أفهمني رمسـيس أنها كنيسـة النور، لكن الشـارع يحمل اسـم خاتم المرسـلين، فأطلق أهل البلدة من المسـلمين على الكنيسة

الاسم ذاته تسهيلًا للوصول إليها، ولم يفلح الأقباط في محوه من على ألسنتهم. على يسارنا "صِوان" كبير في نهايته وُضعت منضدة خشبية عريضة، تراصَّت فوقها لُعب إسفنجية زاهية، شباب وفتيات يقفون أمامها في انتظار دورهم لرمي الأطواق عليها، ومَن يفلح في تطويق إحداها فإنه يفوز بها.

شعرت بالطفل الذي بداخلي يستيقظ، يفرك ساقيه ويتمطَّع ليقفز بعيدًا عن متناول عقلي الذي تراخى متعمدًا في اللحاق به، نحيت قيود الوظيفة جانبًا وسرت وراءه مغمضًا. لعبت وربحت من أول رمية لكني خسرت الثانية.

تخلَّى نبوي عن اضطرابه وحذره معًا، تركهما وراء ظهره مع كوفيته التي كانت تُخفي وجهه، راح يُصفِّق وهو يُتابعني بلهفة، أعطيته ثلاثة أطواق ليُجرِّب حظه فلم يتردد، يده الممدودة سبقت دهشتنا من تصرُّفه التلقائي. خابت كل رمياته حتى إن الثالثة اصطدمت بوجه المسئول عن إدارة اللعبة بقوة، فأثارت ضحكات الواقفين من حولنا.

كنت في حالة تركيز شديدة وأنا أستعد لجولة جديدة، أهديت نبوي هديتي الأولى التي طوَّقتها، واعدًا رمسيس بأنه سيحصل على اللعبة الثانية إذا ما فُزت بها. لمحت نظرة لوم في عينيه وهو يتلفَّت بحذر حوله ويحُثني على الإسراع، من المؤكد أن بعض الأهالي تعرَّفوا علينا، ورمسيس شخص غير اجتماعي بطبيعته فتضايق من الجموع المتلصِّصة، لاحظت أيضًا أن صاحب الصِّوان لم يعُد يسمح لغيري بمشاركتي.

وقف الناس على بُعد خطوات خلفي يرقبون المشهد ويشجعونني وأنا ألهو وحدي، حيَّوني بالتصفيق عاليًا لمَّا فزت، حفَّزوني على الاستمرار بعد الجولة الثالثة، تردَّدت، قرأت دهشة على ملامح بعضهم لكن قسمات وجوههم مرتاحة، رأيت نظرة طيبة تطل من عيونهم، ربما شعروا بأنني مثلهم لا مثل الآخرين الذين يخيفونهم ويأتون بهم لي مُكبَّلين بالقيود.

مال رمسيس على أذني هامسًا بأن أي مولد أغرابه أكثر من أصحابه، أسرَّ إليَّ بخوفه على نبوي ثم اختتم قائلًا:

– الراصد غالب.. واحنا كده مكشوفين يا نادر بك ونبوي عليه تار.

أمسك عقلي بتلابيب طفلي وحبسه بداخلي مرة ثانية. عُدنا إلى حيث ينتظرنا السائق، طوال الطريق أشعر براحة حقيقية، تخفَّفت من هموم كثيرة فأسندت رأسي للوراء قليلًا، غفوت حتى وصلنا إلى الاستراحة، أخذت حمَّامًا دافئًا وجلست في فراشي أقرأ، تثاءبت بعد نصف الساعة، فكرت في الاتصال بخطيبتي لمعرفة تطورات الأمور مع عديلي المستقبلي، لكني قبل الإمساك بالهاتف سمعت أعيرة نارية متلاحقة تُطلق بكثافة، أسمعها بوضوح آتية من ناحية الحديقة.

هرولت حافيًا للطابق السفلي بملابس النوم، وجدت رمسيس يختبئ خلف الأريكة الكبيرة بعدما دفعها نحو الباب ليحول دون فتحه من الخارج، الرصاص يتطاير كالمطر، يُحطم النوافذ، يخترق باب

الاستراحة ونوافذ الشـرفة ليستقر في الجدران وأحيانًا يرتد بعشوائية. علا صوت رمسـيس وهو ينبهني لأنبطح بسـرعة، ففعلـت بلا تفكير، زحفت على بطني حتى اقتربت منه، أشـار ناحية نبوي الديب المتسـتر بالحائط ممسـكًا ببندقيته وينظر إلى السـقف في ذهول، عيناه دامعتان وشفتاه تتمتمان في سرعة بما لا نسمعه، استنتج رمسيس أن طالبي ثأر نبوي عرفوا مكانه وتتبَّعونا من المولد، ولما شـعر نبوي بهم ولمحهم بالحديقـة لاذ بالفـرار ليختبـئ عندي، ولحقه رمسـيس كـي لا يقتلوه بالخطأ.

سـكتت الأعيرة النارية لبرهة، يبدو أنهم يُبدِّلون أمشـاط الأسـلحة الآليـة التـي يُطلقون منهـا كل هذا الوابل، أشـار رمسـيس لنبوي على يـده ليريهم كفه المدقوق أسـفله الصليـب فرفض بإصـرار، طلبنا منه ألا يتحـرك أو يتكلـم حتى لا يعرفوا مكانه، راح رمسـيس يزحف نحو الهاتـف الأرضي ليتصل بالمركز، هتف نبوي بصوتٍ مُتحشـرجٍ وهو ينظر لي نظرة متوسلة:

– وحياة حبيبك النبي يا باشـا تُضرُب عليهم بطبنجتك.. لو عرفوا إن ماعندناش سلاح حيغربلونا.

انفعلـت وتوترت أكثر، شـعوري باقتراب المـوت منَّا وحصاره لنا وعجزي عن الدفاع عن نبوي يكاد يفتك بما تبقَّى من أعصابي.

هَمَّ نبـوي بالاقتراب ناحيتي، أمرته بعصبية بألا يتحرك من مكمنه، ثم أضفت بنبرةٍ حرصت على التماسُك فيها لأُطمئنه:

- طبنجتي فوق في الأوضة يا نبوي ما تتحركش أنا حاجيبها.. حنتصرف ما تخافش.

نجح رمسيس في الوصول للهاتف واتصل بالمركز، لكن الخوف دفع نبوي للهرولة نحو السلم لإحضار طبنجتي بدلًا مني، ما إن تحرك بضع خطوات من مكمنه حتى انهمر سيل الطلقات عبر الضلفات الخشبية التي تحمي نافذة التراس، تطايرت قطع الخشب الخضراء صغيرة في الهواء، انتفض جسد نبوي الديب الضخم ثلاث مرات، أطلق صراخًا عاليًا، اندفعت نوافير الدم منه ثم ترنَّح، سقط وسط الصالة فوق منضدة زجاجية فهشَّمها مُحدثًا ضوضاء هائلة مثل جبلٍ انهار فجأة ثم سكت الضرب بعدها.

جثوت على ركبتي، شاهدت مُلثمين يفرُّون باتجاه الغرب والكلب ينبح مهرولًا خلفهم، نهضت بصعوبة وأطرافي ترتعش، اقتربت مذهولًا من نبوي الذي ينزف من صدره وفمه وساقه، لا يزال ممسكًا ببندقيته، باليد ذاتها التي تحمل صليبًا مدقوقًا على رسغها، نظر إليَّ نظرة عتاب قصيرة، مال رأسه على كتفه وأغمض عينيه، ثم تحجَّرت قبضته فوق ماسورة البندقية بعدما نطق الشهادتين بصعوبة.

*****

21

التقطت أُذني بضع كلمات قانونية باللغة الإنجليزية، أمرت السائق بالإبقاء على محطة الراديو قبل أن تمتد يده لتغييرها، اعتدلت في جلستي ورُحت أُنصت لكلام الضيف باهتمام، فهمت بعد قليل أنه اللورد الشهير "نورمان بيركيت" عضو مجلس العموم البريطاني وهو محامٍ قدير أيضًا حسبما قرأت عنه، كان حوارًا مُعادًا فالرجل مات منذ نصف قرن. سأله مذيع هيئة الإذاعة البريطانية باحترامٍ شديدٍ عن عدد القضايا التي كسبها طوال حياته، فأجابه بنبرة واثقة:

– أخشى أن أبدو مغرورًا، لكن من السهل عليَّ تذكُّر القضايا التي خسرتها فهي ثلاث فقط على مدار عمري المهني.

تنحنح المذيع ثم قال:

– هل كنت تعتقد أن موكلك بريء دائمًا؟

تخيَّلت اللورد بيركيت يضع ساقًا فوق أخرى ليُداري ارتباكه وهو يرد:

– الحقيقة أنني حصلت على البراءة أحيانًا لأشخاص مذنبين بالفعل.

شعرت بنبرة انتصار في صوت المذيع وهو يُباغته بسؤالٍ تالٍ:

– إذن كنت تستخدم حيلًا قانونية في سبيل الوصول إلى براءة مَن لا يستحق؟

تغيَّرت نبرة اللورد الإنجليزي بعد برهة صمت وهو يُجيب في جدية بالغة:

– لا أُحب استخدام كلمة حيلة قانونية وأُفضِّل أن يكون سؤالك كالتالي: "هل تقبل المرور عبر الثغرات في نطاق القواعد القانونية والموروثات الثقافية والاجتماعية وما قد يؤثر في الرأي العام لكي تحصل على البراءة؟"، وفي هذه الحالة ستكون إجابتي: نعم.

كدت أرى خجل المذيع وهو يقول للورد بيركيت:

– لكنك بالتأكيد تشعر ببعض الندم على مساعدة المذنبين، أليس كذلك؟

عَلَت ضحكة استنكار بسيطة ثم أجابه اللورد بثقة:

– قطعًا لا أشعر بأي ندم.. أنا أمُرُّ من ثغراتٍ تركها المسئولون عمدًا أو سهوًا، ولا يُمكن أن تُحاسبني على ذكائي بينما تكافئ الآخرين على غبائهم بترك قواعد قانونية جامدة وأفكار بالية كما هي دون تجديد.

زفَرْتُ في ضيقٍ ثم طلبت من السائق إغلاق الراديو، انحرفت عربة المحكمة بنا إلى أقصى اليسار ثم اتخذت الطريق السريع إلى القاهرة في إجازة قصيرة لإراحة أعصابي بعدما مات نبوي الديب. لا يمكنك مساعدة أحد على الحياة إذا فشلت في اختيار القصة المناسبة لإقناعه بها.. أما أنا ففشلت في مساعدة نبوي رغم اقتناعه بقصتي، لكني فيما يبدو اخترت قصة أودت بحياته، عندما اطمأنَّ إلى حمايتي بطبنجة فارغة من الرصاص، أنا خدعته ولا أحد غيري مسئول عن مقتله.

ثلاثة أسابيع مرَّت عليَّ، لا أستطيع أن أُسامح نفسي على ذنب نبوي الذي تعلَّق برقبتي، حتى القصاص لم نفلح فيه، فالفاعل بات مجهولًا كالعادة، وكل ما قيل لي عن القضاء والقدر وأن العمر واحد والأجل معلوم لم يُغير في قناعاتي شيئًا، سمعت الكلام بأُذن وأخرجته من الثانية، بحثت عن أهل نبوي لأتكفَّل بهم، فلم أجد له زوجة ولا ولدًا، مات نبوي كما عاش.. وحيدًا، غريبًا، خائفًا.. وفي النهاية مخدوعًا في قدرتي على حمايته.

*****

- الله يسهل لك يا بني..

قلتها لصبي يشحذ بإلحاح ثم أغلقت النافذة، جلست شاردًا أمام عجلة القيادة بسيارة المرحوم أبي، الشيفروليه السوداء القديمة، أقود بالفطرة مثلما علَّمني القيادة، لكني لا أرى معالم الطريق جيدًا، أطياف مهزوزة تمر أمام عيني، خطيبتي بجواري لا تتوقف عن

البكاء في صمت طوال طريق العودة من دار القضاء العالي، شقيقتها تجلس بالأريكة الخلفية شبه منتحبة حتى علا صوتها فأخرجتني من شرودي.

جلسة اليوم كانت أولى جلسات محاكمة عديلي المستقبلي إذا ما مضيت في طريق الزواج لنهايته، حضر معه ثلاثة من أكبر المحامين بمصر، نادى الحاجب "محكمة" ووقفنا ثم جلسنا، راح القاضي يُنادي على المتهمين ويواجههم بتهمهم، رأيت زوج أخت خطيبتي مرتديًا ملابس السجن البيضاء، واقفًا وراء القضبان بقفص المجرمين، ربما مَن حوله ممَّن ضبطهم متلبسين بجرائم إبَّان عمله كضابط شرطة، وربما غيرهم ممَّن حقَّق معهم أثناء عمله بالنيابة العامة، الآن يقف بينهم، لدهشتي يبدو واحدًا منهم، يُشبههم، يُردِّد عباراتهم نفسها، ينفي التهمة وهو يُقسم بأغلظ الأيمان على براءته، يتحرك بالقفص في توتر مثلهم، عيناه زائغتان وشفتاه ترتجفان، أصابع يده ترتعش، وقفته مرتبكة عصبية، كلماته مندفعة، كلما نظر أحد منَّا إليه لبرهة انكسرت عيناه وأطرق. شعرت من كلام المحامين أن ثغرات القضية واسعة، تكفي لمرور بغل كبير منها في سلاسة، الشهود مضطربون في شهادتهم، متضاربة أقوالهم، يبدو أن هناك اتفاقًا خفيًّا فيما بينهم لفتح هذه الثغرة تحديدًا. تماسك عديلي بعد سماع أقوال الشاهد الثالث، اعتدلت وقفته، ارتاحت قسمات وجهه الأصفر، وراح الاستعلاء والتكبُّر يتسلقان ملامحه.

رُفعت الجلسة للاستراحة، انشغلت خطيبتي وشقيقتها به، تبادلا حديثًا طويلًا معه من خلال الأسلاك، حييته من بعيد بإيماءة من رأسي لدى مُغادرتي القاعة، لديَّ منصبي وهو حُجة كافية تكفيني للابتعاد عن القفص ومَن فيه.

وقفت خارج القاعة أُدخن سيجارة بركنٍ منزوٍ. دار بذهني حالنا وحال القضاء كله على مدار نصف قرن مضى. لماذا يظهر بيننا هذا المرتشي الفاسد كل فترة حتى ولو بعيدة؟ ما معنى أن يحضر مندوب عن هيئته التي كان يعمل بها ليُقدم مستندات تبرئ ذمَّته وهو مَن ضُبط مُتلبسًا، وكلنا كنا نعرف بفساده واستغلاله لنفوذه؟ هل يرغبون في عودته لوظيفته لو تمَّت تبرئته أم أنهم لا يُصدقون فساده؟ هل عاد صالحًا للحكم بين الناس بعدما فسدت ذمته وخرب ضميره؟! أم أنهم يؤدون واجبهم في الدفاع عنه والسلام؟!

أغمضت عيني ضيقًا فخُيل لي أنني أرى رجلًا طويلًا شامخًا ذا هيبة، يُشبه الجنرال الفرنسي شارل ديجول، يقف أمامي مبتسمًا، يتفوَّه بكلمات قليلة لا أفهم منها حرفًا لكن ابتسامته مُطمئنة، ربما حاول أن يُخفف عني، تذكَّرت مقولته الشهيرة وهو يتهيَّأ لرئاسة الدولة منذ سنوات بعيدة: "إذا كان القضاء بخير ففرنسا في أمان".

فجأة اقترب من ديجول رجال غاضبون بعصي غليظة، وولولت نساء بلا سبب، قذفه صبية بالحجارة من بعيد، ثم انهالوا جميعًا على الرجل صفعًا وركلًا وأوسعوه ضربًا، تهاوى الرجل الشامخ ببطءٍ لكنه لم يسقط بعد.

أفقت من خيالاتي وشرودي على ضوضاء بالغة بالقرب مني، فتحت عيني فوجدت أُناسًا يُمسكون بتلابيب رجل طويل يُشبه ديجول بأنفه البارز وشعره الفاحم القصير، ويتهمونه بأنه تسبَّب في سجن ابنهم للأبد بسبب شهادته، وراحوا يضربونه بالفعل. ابتسمت في ضيقٍ من أحلام اليقظة التي أصابتني، ثم ابتعلت مرارة ابتسامتي وأنا أُفكر في دولةٍ مثل فرنسا التي أصبحت على ما هي عليه الآن لأن ديجول لم يضرب قاضيًا في مكتبه مثلما حدث للسنهوري باشا في الخمسينيات عندنا، ولم يفصل ديجول آخر لرفضه الانضمام للتنظيم الطليعي الفرنسي، ولم نسمع يومًا عن إعلامي في قناة برلين اليوم يشكر القضاء الألماني النزيه، أو رجل أعمال بريطاني ينشر إشادة بالقضاء الإنجليزي الشامخ في صحيفة الجارديان، ربما لو حدث ذلك لاعتبروها جريمة لا تُغتفر، وإهانة بالغة لا يمحوها إلا سجن قائلها.

هززت رأسي أسفًا على ما جال بخاطري، انتبهت إلى أصوات أقدام بجواري وجمهور الحضور يغادرون، يبدو أن وقفتي خارج القاعة طالت دون أن أدري، أخذتني الشجون والذكريات وسراب الأمنيات، فقد رُفِعت الجلسة بعد انعقادها لدقائق مرة ثانية، وأُجِّلت القضية شهرًا لسماع بقية الشهود، وجدت خطيبتي وشقيقتها تغادران باكيتين لاستمرار حبس عديلي المتهم على ذمة المحاكمة بعدما تبخَّرت كل الآمال بقرب براءته كما توهموا.

وصلنا بيتهما وتركت السيارة دائرة، دعتني خطيبتي لتناول الغداء، تحجَّجت بأنني سوف أزور أمي، وبعدها ألتقي بعض الأصدقاء لتناول السحور معهم، فغدًا أول أيام شهر رمضان، إجازتي طالت هنا لكني لا أفعل شيئًا سوى اجترار أحزاني على نبوي الديب. قبل أن تُغادر خطيبتي السيارة أخبرتها بأنني لم أنسَ موضوع شقتنا وشراء أثاثها بالقسط لأُهدئها، لكنها أشاحت لي بيدها في لا مبالاة صريحة، ثم قالت بنبرةٍ منكسرةٍ لمَّا تأكدت أن شقيقتها ابتعدت عنَّا:

– حنأجل كل حاجة يا نادر لغاية ما جوز أختي يطلع براءة.. والا هو ممكن يتسجن فعلًا وهو مظلوم؟

– إن شاء الله.

لا أعرف على أي شيءٍ قدَّمت المشيئة، تركت لخطيبتي حرية اختيار المعنى الذي يُناسبها. تحركت بالسيارة وأنا أُردد كلمة مظلوم التي اختتمت خطيبتي بها كلامها، مَن المظلوم؟ الناس التي نُهبت حقوقها وأرضها على يد عديلي، أم هو الذي ظلم نفسه وظلمنا معه لمَّا سعى لتولي مهنة القضاء؟! قبل أن أصل إلى بيتي تلقيت اتصالًا هاتفيًّا من رئيس النيابة، أخبرني بوقوع مجزرة بشرية بالقرية راح ضحيتها أقباط كثيرون واثنان من المسلمين، أحدهما طفل عمره اثنا عشر عامًا والآخر تاجر جاوز الخمسين بقليل. ظللت صامتًا لا أجد ما أقوله، حتى لمَّا ابتعدت في إجازة عن الطايعة اشتعلت فيها النيران، لكنها هذه المرة أتت عليها بالكامل فيما يبدو، كلهم صاروا مثل ياسر

الرشيدي، غضبوا فحرقوا ثم ظنوا أنهم استراحوا والنار حتمًا ستطلب المزيد.

قطع رئيسي إجازتي، اختارني لتحقيق القضية مؤكدًا أن تلك أفضل طريقة لخروجي من الحالة النفسية التي أصابتني ولا تريد أن تفارقني، قرر أن يداويني بالتي كانت هي الداء هذه المرة.

استدعيت السائق وانطلقت للطايعة عائدًا لقدري. الساعة تُشير للثالثة صباحًا، القاهرة غارقة في أضوائها، ما إن عبرنا الجسر المؤدي إلى الطريق السريع حتى غرقنا في الظلام، أطلق السائق نفيره بلا سبب وهو يضحك، التفتُّ إلى يساري فوجدته أقلق راحة عاشقَيْن كانا يتعانقان سرًّا قرب الكورنيش. ظللت شاردًا في الجحيم الذي ينتظرني بالطايعة، السفر في تلك الساعات من الليل يُحاكي نشوة الخمر وغيبوبة المخمورين.

تمدَّدت في المقعد الخلفي آمنًا مطمئنًّا في العتمة وحيدًا مع شجوني، حفيف أوراق الشجر وهدير الريح يضبطان إيقاعي لكن صيغة الاستدعاء تقلقني، نسائم الفجر تُطيِّر إحساسي بالمكان والزمان، وهواجس الفتنة تلطم وجهي فتُنبِّهني، أشعر باقترابي من نهايات حزينة موجعة، نظرت في ساعتي، مرت خمس عشرة دقيقة بعد الساعة، لاحت الاستراحة من بعيد مضيئة بنورٍ خافت، تبدو الغيطان والمباني ناعسة لا تريد أن يوقظها أحد، فلم تعرف بعد أنني أتيت.

بدَّلت ملابسي واتجهت مباشرة إلى مكتب رئيس النيابة، ألفيته فرغ من توزيع العمل على وكلاء النيابة وبقي في مكتبه ينتظرني، مُعاينة الجثث الملقاة بالغيطان كانت من نصيبي.. لا بأس فالظرف لا يسمح بالانتقاء.

قرَّر رئيس النيابة أن يصحبني إلى المعاينة بسبب شعوره بالاختناق. قبل أن نغادر فوجئنا بضابط أمن الدولة يدخل علينا المكتب، أفهمه رئيسي بأننا على عَجَل من أمرنا، متوجهين لمأمورية معاينة لما أسفرت عنه الأحداث بين المسلمين والأقباط، فركب معنا السيارة ذاتها دون أن يدعوه أحد منَّا لمرافقتنا.

ثرثر الضابط طوال الطريق بكلامٍ كثيرٍ عن الوحدة الوطنية وإخوتنا الأقباط شركاء الوطن، كدت أصرخ فيه أن ما يقوله هو الاضطهاد بعينه لولا أن لكزني رئيس النيابة في ساقي، بعد برهة لم أتمالك نفسي والضابط يتحدَّث عن الخط الهمايوني لبناء الكنائس وربما يستغل الأقباط الأحداث لطلب بناء كنيسة جديدة كعادتهم، فصرخت فيه بغضب:

- خط همايوني إيه اللي من أيام الدولة العثمانية وبتتكلم فيه وإحنا في الألفية التانية؟! ما يبنوا كنيسة والا عشرة حيحصل إيه يعني؟

- لو سبناهم يا باشا من غير الخط الهمايوني حنلاقي جنب كل زاوية بُرج عليه صليب، ولما عرضنا عليهم قانون العبادة الموحد

علشـان ننظم المسافات وعدد الكنايس رفضوه، إحنا في مؤامرة كبيرة يا بهوات.

راح بعدهـا الضابـط يشـرح وجهـة نظـره باسـتفاضة، موضحًا أن الأقباط يتسـرَّعون في تأسـيس أماكـن للصلاة دون ترخيـص ليضعوا الحكومـة أمـام الأمر الواقع، ممَّا يُثير حفيظة المسـلمين من جيرانهم، انبريـت مقاطعًـا أن عددهـم قليـل بالمقارنـة بتعـداد المسـلمين ومن الممكـن تنظيـم الأمـر بسـهولة، ولا يمكـن أن يثـور المسـلمون مـن تلقـاء أنفسـهم إلا إذا كان هناك طـرف ثالث يُحـرك جهلاءهم، أيَّدني رئيـس النيابة في وجهة نظـري، لكن الضابط انشـغل بالرد على جهاز اللاسـلكي بدلًا من أن يرد علينا، فهمنا من حديثه أنه سيضطر لمغادرة السـيارة والذهـاب لديوان المركز لكي يسـتجوب متهميـن جددًا قبل عرضهم علينا.

انعطفنـا يسـارًا لتوصيلـه، قبـل أن يتركنـا سـأله رئيـس النيابـة عن عـدد المتهميـن الذين تم ضبطهـم حتى الآن، جاء رده بـأن التحريات توصَّلت لتحديد خمسـين متهمًا، جارٍ ضبطهم تباعًا. خمسة وعشرون من الأقباط ومثلهم من المسـلمين، قالهـا بفخر، فانفلتت مني ضحكة خافتة ثم عقَّبت:

– الله يرحم المجهول، والله أيامه كانت أرحم وأهون وأسهل.

تجهَّم الضابط وهو يرد بعصبية حاول السيطرة عليها بالكاد:

– إحنا بنحاول نعمل توازن لغاية ما الأيام الأولى تمر بسلام وبعدها نشوف، وما تنسوش يا بهوات نفوذهم برَّه مصر، ده الأمريكان أخدوا خبر بالحوادث كلها في الطايعة قبل ما نبلَّغ وزير الداخلية هنا.. الموضوع كبير مش مجرد قتل وحرق.. بلدنا مستهدف ولازم عينينا تبقى في وسط راسنا.

لكزني رئيس النيابة بشدة هذه المرة لأسكُت. ابتسم رئيسي للضابط وهو يؤكد له صحة وجهة نظره مختتمًا بالعبارة المريحة لكل مَن يُنكر الحقيقة "إن شاء الله خير"، ثم استعجل السائق بنبرةٍ عصبيةٍ ليتحرك بالسيارة.

فتحت النافذة ليضرب الهواء وجهي كعادتي كلما اختنقت، نمُر ببطءٍ بمحاذاة غيطٍ كبير، لمحت بضع بقرات وجاموستين وعشرات الأغنام ترعى بعشوائية، تضرب رأسها في الأرض بحثًا عن عشب طال قليلًا لتأكله، عدا حمار ربطه صاحبه قرب ساقية بعدما فك العصابة عن عينيه، ووضع له حزمة كبيرة من البرسيم أمامه مكافأة له على طاعته.

هززت رأسي في أسى محاولًا إحصاء عدد السنين التي ضيعها الشيخ رجب وتابعوه من عمرهم، رافعين أيديهم فيها نحو السماء للدعاء على غيرهم، متمنِّين تدميرهم وتفريقهم وحرقهم كل جمعة، يدعون عليهم وعلى آخرين مؤمنين مثلهم، والله لا يستجيب كل مرة، لكنهم مستمرون في الدعاء بغير تفكير. كيف يستجيب لكم لحرق

وتشتيت شمل طائفة لأن أخرى لا تحبها؟ أليس هو ربهم وخالقهم يا أغبياء مثلما هو ربنا؟ هل هو بحاجة لرأيكم في خلقه كي يبدله أو يدمره؟!!

يضيق صدري ولا ينطلق لساني، أنا مثل الغالبية مكتوف الأيدي، لكني أشقى أكثر بأسئلتي، يا ليتني كنت حمارًا، فهو تقريبًا الوحيد الذي لا يُترك بمفرده ليرعى ويأكل. إنما بقدر ما يُطيع، بقدر ما سيضع راكبوه الغذاء أمامه.

وصلنا منطقة الزراعات الشرقية، هبطنا من الطريق المرتفع لأحد الغيطان الذي شهد حرق أربعة عشر قبطيًّا دفعة واحدة، أفهمنا الطبيب الشرعي الذي التقانا هناك أنهم قُتلوا بالرصاص ثم نُقلوا إلى هنا تمهيدًا لمحرقة كبيرة فيما يبدو، ولولا أن الريح هادئة لتفحمت الجثث كلها، وما أمكن التعرف عليهم أبدًا.

أمضينا أكثر من اثنتي عشرة ساعة في معاينة الجثث ومسرح الجريمة، عثرنا خلالها على بقايا زجاجات حارقة وبطاقات شخصية ممزقة للمجني عليهم مُلقاة بجوارهم وفوارغ طلقات نارية.

عقب معاينة الجثة الأخيرة وسط الغيطان كنا قد ابتعدنا عن السكة العمومية بمسافة كبيرة، وكان المغرب قد حان وقته، تلفَّتنا حولنا فلم نجد سوانا، ليس معنا سوى زجاجة ماء كبيرة أنا ورئيس النيابة، كسرنا صيامنا بسرعة، لكنَّ البرد قارس والمسافة طويلة حتى الاستراحة لتناول الطعام الذي لم يكن بطبيعته مُشجعًا على الانتظار.

– اتفضلوا معانا يا بهوات بسم الله.

نادى علينا أحد المجندين المُكلَّفين بحراسة مسرح الجريمة وقد أخرج صُرَّة قماشية بها بعض الأرغفة وقطعة جبن. دعانا لمشاركته بودٍّ شديد، كان المجند شرقاويًّا فألحَّ علينا بكرمٍ حقيقي، لم نتردَّد في قبول عزومته، قدَّم لكُلٍّ منَّا رغيفًا وقطعة جُبن كبيرة، لاحظت على آخر خيط نور قبل العتمة عيدانًا خضراء زاهية في رغيفه تسر الناظرين فسألته عنها، ابتسم وبلا تردد قدَّم لي الكثير منها، مُقطعة بعناية، أخبرني أنها عيدان "فِجْلَة" قطفها من الغيط الذي نجلس فيه، غسلتها جيدًا ببقية زجاجة الماء ثم وضعتها في رغيفي والتهمته بنهمٍ وتلذُّذ. أثناء انشغالي في إعداد الرغيف الثاني بينما أمضغ بقايا الأول باستمتاع، كان رئيس النيابة يقطف عيدانًا خضراء أخرى لحشوها برغيفه، فجأة ظهر أمامنا ثلاثة فلاحين مبتسمين ببشاشة، يرفعون مصابيح إنارة قوية، يتقدمهم كبيرهم عمدة الطايعة مُرحبًا بنا بلهجةٍ صعيديةٍ أصيلةٍ قائلًا:

– منورين غيطان "البرسيم" يا باشوات.

*****

22

حتى الموت لم تعُد له قداسة. لمَّا مات الخفير نبوي الديب رفضت الكنيسة الصلاة عليه لحمله بطاقة مسيحية مزورة، ومن قبلها رفض الشيخ رجب الصلاة عليه أو السماح بدفنه بمدافن المسلمين متحججًا بالبطاقة المسيحية ذاتها، فلا يوجد لديه ما يدل على إشهار إسلامه مرة ثانية. حار رمسيس يومها بجثمان نبوي بين الجامع والكنيسة، حتى تدخَّل نادر بك وكيل النيابة وأصدر تصريحًا بدفنه في مدافن الصدقة، وصلوا عليه في الخلاء.

مثلنا مثل بهائم نفقت على الطريق، فلما حار بها صاحبها أشار له الناس ناحية الترعة، فلا أحد يهتم بدفنها. اليوم ذهبت مع فريال زوجة المرحوم صمويل لاستلام جثته مع آخرين من الأقباط من أهل القرية ماتوا أثناء الأحداث، المفاجأة أننا علمنا بوجود جثمان التاجر المسلم في صندوق خشبي مثلها مثل جثامين الأقباط الآخرين في بيت بولس سمعان.

انبرى أحد الحاضرين زاعقًا بأن الميت مسلم كما أكد أبونا بالكنيسة، ثم قلب الصندوق بعصبية ليسقط الجثمان على الأرض،

الغريب أن الواقفين لم يستنكروا ما حدث، أدرت وجهي فلا أحتمل رؤية جثة وأيضًا محترقة، اتصلوا بالكنيسة فأمرتهم بتسليمه للمركز أو المسجد والانصراف في هدوء بدون مشاكل، رفض الشيخ رجب الصلاة عليه واحتشد مع رجاله بالمركز رافضًا تسلُّم الجثمان من الأساس بحجة أنه لا يعرفه وربما كان قبطيًّا، وأن ما نفعله "ملعوب" منَّا!

ألححنا على الضابط كي يُسلِّمنا جثة صمويل فقط، فلا شأن لنا بالمسلم الذي قُتل، لكنه صمَّم على تسلُّم الشيخ رجب لجثة التاجر المسلم أولًا ومن بعدها يتم تسليم جثامين الأقباط، وأصدر أوامره بنقل الجثث كلها للمشرحة مرة ثانية.

جلسنا أمام المركز انتظارًا للفرج، بعض النسوة يولولن، زوجة صمويل تنتحب، بعضنا ذهب للكنيسة للتدخُّل والإفراج عن موتانا لكنهم لم يتحركوا. مرَّت ساعتان حتى وصلت سيارة بها الطبيب الشرعي ومعه آخرون، علمنا أن شقيق التاجر المسلم المتوفَّى جاء لإنهاء إجراءات تسلُّم الجثة بعدما تعرَّف عليها بالمشرحة، تهلَّل وجهنا وانفرجت أساريرنا فسوف يتم تسليمنا تصريحًا بدفن جثمان صمويل الآن.

حلَّ بي التعب بسرعة، أصبحت لا أستطيع الوقوف طويلًا في الأسابيع الأخيرة، فجلست فوق قفصٍ من جريد، لكني رأيت فجأة.. خِضر زوجي!

جزعت كأنني أرى شيطانًا، فركت عينَي غير مصدقة، لا تفصلني عنه سوى بضعة أمتار وهو يترجَّل من السيارة، حاولت النهوض فلم تقوَ ساقاي على حملي، شعرت بدوار شديد فترنَّحت، سمعت صوت خِضر وهو ينوح:

- الله يرحمك يا هلال يا أخويا..

تلفتُّ حولي، وقعت عيناي على الجثمان.. هلال هو الميت.. هل ضاقت الدنيا كلها حتى يحتمي تاجر الكليم المسلم ببيت قبطي فيُقتل معه؛ لأجد شقيقه خِضر حيًّا أمامي مرة ثانية بسبب رفض الشيخ رجب دفن هلال؟!

مَن الذي قتل القطة كما قال أبونا؟!

التفتَ خضر نحوي، برقت عيناه ببريقٍ مُريبٍ وأخذ فمه يتسع، تعلَّق رذاذ أبيض بطرفي شفتيه ثم انقضَّ عليَّ ككلبٍ مسعور، مُمسكًا برقبتي صارخًا:

- الولية دي مراتي.. السِّت القبطية دي لسه على ذِمِّتي.

ظنوه مخبولًا لكنه ازداد إصرارًا، حاول الناس تفريقنا لكنه ظل ملتصقًا بي يضغط بيده على رقبتي وأنا أتنفس بالكاد، ضربه بعضهم على ظهره وحاولوا الدخول بيننا لإبعاده، لكنه ظل يضغط أكثر ممسكًا بيده الأخرى بذراعي ثم طرحني أرضًا، انشقَّت الأرض فجأة عن رمسيس وبيده جريدة نخل، لدهشتي راح يُلهب ظهر خِضر بها وهو

يسبُّه ليتركني، صرخ خِضر متألمًا حتى خرج ضابط المركز وعساكره إثر الصياح والجلبة، فابتعد الجمع كله خطوات عديدة للوراء.

اقتادوني وخضر للداخل ببطء، وسط تجمُّع بشري يضرب كفًّا بأخرى وينسج عشرات القصص كالعادة، عدا رمسيس الذي طمأنني بأنه سيُرسل لي محاميًا. فات الأوان وحدثت الجُرسة لمَّا زاد تجمُّع المارَّة وعلا الصياح، انهمرت الفتاوى ومحاولات فض الاشتباك، خلصونا بالكاد، داخل المركز اتهمني خِضر فقط بالزنا، لم يُشر من قريب أو من بعيد لمحاولتي قتله بحجر على رأسه، نظراته لي تشي بأنه يؤجِّل عقابي على محاولة القتل لأجلٍ قريب، سيقتص مني بيديه فيما يبدو، أما الآن فكل ما يريده أن ينتزعني من زوجي.

أخرج بطاقته العائلية المدون بها بياناتي من جيبه بيدٍ مرتعشة، صدره يلهج بسرعة، شفته السفلى تدلَّت قليلًا، لُعابه يسيل على أحد جانبي فمه فيمسحه بطرف جلبابه، ليعلو صوته مطالبًا بحقه فيَّ.. في جسدي.. في روحي التي كادت تموت. يبدو أنني لم أتحمل أكثر، فقد سقط من ذاكرتي بقية المشهد بالمركز.. ومن المؤكد أنني فقدت الوعي.

أفقت لأجد نفسي مفترشة الأرض بحجرة المأمور، بجواري سيدة مسلمة من جيراني، لكني للغرابة لا أتذكر اسمها، قدَّمت لي شربة ماء وبعض الطعام لم أستطع أن أقربه، شعرت بالألم يضرب جنبات بطني، طلبت عرضي على طبيب المستوصف، رفض الضباط بحجة

عرضي على النيابة المسائية أولًا، علا صوت خِضر من خارج الغرفة وهو يُهدِّد شخصًا آخر معتقدًا أنهم هرَّبوني من المركز.

انفتح باب الغرفة ليراني دون أن يسمحوا له بالدخول، طالني سبابه فأبعدوه، بدا مثل كلب مسعور وهم يجذبونه للوراء، أخرجوني لمَّا هبط الظلام، ركبت سيارة المركز وذهب خِضر في سيارة أخرى، وضعوا عليَّ حراسة مُشدَّدة، طوال الطريق لم أتوقف عن البكاء، مررنا بالكنيسة، بدت لي بعيدة ببرجها العالي وصليبها الكبير، صار الحزن كفنًا يُغطيني وشعرت بأنني فقدت إنسانيتي، لم أعد أستطيع الصبر، روحي تتسرب مني ولا يتبقى سوى الحطام.

مثلت أمام نادر بك بسراي النيابة، سمح لي بالجلوس فتهاويت على أقرب مقعد، قبل أن يفتح محضره بالسؤال المعتاد عن اسمي وسني وعملي طلب من سكرتيره جرجس أن يغادر الغرفة، قدَّم لي كوب ماء وابتسم في هدوءٍ طالبًا مني أن أحكي له الحقيقة كلها إن أردت أولًا، وعدني أنه لن يكتب في محضره إلا ما سوف أقوله رسميًّا.

خرجت مني تنهيدة تحمل حيوات مبعثرة عشتها، وآلام تنوء بها روحي قائلة:

– ماعدش ينفع خلاص يا نادر بك.. الخلاص دلوقتي إني أقول الحقيقة كلها وفي المحضر، بس قبلها ليَّا عندك طلب واحد بس، وأبوس إيدك توافق عليه..

- خير يا ست هدى؟

- لو حتحبسوني ودِّيني المستشفى.

- خير بتشتكي من إيه؟

- أنا حامل يا باشا من رِزق.. وأمانة عليك ما حد يعرف.. خصوصًا خِضر.

*****

23

تضطـرب سـاعتي البيولوجيـة فـي شـهر رمضان، أنشـط طوال الليل كوطواط، وفـي النهار أُصبح خاملًا مثل جوال مملوء بالرمل. ارتديت ملابسـي في كسـل، فقـدت الكثيـر مـن حماسـتي تباعًـا خاصة وأن السـنة القضائيـة قاربت على الانتهاء، لـم أعُد مقتنعًا بكلمات رئيس النيابة وحججه بأنني عرفت طبيعة العمل وسـيكون العام القادم سـهلًا، أضغاث أحلام لا شـك، لقد رأيت هنا ما لم أرَه، ولا أحسـب أنني سأصادفه مرة ثانية في حياتي، إن كان في العمر بقية.

هبطـت الدرج كأنني أهبط قبرًا، اليوم جلسـة الجُنَح التي تُنظر فيها قضية هدى حبيب بالمحكمة، لسـت راغبًا في حضور مشـهد النهاية، لـم تعُـد أعصابي تحتمـل المزيد من الاحتـراق لكننـي مضطر، لأول مـرة أشـعر بتأنيب ضمير علـى قضية حقَّقت فيها، يا ليتنـي ما حققتها، كان مـن السـهل عليَّ الاعتذار عنها، لكن شـيئًا ما دفعنـي دفعًا لتوليها حتـى قدمتها للمحاكمة، ليس الفضـول، ولا الرغبة في تحقيق العدل، إنمـا فقـط الدفاع عن حقها فـي الحياة، لن يتعاطـف معها أحد غيري،

ولا أدري سببًا محددًا لهذا الشعور الذي تملكني ولا يزال يحركني حتى الآن.

حاولت عبثًا استبعاد رِزق زوجها من الاتهام، لكن تحريات الشرطة أمسكت العصا من المنتصف، أفادت بأنها لم تتوصل لحقيقة الواقعة ومدى علمه بوفاة زوجها من عدمه، لم تؤكد التهمة ولم تنفها عنه، بالطبع العدالة عمياء، والقانون يُملي على أذنيها نص الجريمة التي ارتكبها رِزق، لتُشير له بأصابع الاتهام وهي مطمئنة، اشتراك في جريمة الزنا، تحوَّل شريك الحياة الذي لا يعرف أنها متزوجة إلى شريك في جريمة من أحطِّ جرائم قانون العقوبات، ربما لو اتهمناه بالقتل لكان أهون عليه، على الأقل لم أتخذ قرارًا بحبسه على ذمة القضية وهذا أضعف الإيمان.

على باب الاستراحة وجدت رمسيس ينتظرني، اقترب وحيَّاني وهو يُقدم لي ظرفًا كبيرًا بيدٍ مترددة، لم أمد يدي إنما سألته عن محتواه، لم يرد مكتفيًا بذراعه الممدودة المرتعشة وإطراقة أقرب للندم منها للاحترام. فضضت الظرف بفضول، وجدت به الصفحات المنزوعة من دفتر الحيازة الذي أُرسل لي بالبريد من قبل على مكتبي، تصفَّحتها في دهشةٍ ثم رفعت عيني نحوه سائلًا باستنكار:

- والظرف ده وصل هنا بالبريد يا رمسيس؟

- لأ يا باشا.

قالها وظل مطرقًا ولم يزد.

كنت أريد سؤاله عن ضابط أمن الدولة وعلاقته به، وعمَّا إذا كان هو الذي أخرجه من الحجز وقت حبسه وتركه ينام في الاستراحة، عن الحيازة الزراعية للأقباط وحوادث الحرق وكرات النار، لكني تلعثمت فجأة بلا سبب، اضطرب لساني بدون مبرر، ورُحت أُردِّد كلامًا غير مفهوم كمَن يهذي، لكني في نهايته قُلت جملة واحدة مسموعة بوضوح: " ظابط أمن الدولة "

هَزَّ رمسيس رأسه بالإيجاب بعدما تلفَّت حوله في قلقٍ قبلها.

طويت الأوراق مكتفيًا برده على ما لم أقله، استقللت السيارة لكن قرب البوابة أمرت السائق بالتوقف، التفتُّ نحو رمسيس وأشرت له، اقترب مهرولًا، تفرست فيه طويلًا ثم قلت وأنا لا زلت متوترًا:

- دي آخر حاجة والا لسه في الجراب يا حاوي؟

- صدقني آخر حاجة، وحاحكي لك بالأمانة عن الناس اللي ماتت ومين قتلها من الأقباط، والأرض اللي خدناها، واللي سعادتك حتحكم بيه عليَّا أنا راضي به، لكن والمسيح الحي أنا عبد المأمور وعمري ما مدِّيت إيدي على حد ولا قلت لحد اقتل ولا احرق.. بالصريح.

وصلت إلى مبنى المحكمة، توجَّهت إلى غرفة رئيس النيابة مصطحبًا رمسيس معي الذي أفاض بالحقيقة طوال الطريق، أمرته بحمل ظرف أوراق الحيازة المنزوعة من الدفتر بيمينه، وضعها أمام رئيسي ووضعت ساقًا فوق أخرى بينما تراجع رمسيس خطوة حائرًا،

لاحظت أن جفنه يرتعش وإن بدا متقبلًا عقابه أيًّا كان. بداخلي اعتقاد ينمو ببطء أنه قد تغير بعد موت أخيه، ربما أدرك أن مَن كان يمد له يده من قبل لم يكن يريد مساعدته، إنما كان يجذبه ليُجبره على السير خلفه، يبدو اليوم وقد تحرَّر من قيوده، فقط يحتاج لدفعة أخيرة نحوي ليعترف ويتطهر من ذنوبه كلها.

قرأ رئيس النيابة الأوراق بعناية، ثم جال ببصره بيننا سائلًا في دهشة:

- الأوراق دي كانت عند رمسيس طبعًا يا نادر بك وهو اللي ورا بيع الأراضي دي كلها للأقباط مش كده؟

تأمَّلت رمسيس، وجدت عينيه متعلقتين بشفتي، وكفيه ترتعشان، أدرت وجهي لرئيس النيابة قائلًا بحسم:

- لأ يا فندم.. الأوراق وصلتني النهارده على الاستراحة بالبوسطة زي المرة اللي فاتت وأنا جبت رمسيس معايا علشان لو سعادتك حابب تستفسر منه عن حاجة فيها، لأنه يعرف المشترين وظروفهم، والأهم إن عنده كلمتين مهمين عن حوادث قتل قديمة أظنه عاوز يقولها ويريح ضميره .. بس الأكيد إن الظرف ده حيكون آخر حاجة حتوصلنا بالبوسطة، مش كده والا ايه يا عم رمسيس؟

ظهرت الابتسامة الصفراء بالكاد باهتة على ملامحه وهو يحلف بأغلظ الأيمان إنها الأخيرة.

توجَّهت إلى غرفتي وتركت رمسيس يحكي قصته لرئيس النيابة، لعلَّه يُدرك أحد المجهولين الذين لم نستطع إدانتهم. فرشت أوراق قضية أحداث الطايعة كلها على سطح مكتبي، عشرات الملفات ومئات الأوراق أمامي، سألنا شهودًا واستجوبنا متهمين، أخذنا أقوال الضباط والأهالي الذين لم يروا شيئًا والذين رأوا أيضًا، ومع ذلك أفاضوا جميعًا في شهادتهم، سألنا غيرهم من المصابين فأدموا قلوبنا حزنًا على حالنا.

لم أعد أرى أقباطًا ومسلمين، رأيت مهووسين متعصبين من الجانبين، يعيشون في جحيم طوال حياتهم، فقط ليُثبتوا لتابعيهم أن الآخرين لن يدخلوا الجنة في الآخرة. طويت أوراقي وراحت الأسئلة تتقافز أمامي.. مَن الذي نزع الرحمة من الأولين واستبدل القسوة بالمحبة لدى الآخرين؟ ما قيمة أن تُكفِّر غيرك وتشغل نفسك بمصيره في الآخرة وتنسى أن تعيش دنياك في سلام؟

انتشلتني من شرودي ثلاث طَرَقات على باب مكتبي أشبه بدقات المسرح الشهيرة، ثم وجدت ضابط أمن الدولة أمامي يختال في مشيته مع أن مظهره ينُم عن أنه لم ينم منذ أيام، تهاوى على أقرب مقعد، فرك عينيه حتى كاد يُخرجهما من مقلتيهما، ابتسمت وأنا أتساءل بيني وبين نفسي، إذا كان يفعل ذلك في عينيه فما بالنا بعيون الآخرين؟ نظر لي بدهشة ثم طلب مني فنجانًا من القهوة وهو يُخرج علبة سجائره من جيبه، اتسعت ابتسامتي قائلًا:

- رمضان كريم يا باشا.

ارتبك وأعادها لجيبه في حرج، راح يشكو من اختلاط الأيام وساعات الليل والنهار بسبب كثرة العمل، تركته يُخرج كل ما في جوفه ثم سألته عن سبب زيارته في برود، لم أكن راغبًا في مناقشات عقيمة كالمعتاد، فاجأني بأن لديه محاضر تحريات مهمة تُحدِّد الجُناة في حوادث سابقة، انتبهت له وهو يُرتِّب أوراقًا بعناية داخل ملف كرتوني أحمر ثم وضعها أمامي، قرأت ثم ضحكت ضحكة مكتومة، بالطبع وصله أمر اعتراف رمسيس أمام رئيس النيابة وكان لا بد له من تدارك الموقف حتى لا ينقلب عليه، طويت الأوراق ونحيتها جانبًا فقال الضابط مُستغربًا:

- إيه يا نادر بك.. في حاجة مش مظبوطة في المحاضر؟

- لا أبـدًا بالعكس.. المجهول اللي ارتكب كل الحوادث قبل كده عرفتوه ما شاء الله، وحددتوه بدقة، المجرم "خليفة" موجود أهو.. له اسم ثلاثي ومحل إقامة.. بس يا خسارة الحلو ما يكملش، الله يرحمه مات في مواجهة مع قوات الشرطة من فترة وهي بتطارده في الجبل وماعرفتوش أنه خليفة وقتها.. البقية في حياتك يا باشا.

قام الضابط واقفًا بصعوبة وهو يتثاءب ثم قال بهدوء:

- أنا عملت اللي عليا يا نادر بك، المَحاضر كلها مُسدَّدة عندك بمتهم، مفيش قضية واحدة ضد مجهول، إحنا كده دورنا خلص.

– طيب وبالنسبة لأحداث الطايعة مفيش متهمين تانيين والا خليفة حيشيل بقية المحاضر برضه؟

لـم يـرد الضابط، إنمـا اقترب من النافـذة وظل يتابع باهتمام شـيئًا ما لا أراه من مكاني ثم التفت ناحيتي قائلًا:

– علـى الأقل أنـا مرتين قلت لمعاليك حاجتين صح، اسـم خليفة الثلاثـي، وبعدها لقينا جثتـه بعد ما قاوم واضطرينـا نتعامل معه وطلع هو فعلًا لما اتعرَّفنا على الجثة ولقينا البطاقة، يعني بقى حقيقة واضحة زي الشمس مش مجرد بيانات والسلام.

– السـاعة العطلانـة برضه ممكن تدِلَّك علـى الوقت الصح مرتين كل يوم.

ابتسم الضابط لأول مرة رغم سخريتي من كلامه واستمر ينظر عبر النافـذة، لا أعـرف لماذا خطر في بالي الآن أن أسـأله عن عدم تسـليح الخفيـر نبوي الديـب رغم أن حياتـه كانت مهددة، أجابنـي بأن أغلب الخدمـات العاديـة بالطايعـة بلا ذخيـرة، بعـد انتحار خفيـر ومن قبله عسـكري من الأمن المركزي خلال الأعوام الخمسة الماضية، فصدر قرار بمنع التسليح إلا للضرورة القصوى والخدمات المهمة.

تعجَّبـت من منطقه لكنه ظل ينظر عبر النافذة ويبتسـم، ثم رفع يده لي بالسـلام محييًا وخرج دون أن ينطق كلمة واحدة، قمت من مكاني واقتربـت مـن نافذة الغرفـة لأرى هذا الشـيء الذي لفـت انتباهه وهو

يتكلـم معي، فوجدت أمامي غيطًا واسـعًا في وسـطه خيـال مآتة كبير تأكل الطير من رأسه.. فلم أستطع الابتسام.

*****

- محكمة..

دخلنـا القاعة يسـبقني القاضـي بخطوةٍ واحدة، من خلفي بمسـافة كاتـب الجلسـة كان مهرولًا كالعـادة، ترتيب قضية القبطيـة كما أطلق عليهـا أهـل القرية الأخير في "رول" الجلسـة، تهمتها "زنا زوجة" كما هو مدوَّن على ملف القضية بخط رديء. سـألت نفسـي بدهشة: كيف تكـون زانيـة مَن تحب وتتزوج بعـد موت زوجها وتريـد أن تعيش في سلام؟! لكن القانون لا يعرف الدهشة فيما يبدو.

القاعة ممتلئة عن آخرها حتى إن هناك عشرات الواقفين في نهايتها. أهالي القرية مُمثَّلون في القاعة تقريبًا بالكامل، راعت شرطة المحكمة المسـاواة بينهـم، ففرَّقتهم مثل جماهير الكرة، جلس المسـلمون على يميننا وبقي الأقباط عن يسارنا، انتشر جنود الأمن المركزي في الممر الفاصل بينهما، ظهورهم لنا وعيونهم على الحاضرين.

فاجأنـا القاضـي بنظـر قضية هدى حبيب فـي بداية الجلسـة، ربما ليفض هذا الجمع من أمامه عقب نظرها، فلن يهتم الحضور بعد ذلك بقضية مُسـعد الذي سرق جاموسة جاره التي تشاركا فيها وحجب عنه لبنهـا بحجـة أنها فحل جامـوس، أو اتهـام أبانوب بالسـرقة عندما نثر

حبوب القمح أمام حظيرة دجاج جارته فانسابت الفراخ خلفه حتى باب داره، فاختار أكبرها لتكون وجبة لأطفاله، ثم أنكر السرقة وراح يُلقي اللوم على الدجاجات، فضلًا عن قضايا زراعة البصل.

نُودي على المتهمة، التفت الجلوس جميعًا ناحية قفص الاتهام، وقفت هدى لمَّا سمعت اسمها، ممصوصة صفراء الوجه كأنها مسلولة، ترتدي جلبابًا أبيض وطرحة من اللون ذاته، رغم حجزها بمستشفى المركز طوال الفترة السابقة بسبب حملها، لم أكن أنوي حبسها لكن التحريات الشرطية نبهتنا إلى خطورة الإفراج عنها على حياتها، فالجميع يترصدها، الكل بات كارهًا لها، وربما يقتلها أحدهم دفاعًا عن الدين كما يظنون، صارت مثل الأجرب بعدما كان بيت القبطية قِبلة المسلمين قبل الأقباط ليتبركوا ببركتها، لكنها أصبحت دجَّالة.. زانية.. والآن كافرة.

سألها القاضي عن التهمة المنسوبة إليها، لدهشتي أومأت بالإيجاب، يبدو أنها لم تفهم السؤال، لكن القاضي لم يُراجعها، دوَّن بمحضر الجلسة أنها معترفة بجريمتها، نادى الحاجب على رِزق زوجها فلم يتلقَّ جوابًا، عاد القاضي يسأل هدى إن كانت تريد أن تقول شيئًا، فأومأت لمرات متتالية، سكتت القاعة كلها، ساد السكون حتى كدت أسمع مجرى الدمع على وجنتيها وهو يُدميها.

تكلَّمت هدى فهزَّتنا.. روت تفاصيل حكايتها بشجاعة، اتسع صدر القاضي رغم كل محاولات محاميها للمقاطعة كي يُسكتها،

حتى لا تُصعِّب مهمته أكثر، لكن القاضي لم يلتفت إليه. استمرت هدى تحكي تفاصيل معاناتها مع خِضر وسعادتها مع رِزق كأنها ترسم لوحة عن زوال الليل وبزوغ نور النهار، فجأة سمعنا ضوضاء بنهاية القاعة، طرق القاضي بالدُّقماق ثلاثًا فسكتوا، وجدنا خِضر زوجها الأول يحاول دخول القاعة والشرطة تمنعه، سمح القاضي له بالجلوس بأول صف، لكنه لم يسكت وظل يُبرطم بكلمات كثيرة لم نفهم منها سوى سبِّه للأقباط.

حذَّره القاضي من الكلام والمقاطعة وإلا أدخله القفص فخرس صوته، ما كادت هدى تستأنف كلامها حتى علت همهمات أخرى، دخل رِزق زوجها الثاني على كُرسيه المتحرك وشقيقته تدفعه، توقَّفتْ به في منتصف القاعة وهو يتبادل مع هدى نظرات حانية، أشار له القاضي ليتقدم إلى الصفوف الأولى، سبقه محاميه وأثبت حضوره مُقدِّمًا أوراقًا طبية تُثبت عجز موكله عن الكلام، أشار له القاضي بالجلوس بأول صف بدلًا من القفص، لكنه انسحب مع شقيقته لمنتصف القاعة رافضًا الاقتراب من موضع خِضر الذي حافظ على ابتسامة بلهاء ونظرة حائرة بلا معنى. ظل خِضر يلتفت ناحية رِزق كل فينة وأخرى، يُتمتم بكلماتٍ ويُبرطم بعباراتٍ وهو يرفع رأسه للسقف، يبدو كمَن يدعو على آخرين، نبَّهه القاضي للمرة الثانية بأنه سيضعه في القفص للإخلال بنظام الجلسة وسيحكم عليه بأربعة وعشرين ساعة حبسًا.

تلاقت عيناي بعيني هدى، لمحت نظرة فزعة تطل منهما، ربما جال بخاطرها أن القفص سيجمعها بخِضر، شفتاها تتمتمان بسرعة غريبة، ربما تدعو أن يهدأ خِضر ولا يُشاركها قفص الاتهام، لكن حدث ما لا نتوقعه.

هَبَّ خِضر فجأة مندفعًا كالثور الذي أفلت من قيد عقله باتجاه رِزق، تمكَّن الحرس من صَدِّ هجمته الغاشمة في آخر لحظة وسيطروا عليه، على الفور أمر القاضي بإيداعه القفص وحبسه، انهارت هدى على الفور وسقطت. تدارك القاضي الموقف بتصرُّف ذكي وأمر بإخراجها من القفص لتُكمل كلامها وسطنا. وقفت تدافع عن نفسها، تفصلها قضبان حديدية صدئة عن خِضر المحبوس خلفها وهو بارق العينين. شعرتُ لوهلةٍ بطائر العدالة يُحلِّق فوقنا، تلك نهاية عادلة تُرضي الجميع وكل منهما يقف في موضعه الذي يستحقه.

انتهت هدى من روايتها وهي تؤكد على إمكانية هروبها من الطايعة لمَّا رأت هلال لأول مرة، مثلما هربت من قريتها منذ شهور طويلة، لكنها اختارت ألا تكون مثل الجبناء، فلم تشد الرِّحال دون رجوع. قالت إنها لا تطلب سوى محاكمة عادلة لمرة وحيدة في حياتها، سئمت العيش في المسافة الفاصلة بين الحلم والحقيقة، بين الظلم والمساواة، لا تريد سوى العدل، خوفها لا يزال مخبَّأً بين ضلوعها ولا تريد أن تنقله لأطفالها القادمين للدنيا، أشارت لبطنها ونظرت بعينين باكيتين نحو رِزق، ولم تُكمل كلامها، فقد سبَّها خِضر في تلك اللحظة وحاول جذبها من ذراعها بيده عبر القضبان لكنه لم يفلح، فصرخ:

– اللـي فـي بطنهـا ده ابنـي يا حضـرة القاضـي، لمَّا هرِبـت كانت حِبلى.. أنا عاوز حقي في ابني ومراتي يا حكومة!

أسـكته القاضـي بصعوبـة حتـى سـاد الهـدوء، ثـم التفـت نحوي سـائلًا عن طلبات النيابـة العامة. وقفت ونظرت في وجوه الجالسـين المُتنمِّريـن، لا أُصدق أن كل هؤلاء يحاكمون امرأة كل ذنبها أنها تريد الحياة.. ما كل هؤلاء الأراذل الذين لا يرحمون؟ ما كل هذه الشـماتة التي على وجوههم؟ ما كل هذا الغل والتشفي في ضحية بائسة؟ دوري قارب على الانتهـاء، ومصير هدى الآن بين يدي القاضي مهما وقفت في صفها.. وكيف أفعل وأنا سلطة الاتهام؟!

ثار في ذهني السؤال الذي لم أجد إجابة عنه منذ بداية التحقيق في قضية القبطية، هل الدين والقانون في خدمة المجتمع، أم أن المجتمع والقانون هما اللذان في خدمة الدين؟!!

نبَّهنـي القاضـي إلى ضـرورة أن أتكلم بعدما طالـت وقفتي صامتًا أتفـرس في الوجـوه المتعلقة بي فـي تحدٍّ لا يفهمه، لم أسـتطع ترديد العبـارة النمطية التي نرددها في كل المحاكمـات "النيابة تطلب تطبيق مواد الاتهام".

ابتلعت ريقي بصعوبة، وقُلت بصوتٍ عالٍ حتى تسمعني هدى:

– النيابة تفوِّض الأمر للمحكمة.

عَلَت الدهشة وجه القاضي ولم يُعقِّب، ارتاحت قسمات المحامي المُنتدب عنها وهو يستهل مرافعته، فالعبارة التي قُلتها تعني أن النيابة تطلب البراءة أو عقوبة مُخفَّفة للغاية تترك للقاضي حرية تقديرها، تلتمس منه رحمة ورأفة لم تقدر هي على تطبيقها.

جلست وأنا أتصبَّب عرقًا مع أنني لم أقُل سوى كلمات قليلة، أكاد أسمع ضربات قلبي، طوى القاضي أوراق القضية بعدما استمع لمحامي رِزق أيضًا، نظر صوب خِضر أولًا ثم نقل بصره إلى رِزق، كلاهما يُغمغم بكلامٍ غير مسموع، التفت القاضي ناحية هدى وناداها بصوتٍ خفيضٍ فهبَّت واقفة، بعدها علا صوته قائلًا:

- الحكم آخر الجلسة.

*****

24

مـددت أصابعـي مترددة، تلامسـت مـع باطن كف رِزق، أطبق عليها في وهن، التفتَ ببطءٍ ناحيتي، لاحت نصـف ابتسـامة بالـكاد مـن بيـن شـفتيه المضطربتين، انحدرت دموعي أسفًا على حاله وما سبَّبته له، همست له بأنني لم أكن أعرف أن خِضر ما زال على قيد الحياة ولم أقصد قتله، هزَّ رأسه محتفظًا بالابتسامة الخافتة ظاهرة بوضوح لتُطمئنني.

يؤلمني أنني لم أستطع قول الحقيقة كاملة، لكي أهرب من جريمة الزنـا التي اتُّهمتُ بها يجب أن أعترف بمحاولتي قتل خِضر واعتقادي بأنه مـات بالفعل وإلا لمـا تزوَّجت من رِزق، فـي التحقيقات أخبرت نادر بك بما حدث، نظر لي وقتها في دهشةٍ لكنه تظاهر بأنه لم يسمع حرفًا ممَّا قُلت، لم يُثبت شيئًا بمحضره عن محاولتي قتل خِضر، اكتفى بإنـكاري لجريمـة الزنا، تـرك الحقيقة ناقصة حتى لا تسـطع شمسـها وتحرقني، فظلل عليَّ بتجاهلها.

أغمضـت عينَـي معتصرة بقيـة الدمع الذي لا يكف عـن الانهمار، توجَّسـت كثيرًا مـن كلمات نادر بـك بتفويضه لأمرنا إلـى المحكمة،

لماذا تغيَّر موقفه منَّا و تخلَّى عنَّا بسهولة؟ لماذا تركنا وحدنا للقاضي نواجه مصيرنا ولم يُدافع عنَّا؟ هل يريد أن يذبحنا غيره وينفض يديه من دمنا؟! لا أظن.

اعتدلت في جلستي كزاوية قائمة ونظرت نحوه وهو يغادر القاعة خلف القاضي، يسير مُطرقًا في أسى، يبدو نادمًا لكني لا أفهم شيئًا ممَّا يدور حولي، القاعة تحوَّلت إلى سوق، الضوضاء عالية.. الكل يتكلم في آنٍ واحد، لا أحد يسمع غيره، الوجوه غاضبة والأيدي تلوح في عصبية، أجلس بجوار رِزق في نهاية القاعة وبجواري عسكري هزيل يكاد يغلبه النعاس كل برهة، من الناحية الأخرى يقف زميله متراخيًا على مقربة من مقعد رِزق، يبدو أنهما تيقَّنا من عدم قدرتنا على الهرب من مصيرنا، يحيط بنا من الأمام أكثر من عشرة مجندين بملابسهم السوداء، مُسلحين بالعصي، متشابكي الأيدي، نرى القاعة والحضور من خلال المسافات الفاصلة بينهم، شكَّلوا بأجسادهم سياجًا أشبه بقضبان غليظة حالت بيننا وبين أهالي الطايعة، لا نعرف مَن منَّا المحبوس، ومَن منَّا الخائف من الآخر أكثر.. فرَّقونا عن بعضنا، لكننا مبتعدين من داخلنا منذ زمنٍ بعيدٍ على ما يبدو ونتظاهر بغير ذلك.

- محكمة..

قالها الحاجب بصوتٍ جهوري كأنه يُهدِّدنا، لكنه بثَّ الهيبة في نفوسنا فوقفنا جميعًا عدا رِزق، جلس القاضي على منصته بينما بدا نادر متوترًا بعض الشيء وهو يتخذ مكانه أقصى اليمين، انسابت

أصابعي من كف رِزق بعدما ابتلَّت عرقًا، لكنه بسط كفَّه وهو ينظر نحوي فأعدتها مسرعة وأمسكت بها بكلتا يدَي، نطق القاضي باسمي أولًا ثم أتبعه برِزق دون أن يرفع بصره إلينا، ثم قال بنبرةٍ حاسمةٍ وهو يُثبِّت عينيه على منتصف القاعة:

- حكمت المحكمة حضوريًّا ببراءة رِزق ألفي حكيم من التهمة المنسوبة إليه، وبحبس المتهمة هدى يوسف حبيب سنة مع الشغل وغرامة مائتي جنيه.

سكت القاضي لبرهة من الوقت طالت لكن لم يجرؤ الحضور على خدش قداستها، ثم أردف:

- مع إيقاف التنفيذ.

*****

لم أعد أستطيع العيش في الظل، حياتي كلها على هامش السعادة والاستقرار، هاربة دائمًا من أشباح كثيرة، فقر وظلم وقهر واضطهاد، وهي لا تتوانى عن مطاردتي وتلحق بي دومًا، لماذا يتعامل معي القدر كنَبْتةٍ رقيقة، يُطلق رياحه نحوي كل حين لتتلاعب بي؟ هل لو انقلبت حجرًا صلدًا بلا مشاعر لكان حالي أفضل ولنعمت بالاستقرار؟

صِرت وحيدة.. منبوذة، أخجل من نفسي إذا ما رآني أحد أثناء سيري بالطريق، أخاف إذا ما ظهر ظلي على واجهة المحلات بالنهار، أو إذا مررت تحت فوانيس الشوارع ولمبات الحارات بعد الغروب

فيلمحون خيالي.. لا شيء يُغرِق همومي ويبتلعها بعدما أنهكني التعب وأذلَّني الناس، الوحيد الذي قبل استضافتي هو نادر بك وكيل النيابة، سمح لي بالمبيت في المبنى الصغير بجوار استراحة رمسيس الذي كان مُخصَّصًا للخفير نبوي، حتى صار قِبلة الغرباء والتائهين.

تأهبتُ للخروج خفية، تسلَّلت من وراء أشجار الاستراحة ومضى خلفي كلب رمسيس صامتًا، لم يشعر بأنني غريبة، لم يُخِفْنِي أو يُهاجمني، وربما صحبني ليُطمئني. جلست على ضفة النهر وتركت الماء يُداعب قدمَي، أمواج النيل الصغيرة تنكسر بهدوءٍ قرب الشاطئ، تسجد بخشوعٍ لخالقها، مُطلِقة تنهيدة طويلة كأنها تُعبِّر عن آلامها قبل أن تلفظ أنفاسها الأخيرة. انتابتني نوبة ضحك هستيرية ثم بكيت بشدة، أمسكت رأسي بكلتا يدَي حتى لا ينفجر دماغي، أردت أن أرد عليهم يوم المحكمة، أن أقول شيئًا بعد صدور الحكم الذي ربما لم يعجب أحدًا سوى رِزق المتهم البريء، أن أُذكرهم بحسنةٍ واحدةٍ من حسناتي، لكنهم لا يتذكَّرون محاسن أحيائهم، فاخترت الصمت مُجبرة كعادتي، أحسست بأن حركة الريح التي أسير عكسها وضجيج المارَّة الذي يصمُّ أُذنَي بنميمتهم قد علقا في الزمن.

ثبُتت الصورة أمامي على أناس لا يتحركون بينما شفاههم تُتمتم بكلماتٍ لا أميزها، أياديهم تلوح في غضب، عيونهم تنهمر منها نظرات الشماتة، واقفين في أماكنهم، مُتجمِّعين وأنا بعيدة بمسافة وحدي، حولنا فراغ كبير يزيدني وحشة، حالة ترقُّب غريبة، حتى أوراق الشجر سكنت وصمتت مثلي عن حفيفها المعتاد، بَهتت

خُضرتها ونَضبت نضارتها، راحت تتأهَّب للاصفرار والسقوط، مع أن الخريف لم يأتِ بعد.

هربت إلى النهر المقدس لأتطهر بمائه، لأترك به همومي وأتخلص من آلامي. لم يبقَ لي غيرك يا عدرا.. لم يبقَ لي غيرك يا أم النور.. لا تتركيني وحدي فأنا اليوم غريبة، وحيدة، تائهة.. بعدما تخلَّى الجميع عني.. النفوس المطمئنة فقط هي التي تعرف طريق العودة، وأنا لم أطمئن يومًا حتى الآن.

أمسكت حصاة صغيرة مفلطحة، وزنتها في يدي ثم طوَّحت بها بعيدًا في النهر، راحت تتقافز عدة مرات متلاحقة قبل أن تغرق للأبد وكانت تظن أنها ستعبر النهر قفزًا، هزَّ الكلب ذيله في سرور وجلس بجواري، شاهدت قرص الشمس يغوص ببطءٍ في النيل وهو يحمَرُّ خجلًا أو خوفًا قبلها. تحسَّست بطني المنتفخ في أسى، أخيرًا رضي عني الرب ومنحني بذرة من رِزق، صِرت حُبلى، وربما يكون ولدًا كما كان هلال شقيق خِضر يتخوَّف من ابن القبطية الذي سيرثه لكنه حدث من غير شقيقه، منح ربي ابنًا لرِزق الذي انتظر كثيرًا حتى عوَّض الله صبره، لكن متى؟ لمَّا راحت عافيته، بعدما فُرِّقت عنه، بعدما استردني خِضر منه؟!

غامت الدنيا واسودَّت أمام عيني.. لماذا يأتي طفل لهذه الدنيا القاسية الآن؟ لا إجابة قريبة عندي سوى لكي يقتله أولاد خليفة في المستقبل القريب لمَّا يصير شابًّا!

عقلي ما زال عاجزًا عن تصديق ما رأيته لمَّا أفرجوا عني من المركز بعد الجلسة، يومها رجوت الصول المُكلَّف بحراستي للسماح لي بزيارة بيتي.. بيت القبطية.. قُلتها لأول مرة وابتسمت، لكن الصول نظر لي مدهوشًا ولم يُبادلني الابتسام.

جفَّف عَرَق الحَرَج بمنديله الكبير، أطرق لوهلة، لا يريد أن يواجهني بعينيه، ألححت عليه مرات ومرات حتى وافق. علمت منه أنهم هدموا نصف البيت أو يزيد أثناء فترة حبسي بالمستشفى، تشابهت عليَّ الطُّرُقات والسِّكك، تغيَّرت النفوس فبدَّلت الوجوه، سددت أُذنَي وأغمضت عيني مُتلمِّسة خطواتي بالكاد خلف حارسي، رأيت بيتي أنقاضًا، نصف البيت تساوى بالأرض والنصف الآخر ضُرب بمعاول قوية فتصدَّع، وزحفت به الشروخ كثعابين تنهش ذكرياتي في نهم.

بيت القبطية الذي كان مقامًا مُقدَّسًا للمسلمين والأقباط على السواء، يطوفون حوله ويمسحون كفوفهم بجدرانه ثم يضعونها على وجوههم وهم يُتمتمون بالدعاء لي، الآن هدموه ودهسوه بأقدامهم، وصاروا يلعنونني جهرًا بعدما أضحى بيتي مكانًا نجسًا كما قالوا!

أخبرني الصول أن قرارًا بالإزالة قد صدر منذ أيام على بيوت كثيرة للأقباط ولست المقصودة وحدي، لكني أعلم أن بيتي لم يكن مخالفًا، رِزق لم يُخالف القانون يومًا، ومع ذلك لم يُنصفه القانون أبدًا، لكنهم يمحون ذكراي من رؤوسهم.

غـادر رِزق بيـت القبطية ليعيش مع شـقيقته ولا يجـرؤ أن يدعوني لبيتها علنًا، طلب أن ألقاه في السـر حتى لا نُثير أهل القرية ومن قبلهم الكنيسة. ما يُطمئن قلبي أن رِزق صفح عني وغفر لي، أخبرتني شقيقته أنه سـيُغير مِلَّته ونتزوج مرة ثانية لمَّا يتم طلاقي من خِضر.. لكن رِزق صار حطامًا وأصبحتُ ركامًا، ننتظر سـويًّا سيل الكراهية ليجرفنا بعيدًا وهو آتٍ لا محالة.

عُدت أنظر إلى أمواج النهر المتكسـرة على ضوء القمر، كم تُشـبه حياتـي كلهـا، لا تكتمـل فرحتي أبدًا، كلما شـعرت بأننـي على طريق السـعادة زالـت وتبخـرت قبـل أن أمسـكها بيـدي، ومضـات الحرية فـي حياتي لا تُشـبع ولا تُسـمن من خـوف. خلعت جلبابـي وفككت ضفيرتـي، قررت النزول للنهـر، هَبَّ الكلب واقفًا منتبهًا، رَبَّتُّ رأسـه لأُطمئنه، سـأبقى قرب الشـاطئ فأنا لا أُجيد السـباحة عكس التيار أو معه، لن أستسـلم لسـلطان أحد بعـد اليوم، ربما لم أتمكـن من اختيار حياتـي كما أحببت أن تكـون، لكني اليوم ربما أسـتطيع اختيار نهايتي وحدي.. على الأقل اخترت شيئًا بإرادتي.

غمر الماء جسـدي دون رأسـي، أغمضتُ عينَـيَّ مرتاحة لقراري، سيكون لي بيتٌ جديدٌ هنا، ولن أترك الطايعة للأبد.

*****

25

رأيت امرأة تُشبهها تجلس القرفصاء على ضفة النيل، نور مصباح قريب يُلهب شعرها المنسدل على كتفيها حتى ظهرها، يجعله كخيوطٍ مجدولةٍ من القمر، تلك أول مرة أرى فيها شعرها من غير طرحة!

تغسل ثوبها وتبدو شاردة، حين سمعتْ وقع خطاي التي تتحطَّم أسفلها أوراق الشجر الجافة، لوت رأسها قليلًا نحوي وبان على ملامحها القلق.. التمستُ لها عذرًا.. فالمرء لا يعرف مَن الذي قد يعترض طريقه في الليل، تلك إحدى مفاجآت القدر، بل المفضلة لديه دائمًا.

استندت مكتوف اليدين إلى جذع شجرةٍ عجوز، تواريت خلفه أرقبها من بعيد، أشعر دومًا أن وراءها شيئًا غامضًا يجذبني. الأحداث كلها تحركت منذ وصولها لتكون هي شبح نور طايع، تُعيد كتابة الأسطورة من جديد.. تُرى هل الأساطير تُعيد نفسها مثل التاريخ؟!

ظللت أنظر لها شاردًا غارقًا في أسئلتي حتى نفدت مني جميع الأجوبة. أعرف أن مهنتي لا تسمح لي بالتلصُّص على امرأة بعينين

يُحركهما الشك ويثيرهما الفضول وتدفعهما المعرفة، ثم يصدهما حاجز كبير بيني وبينها، صنعه المجتمع بعناية وشكونا لبعضنا من وجوده، بينما نرتكن عليه من الجانبين مرتاحين له. أخاف أن تنتحر هدى، لكني أؤمن بأن للخيل عِزَّةً لا يفهمها المرء بسهولة، تحزن ولا تبوح.. تتألَّم ولا تنكسر.. ولمَّا يفيض بها الكيل تموت.. لكنها تموت واقفة.

لمحتها تتحسَّس بطنها وهي تهز رأسها، ربما لتنفي هواجسي، ثم صرخَتْ في ألم، صيحتها لها وقع غريب على أذني مثل صدمة كهربية مؤلمة من جلَّاد لا يرحم، ظلَّت واقفة كأنها تُصغي لأمرٍ ما لا أسمعه، تُحدِّق حولها في ارتيابٍ وسكون الليل يلفني معها ولا تراني، عصبت هدى عينيها بقماشةٍ عريضةٍ ثم تحرَّكت باتجاه النهر.

شعرت بثقل قدمَي وسخونة في رأسي، صارت الصورة مشوَّشة أمامي، عُدت لاستراحتي بعدما غلب يأسي قلقي، تدثَّرت ببطانية ثقيلة وغطيت رأسي ونمت، ثم أفقت على يد رمسيس تُربِّت كتفي، نظرت له بدهشةٍ ولسان حالي يسأل: هل قابلتُها فعلًا أم كنتُ أحلُم؟!!

*****

مرَّت الأسابيع المتبقية من السنة القضائية في هدوء، اكتفى الجميع بما حدث لهم ومنهم، وربما اعتبروه فاض عن حاجتهم فقرروا أن تكون هُدنة بينهم،أخبرني رمسيس بالأمس أن آلام الوضع فاجأت هدى مبكرًا عن موعدها بشهرين ويحتاج لنقلها لمستشفى المركز،

رتَّبت الأمر مع رئيس النيابة وأوصلها سائقي قبل الفجر بقليل والقرية نائمة.

لظروف عملي في ذلك اليوم لم أتمكن من رؤيتها، فقد صدر قرار بنقلي وكان يتعين عليَّ الانتهاء من القضايا المؤجَّلة قدر الممكن، أمضيت الليلة بمكتبي أعمل حتى خيوط نور الصباح، ثم أغمضت عينَي مسترخيًا على أريكة لساعتين، صحوت على دقات أجراس الكنيسة الكبيرة وقد عادت عالية بعد توقُّفٍ لأسابيع، ثم تبعتها أجراس ثانية فثالثة ورابعة. عُدت للاستراحة، صعدت غرفتي متثائبًا، وجدت صليبًا ذهبيًّا صغيرًا يتدلَّى من سلسلةٍ بجوار سريري، التفتُّ لرمسيس الذي يسير في ذيلي مُطرقًا، أخبرني في أسى أن هدى تركته بالاستراحة قبل ذهابها للمستشفى، ثم قال بصوتٍ متحشرج:

– البقية في حياتك يا باشا.. الست هدى تعيش انت.

سمَّرتني كلماته في مكاني، ليسترسل بعينين دامعتين شارحًا كيف ماتت بعد الولادة بالمستشفى، بعدما نزفت كثيرًا ولم يجدوا مَن يتبرَّع لها بالدم من المسلمين أو المسيحيين.

ظللت صامتًا أُحملق في وجهه الحزين، هربت الكلمات من فوق طرف لساني، رحلت هدى فجأة وتركت لنا صدمة، مضت تاركة دنيانا قبل أن ترى ما عاشت لأجله، كلهم رفضوا التبرُّع بدمائهم.. كلهم صاروا ذلك المجهول الذي يقتل واحدًا منَّا أمام أعيننا كل يوم.. كلهم صاروا قضاة وجلادين، ثم بكوا بحُرقةٍ كأنهم ضحايا.

قهـر واقعي أحلامي وبخَّرهـا، دائمًا الواقع يغلب الحلم، يسـتعيد حقوقه منه بسـرعة، لا يترك الأحلام تحجبـه زمنًا طويلًا. أحيانًا بعض الأمور تتجاوزني، تتعدَّى قدراتي، لن يفيدني مقاومتها أكثر من طاقتي، وأحيانًا أخرى يكون استمراري في المقاومة مؤديًا للهلاك. وقتها لا بد من هُدنةٍ واسـتراحةِ محاربٍ فلم أعُد قادرًا على إرغام القدر على فعل مـا لن يفعله، أعظـم التضحيات التي يمكنني القيام بهـا في هذا الزمن الرديء أن أقتنع بما يمكن فعله وما لا أستطيع منعه، لكي أواصل حبي للحياة أو حتى مجرد الحياة.

أطبقـت علـى الصليـب بيـدي ثـم تركتـه مكانـه ودمعـت عيناي، حزمـت حقيبتـي بـلا ترتيب اسـتعدادًا للسـفر. قبـل أن أُغـادر الغرفة عُدت ودسسـت صليب هدى بجيبي، أمسـكت بكتابَي توفيق الحكيم ووضعتهمـا بالمكتبة في المكان ذاته بين مجلدات ضخمة، دفسـتهما بحيـث لا يراهمـا أحد بسـهولة كما كانـا، لا حاجة لي بهمـا، وغيري يعجبه حاله، لا شيء تغيَّر!

التفتُّ لرمسـيس الذي حمل عني حقيبتي، سألته بحذر.. خائفًا من الإجابة:

– ويا ترى المرحومة هدى خلِّفت والا ماتت هي والجنين؟

– جابت ولدين توءم يا باشا.. ووصتني أسميهم "نادر" و"كمال".. لكـن المستشـفى رفـض تسـجيل اسـم الأب؛ لأن خِضر رافـع قضية عليها.. وبيقول إن العيال عياله، والنهارده ساب الطايعة وهرب.

- ليه يهرب؟! هو خايف من مين؟

- لأن عليه تار أخوه هلال مع الجماعة السنية اللي قتلوه، والتار كبير عليه ويخاف ياخده بعد ما هددوه، فهِرب الجبان قبل حتى ما ياخد عزا الست هدى أو يشوف العيال.. ربنا يعزينا كلنا.

ابتلع رمسيس ريقه بصعوبة ليحبس دموعًا ترقرقت بمقلتيه ثم أردف بنبرةٍ خفيضة:

- داهية تاخده وقبر يلمه عن قريب.

*****

في سراي النيابة لملمت بقية متعلقاتي، تركت فقط طاقم مكتبي الذي أهدتني خطيبتي إياه، التقيت وكيل النيابة الجديد الذي سيحل محلي، كله حماس للعمل ورغبة في تحقيق العدل حسبما بان لي من حديثه، ابتسمت في مرارة وصافحته في ود، وتمنَّيت له السلامة، نظر إليَّ في دهشةٍ لكنه لم يُعقِّب على كلامي.

لاحظت أنه يحمل بيده أوراق بلاغ جديد، طلب رأيي فيه سائلًا هل يحتاج لعرضه على رئيس النيابة أم أنه مجرد بلاغ عادي، أخبرني أن عاملًا يُدعى محمد صميدة وجدوا جثته مبقورة وملقاة بالترعة، سألته بلا مبالاة:

- وعرفوا مين اللي قتله والا الفاعل مجهول؟

– التحريـات بتقول إن القتل بسـبب مشـاجرة بالمقهـى مع مزارع اسمه أحمد الكومي لخلافات على ..

قاطعته بهدوء:

– يعنـي أحمد قتل محمـد.. ده بلاغ عادي بيحصـل كل يوم، بلَّغه بالبلاغات المهمة بس!

قبل الرحيل قـرَّرت زيارة قبر نبوي الديب لتوديعه بمدافن الصدقة هنـا بقرية الطايعة، حيث يُدفن مَن لا أهل له وربما مَن لا دين له أيضًا. هذا هو مشواري الأخير بعد نقلي بغير سابق إنذار في الحركة القضائية إلى أسوان، حرَّكوني لمسافةٍ واسعةٍ هذه المرة، إلى آخر نيابات جنوب مصر على الخريطة، أيضًا تم نقل رئيس النيابة إلى الإسكندرية، كأنهم يباعدون بيننا قدر ما استطاعوا بعدما اقتربنا.

ظللـت طـوال الطريق أنظـر من نافذة السـيارة، موظفـو المحافظة يعملون كالنمل في رصف الطريق، استعدادًا لزيارة الغد من بعض فناني الصـف الثاني وقيادات الحزب الوطني للحديث عن تجديد الخطاب الديني، ترديدًا لمقولة الرئيس حسني مبارك بالجرائد القومية.

قلبت في الصحيفة بلا مبالاة، تصريحات مبارك تحولت لمقالات متناسـخة شـبه متطابقـة مـن كل رؤسـاء التحريـر تؤكد علـى أن الغد أفضـل. يـا ترى ما الـذي تنتظره أمة غـدًا من أملٍ غابت شمسـه خائبة يائسـة بالأمس القريب؟! كرهت تسـاؤلاتي وهززت رأسي أسفًا على

حالنا، كل شيءٍ هنا انفعالي.. مؤقت.. قصير الأجل، لا شيء يتراكم ويتعاظم عندنا على السطح إلا غبار الفتنة.

شعرت بأن الشهور الماضية كانت مثل ليلٍ طويلٍ موحشٍ وكئيب، الآن أخرج إلى النهار بعدما لاحت خيوط النور، صحيح على استحياء لكني أراها من بعيد، التفتُّ خلفي بعدما تجاوزنا العمال بقليل، لمحت اللافتة التي تحمل اسم قرية الطايعة ملقاة على الأرض كجثةٍ هامدة، عُمَّال المحافظة يدهسونها بأقدامهم بينما هم منشغلون في غرس اللافتة الجديدة تنفيذًا للتعليمات.. لافتة تحمل اسم القرية الجديد الذي اختارته الحكومة بإرادة منفردة.. قرية السلام.

عُدت لجريدتي، وقعت عيناي على عنوان صغير بصفحة الحوادث "برَّأت محكمة الجنايات جميع المتهمين في قضية أحداث الطايعة"، سواء الأقباط أو المسلمين من جرائم القتل والجرح والنهب والسلب التي وقعت وكأن الفاعل مجهول فعلًا. لكن خليفة مات ولا يمكن اتهامه، وعلينا انتظار خليفة جديد!

مررنا بجوار بيت القبطية، تعرفت عليه بصعوبة، ما كنت لأعرفه لولا أن نبهني السائق له، طلبت منه أن يدور ببطءٍ حول أطلال البيت، لمحت بابه الخشبي العريض راقدًا وسط الأنقاض يعلوه التراب، لا يزال الصليب الأسود مرسومًا عليه، يا ليتها انتظرت، القدر يُرجئ مفاجآته دومًا للحظات الأخيرة بعدما يستبد بنا اليأس، ها هو خِضر

قد هرب في نهاية رحلة بحثه عن هدى، ورزق يتماثل للشفاء، يا ليت القدر منحها فرصة أخيرة.

وصلنا إلى حوش الدفن بغرب القرية، اندهشت لوجود الكثير من عربات الأمن المركزي وعشرات من رجال الشرطة. فجأة رنَّ هاتفي مُعلنًا عن وصول رسالة جديدة من خطيبتي، تُخبرني فيها أن عديلي المستقبلي حصل على البراءة وسيعود خلال أيام إلى عمله القضائي مرة أخرى، تركت لي وجهًا مبتسمًا بنهاية رسالتها التي تسألني فيها عن موعد عودتي لنستكمل معًا مشوار تجهيز شقتنا، وجدت أيضًا أنها اتصلت بي خمس مرات ولم أسمع جرس الهاتف. مسحت الرسالة وضبطت هاتفي على الوضع الصامت، تحسَّست مسدسي، أخرجته من جِرابه وتأمَّلت ساقيته الفارغة من الطلقات، طالما تمنيت استخدامه ولم أفلح، زفرت في ضيقٍ وأعدته مكانه، أمسكت بالهاتف مرة ثانية وكتبت رسالة قصيرة لخطيبتي، ضغطت على زر الإرسال، وتنهَّدت بعدها تنهيدة طويلة في راحة.

سألت أحد الضباط عن سبب كثافة القوات التي تنتشر في المكان، أخبرني أن جثمان هدى حبيب سيُدفن بعد قليلٍ بمدافن الصَّدَقة، ويخشون غضبة الأهالي بعدما لفظتها الكنيسة وتبرَّأ منها الشيخ رجب في البداية، لكن خِضر قرر بالمحضر أنها أسلمت شفويًّا لتتزوَّجه فوافق على دفنها. حدَّثت نفسي لو كانوا وفروا لها نصف هذه القوات من أجل حمايتها حال حياتها لما ماتت مرات ومرات بيننا من قبل!

اختـرت ركنًا قصيًّا بنهايـة الحوش، رُحت أقـرأ الفاتحة على روح نبـوي الديب، الرجل الذي عاش مجـرد كومبارس في فيلم رديء، أو مثل شـخصية ثانوية في رواية طويلة، سينسـى المتفرج ملامحه عندما تتغيـر اللقطة، ولن يتذكـره القارئ وهو يقلب صفحات روايته، دمعت عيناي فأدرت وجهي كي لا يراني أحد.

حدثـت جلبـة، ورأيت على مبعـدةٍ بهائم سـائبة، ثم هـرول جنود كثيرون أمامي، راحوا يُشـكِّلون كردونًا بشـريًّا حـال بيني وبين الناس، انتبهـت لوصـول الجثمان، وقف الشـيخ رجب بجوار مأمـور المركز يُلقـي عِظةً موجـزةً على مضض، يدعـو للمتوفاة بالمغفـرة بنبرةٍ باردةٍ ولا يذكر كلمة الرحمة أبدًا، ثم راح يتلو آيات قصيرة من سـورة التوبة انتقاها بعناية، أتوا بالشيخ ذاته ليودع القبطية، يبدو أن اللوائح لا مشاعر لها مثل بعضنا.

غلَّفنا صمت القبور رغم أعدادنا الغفيرة حتى سمعتُ بكاءً مكتومًا مـن خلفـي، يعلو ويخفُت، وجـدت رِزق زوج المرحومـة هدى دامع العينيـن، جالسًـا علـى كرسـيه المتحرك مُطرقًـا، ومن ورائه رمسـيس يدفعه بهدوء، أضاف الزمن سـنين إلى رِزق بلا حسـاب فجأة، تلاقت نظراتنـا في صمت، اقتربت منه وصافحتـه، أخرجت الصليب الذهبي مـن جيبي ووضعته بين راحتيه وأطبقتهما، ثم غلبتني دموعي مرة ثانية فأدرت وجهي كي لا أراه، بينما نحيبه يخترق قلبي ويمزقه.

تأهَّبـت للرحيل، تلاقت عيناي مع رمسـيس في نظرة وداعٍ أخيرة، عرفـت هذا الصباح أن النيابة فتحت تحقيقًا موسَّـعًا في حوادث حرق

الغيطان وانتحار بعض الأهالي من فوق الأسطح والتلاعب في أوراق حيازة الأراضي، أصابع الاتهام تُشير له بالطبع لكنها لم تقُم باستدعائه بعد.

بـدت ملامح رمسـيس هادئة سـاكنة مثل الموتى وعينـاه ذاهلتان، لكنه هذه المرة لم يكن يبتسم.

قبل أن أسـتقل سيارتي لمحت شـقيقة رِزق جالسة مع بعض نساء القريـة، كلما اقتربت منهن ارتفع العويـل ودوَّى الصراخ، ليُغطِّي على بكاء طفلَي هدى اللذين أراهما بالكاد، يبدوان بلا ملامح واضحة، لم أرَ إلا أطيافًا سـوداء مهزوزة، ورثا إرثًا ثقيلًا من شقاء واضطهاد، صارا مجـرد خيالات تتراقص كالطير المذبـوح، تنتظر قرارًا من القاضي في جولةٍ طويلةٍ بإثبات نسـبهما لأب من اثنين.. رِزق أو خِضر، ليستكملا بعدها مسيرةً أشبه بقفزةٍ في الظلام، فهل يستطيعان النجاة؟!

مضيت لحالي ولـم أعـرف إجابة قاطعة بعد، وربما لا أجدها أبدًا، رحلت تـاركًا الطايعة ورائـي مُترحِّمًا على هدى حبيب، تلك السـيدة التي ماتت منَّا ؛ لأنها فقط أرادت الحياة.

"تمت"

أشرف العشماوي

9 سبتمبر 2019

إهداء

إلى مَن عاشوا في خيالي سنوات طويلة: مُعلِّمة اللُّغة العربية هُدى يوسف حبيب.. والخفير نبوي الديب.. وحارس الطواويس محمد علوان.. والبائع المتجوِّل صليب لبيب.. وموظف شركة الكهرباء حليم إسكندر تادرُس.. والطفل حمادة إسلام.. والفلاح نجيب صمويل.. وتاجر الكِلِيم هلال خِضر، على روحهم جميعًا السلام.

أشــرف ..

مكتبة نوميديا 226
Telegram @Numidia_Library

بَيت القِبطية

مُحقِّق قضائي يحاول تتبُّع جرائم جنائية في قريةٍ صغيرةٍ بشمال الصعيد، فيُفاجأ بما هو أخطر: حوادث قتلٍ بغير باعثٍ منطقي، وحالات انتحار مُريبة، واحتراق زراعات وبيوت بدون سببٍ واضح، لتكبُر حالة الشَّك المصاحبة للجميع بمَن فيهم المُحقِّق، الذي يتقاطع مصيره مع سيدةٍ قبطيَّةٍ غامضةٍ. في هذه الرواية يغوص الكاتب أشرف العشماوي في نفوسٍ مُعقَّدةِ التركيب، ناسجًا أحداثه في عوالم جديدةٍ مُدهشة، ومفارقاتٍ مُضحكةٍ مُبكية، عبْر إيقاعٍ سرديٍّ جذاب، يُثري الفكر ويُثير الخيال، تاركًا مساحة رحبة من التأويل للقارئ.

أشرف العشماوي، قاضٍ وروائي مصري. صدرت له سبع روايات طويلة: "زمن الضباع"، و"تويا" التي وصلت للقائمة الطويلة لجائزة البوكر العالمية لأفضل الروايات العربية، و"المرشد" و"كلاب الراعي" و"البارمان" التي فازت بجائزة أفضل رواية عربية من الهيئة المصرية العامة للكتاب و"تذكرة وحيدة للقاهرة" و"سيدة الزمالك". ترجمت بعض رواياته لعدة لغات، وبيعت حقوق الملكية الفكرية لها لتحويلها لأعمال درامية بالسينما والتلفزيون.

9 789777 952460
للشراء عبر موقعنا
store.almasriah.com
الدار المصرية اللبنانية